

تأليف

دكتور محمد زين الهادي
أستاذ الدعوة والإعلام
بمعهد السلطان قابوس للدراسات الإسلامية

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

مقدمة

الحمد لله واهب العقول، قاسم الأرزاق ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1]. ﴿ ... ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[2]. له الشكر على ما وهبنا من علمه لنهتدى به فى دياجير الدجا؛ لنعرفه به. ولنعبده على بيِّنة ﴿ ... وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3] وله الثناء الحسن حتى نلقاه، على ما أودع فينا من جسد من طين لازب ليناسب حياتنا على الأرض التى منها خلقنا؛ ليتم التجانس والتآلف بيننا و بينها وما تنبت ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[4] وما بث فينا من نفخته الروحانية التى بها نتألق إلى العلا، ونرتفع فوق جسدية التراب، حتى نعانق الملائكة النورانية التى أُسْجِدَتْ لنا؛ تكريما وتعظيما لله الذى خلقنا بهذا التركيب العجيب المُعْجِز...!!

والصلاة والسلام موصولان إلى أفضل خلقه وصفوة رسله محمد، صلى الله عليه وسلم، أزكى النفوس وأطهر الأعراق الذى كمل خَلْقاً وخُلُقاً، فاجتمع له كمال البشر النبوى، الذى أجمل له خالقه ذلك بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[5].

---

(١) سورة العلق. الآيتان (٤ و ٥).
(٢) سورة طه ـ من الآية (٥٠).
(٣) سورة الإسراء ـ من الآية (٨٥).
(٤) سورة طه ـ الآية (٥٥).
(٥) سورة القلم ـ الآية (٤).

وعلى آل بيته الأطهار وصحابته الأبرار.

أما بعد:

فإن الإسلام جاء ليختم الرسالات الإلهية للبشرية، فجمع الله فيه فضائل الرسالات السابقة، وميزه بخصيصتين تجعلانه يساير كل عصر ويتلاءم مع أهل كل مصر، ويلبى حاجات كل أمة وفرد، ويبين كل شيء. ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ... ﴾[1]، ﴿ ... مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ... ﴾[2].

الخصيصة الأولى هى: الثبات فى أصوله وقواعده وأركانه، التى تستعصى على التغيير والتبديل والتحريف والزيف، مهما كانت المحاولات، ومهما تطاولت العصور وناءت بكلكلها.

والخصيصة الثانية هى: المرونة والسعة والسهولة فى فروعه التى تأتى فى شكل عموميات فضفاضة ذات فروع كثيرة يانعة الثمار، دانية القطوف لكل مُجْتَن، ميسرة لكل صاحب فكر ثاقب وعقل نير. ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[3].

ويتضح ذلك من سعة وتنوع تفسير النص الإسلامى - قرآناً وسُنَّةً - فإننا نرى النص الواحد يتسع تفسيره؛ ليتيح المجال لكل من تخصص فى فن بعينه، وتبحر فيه وكشف خفاياه يتيح له أن يستخرج منه ما لم يفطن إليه غيره من أصحاب التخصصات الأخرى، كلٌّ حسب ما أعطاه الله من علم. وإن القارئ ليعجب عندما يقرأ تفسيرا لمتخصص فى نص بعينه، ثم يقرأ تفسيرا لنفس النص من متخصص آخر... ورابع... وعاشر... الخ، وفى كل مرة يجزم أن النص ما جاء إلا لهذا...!!

(١) سورة النحل - من الآية (٨٩).

(٢) سوة الأنعام - الآية (٣٨).

(٣) سورة القمر - الآية: (١٧).

إنها المرونة الموسوعية الاستيعابية الحافظة لهذا الدين نجاحه فى الاستمرارية بنفس قوة الدفع الأولى فى عصر الرسالة الأولى، دون أن يصاب بالترهل أو الشيخوخة، ودون أن تتخطاه عجلة الزمن..

ولا غرابة فى ذلك؛ فإن الله الذى خلق هذا الكون وجعل له سننا يسير عليها لا تتخلف أبدا - هو رب الدين الذى أراد له أن يكون خالدا بخلود هذا الكون. وقد أودع فيه سنة مسايرة الأزمنة والأمكنة. فسنن الله فى الكون لا تتعارض مع سننه فى دينه الخاتم؛ لأنهما يخرجان من مشكاة واحدة أبدعها رب واحد، لا إله إلا هو.

وإن الكتاب الذى بين أيدينا يعالج موضوعا من أعقد الموضوعات العلمية، إن لم يكن أعقدها على الإطلاق، وهو موضوع النفس البشرية. يعالجه من زاويتين: قديمة، تتمثل فى علم النفس العام، وجديدة تتمثل فى علاقة هذا العلم بالدعوة.

إن المسلمين لو ساروا على سنن الله فيهم، لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه اليوم من الحالة التى لا يحسدون عليها.

لقد جاءت سنة الله فيهم بمثابة القانون الذى إذا ما استعملوه أوصلهم إلى النتيجة الصحيحة. والعكس صحيح، وهى المتمثلة فى قوله، تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... ﴾[1].

فهى أمة (أُخْرِجَتْ) إخراجا ولم تأت لهذا الوجود صدفة، حيث إن كلمة (أُخْرِجَتْ) تعنى القصد والاعتناء والاستعداد والإعداد. فهذه الامة - إذَنْ - أُعدت إعدادا خاصا وأخرجتْ إخراجا خاصا؛ لتكون خير الأمم، ولتحمل رسالة الدين الخاتم للبشرية كافة. فهذا قَدَرُهَا. وهذا طريقها. فإن هى

(١) سورة آل عمران - من الآية (١١٠).

سارت عليه وصلت. وإن جَافَتْهُ تاهت وتخبطت. وسنن الله لا تتغير. ﴿ ... فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[1].

وعندما سار الأوائل على هذه السنة قادوا الأمم سيادة وعلما، عندما كان الغرب يسبح فى بحر لجى من ظلمات الجهالة، كان المسلمون يوقدون مصابيح العلم حتى تقاطرت جماعات الطلاب من أنحاء الدنيا تستضىء بهذا العلم. وأيقظوا به بلدانهم من سباتها، فبدأت تلتمس طريقها نحو التقدم، حيث تخلف عنه المسلمون.

وبعد أن جَدَّ الغرب وَشَمَّرَ وبحث وَنَقَّبَ، وأشبع بلدانه علما وثروة - اشرأبت أعناقهم إلينا، ولكن هذه المرة ليس ليأخذوا عنا العلم، بل ليغزونا بما عندهم، وليأخذوا خيراتنا إلى بلدانهم، وليغيروا أفكارنا وعقائدنا وسلوكنا ومنهجنا؛ لنسير خلفهم - وليس بجوارهم - فى ذَيْلِيَّةٍ مذلة شائنة، سالكين طريقهم فى غير هدى حذو القذة بالقذة!!

إن العلم الذى أخذوه عنا - بحضارته - لم يتركوه كما هو عندنا، بل طفقوا يضيفون إليه ويطورون فيه. والأدهى من ذلك أنهم صبغوه بعقائدهم، وألبسوه ثياب عاداتهم، ونحلوه من نحلتهم، فجاء إلينا هجينا من أفكارهم وعاداتهم وتلوثات بيئاتهم وخلجات أنفسهم، وحتى فضلات أمعائهم!!

ومن تلك العلوم التى وردتنا من الغرب، علم النفس بمدارسه المختلفة، قديمها وحديثها، حسنها وقبيحها. وهو علم بدأ مختلطا بالفلسفة إلى أوائل القرن التاسع عشر، عندما اختلف علماء الغرب فى تفسيراتهم له، فانبثقت من جراء ذلك عدة مدارس، حسب رؤى كل عَالِم لماهية هذا العلم... ولم تبتعد تلك المدارس كثيراً عن الأفكار السابقة، أفكار الفلاسفة الأوائل، أمثال أفلاطون وأرسطو، رواد العلوم الوافدة من الغرب..

---

(١) سورة فاطر - من الآية (٤٣).

فبالرغم من أن أفلاطون وأرسطو لهما الريادة فى كثير من العلوم الفلسفية، فإن هذا العلم ـ علم النفس ـ لم يكن له تاريخ محدد منضبط تعرف به بداياته الأولى؛ لأن محاولات أفلاطون وتلميذه أرسطو كانت فى نطاق الفلسفة، وتحدثا ضمنها عن الروح والنفس، شأن كل قدماء اليونان ممن اشتغل بالعلم.

فمثلا: كان أفلاطون يقول بوجود مستقل للروح، مع عدم تحديده لها، كوصفه للإنسان بأنه مكون من: روح وعقل ولذة.!! وكحديثه عن الكون ووصفه له بأنه عبارة عن: جوهر ومادة.....!! وكان يمجد العقل ويزعم: أن جوهر الوجود لا يدرك إلا به!!

وقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات، جعل أرقاها هى التى تتميز بقوة العقل، وجعل الحكام من هذه الطبقة، حيث كان اليونان يؤلهون الحاكم، وزعم أن هذه الطبقة هى التي تفهم جوهر الوجود!!

والثانية هى الطبقة المنهمكة فى جمع القوت، فألهاها عن التفكير، فلم تعد تفهم الفضيلة، ولا تتطلع إلى المعالى، وهى الطبقة العاملة.

والثالثة: هى التى تغلب عليها قوة الروح وتبرز فيها صفات الشجاعة، وهؤلاء هم الجنود، حراس الطبقة الأولى.!![1].

وهى نظرة وثنية استقاها من وثنية اليونان..

ولم يبتعد عنه كثيرا تلميذه أرسطو، وإن خالفه فى بعض المفاهيم الفلسفية المتصلة بعلم النفس فى أطواره الأولى الممزوجة بالفلسفة..

ففى جانب الروح، نفى أن تكون عنصرا مستقلا، وعرفها بأنها: مجموعة الوظائف الحيوية التى يقوم بها الكائن الحى...!! وهنا يكون قد مزج بينها

(١) انظر: السلوك الإنسانى، ص ٥، د/ انتصار يونس.

وبين النفس، وهذه نظرة اتفق فيها معه بعض علماء المسلمين. وهى الأقرب إلى الصواب، فى نظرنا كما سيأتى لاحقا إن شاء الله. كما تحدث عن العقل وماهيته والفكر وتحليلاته. وزعم أن الإنسان حيوان مفكر، يستطيع الوصول إلى معرفة المعانى الكلية عن طريق الاستدلال والمقدمات المنطقية ومسلماتها. وزعم بعض الباحثين أنه أول مؤسس لعلم النفس الفلسفى[1].

ثم تلت تلك الحقبة خطوات انفصلت فيها دراسات الروح عن العقل - وكان ذلك بعد أن مُنِعَتْ الكنيسة من الخوض فى العلوم الدنيوية - فاختص بالأولى رجال الدين، وبالثانية الفلاسفة.

ثم خطا علم النفس خطوات جديدة بعد ظهور مدارس علم النفس الحديثة التى كانت على رأسها (الديكارتية) لمؤسسها الفيلسوف الفرنسى (ديكارت) فى القرن الثامن عشر... فقال بحرية العقل ومنطقيته. ثم جاء بما يسمى بنظرية الفعل المنعكس (الفيسيولوجية) التى فسر السلوك الإنسانى على أساسها، وقولها بارتباط الأشياء بعضها ببعض ارتباطا حسيا عضويا بما فى ذلك النفس والشعور. ولم تتطرق إلى اللاشعور. وهى مدرسة قديمة من أيام أرسطو.

فزعموا: أنه مثلما تترابط المادة بجزيئات صغيرة، كذلك العقل يتماسك بجزيئات دقيقة، يقود ترابطها إلى مركبات هى المفاهيم والمعانى الكلية... والإنسان يتذكر نتيجة لارتباط الحوادث بعضها ببعض أو ما يسميه (هوبس) - وهو من أنصار هذه المدرسة - بعملية: الاستدعاء، أى استدعاء الحوادث بعضها بعضا...[2].

وظهرت فى ألمانيا المدرسة الوظيفية فى نفس القرن، وفى أمريكا عام

---

(١) المرجع السابق ص ٦.

(٢) انظر: مدارس علم النفس، د/ فاخر عاقل، ص ٥٩.

١٨٩٨. وهى تعتنى بوظائف الأشياء أو عملها. مثل قولهم: ما وظائف الأعضاء فى الجسم؟ وما هى علاقتها بالنفس؟ وما هى وظيفة النفس فى الجسد؟ ومن روادها (تتشنر) الإنجليزى وغيره مثل (جون ديوى) الأمريكى..

ثم المدرسة التحليلية فى القرن التاسع عشر التى تعتمد تحليل الخبرة الشعورية كقاعدة لدراسة النفس الإنسانية. وهى من المدارس التى تعتنى بالتجريب على النفس. ومن روادها (فونت) و (دارون) صاحب نظرية التطور. وقد ازدهرت فى النمسا فى حوالى عام ١٩٠٠م.

وأخيرا المدرسة السلوكية التى وطدت أقدامها فى أمريكا فى عام ١٩١٢م، ويعتبر (واطسون) حامل لوائها الأول. كما أنه (اتجه) بعلم النفس إلى التجريب المعملى، وجعل النفس البشرية مجرد قطعة مادية تجرى عليها تجارب البشر فى المعمل!! وقال فى كتابه السلوك (مدخل إلى علم النفس المقارن): (علم النفس كما يراه السلوكى، فرع موضوعى وتجريبى محض من فروع العلوم التجريبية. ويبدو أن الوقت قد حان ليتخلص علم النفس من كل إشاة إلى الشعور، ومن ملاحظة الحالات النفسية. إن من الممكن كتابة علم النفس دون الإشارة إلى (الشعور) و (الحالات النفسية) و (النفس) و(فحوى الخبرة) و (الإرادة) و (التصور) وما إلى ذلك. إن من الممكن كتابته ضمن حدود (المثير والاستجابة) و (تكوين العادات) للمراجعة و (تكامل العادات) وما يشبه ذلك[١].

وهكذا أصبح الإنسان فى مفهوم المدرسة السلوكية عبارة عن آلة صماء تتعرض للمثيرات البيئية؛ لينتج عن ذلك استجابات معينة. أو تفحص داخل المعامل لينتج رد فعل يقيسون عليه سلوك الإنسان، ويقوِّمون أحواله النفسية. على ضوء نتائجه ليقولوا للمجتمع: هذا هو السلوك البشرى السوى!!

---

(١) المرجع السابق ص ٩٢.

والسلوكيون بمنهجهم هذا قد فَرَّغُوا الإنسان من كل خصائصه: النفسية، والروحية، والعقلية، والفكرية، والشعورية، وجعلوه مجرد قطعة تجارب!! وهذا ما عناه العالم الإنجليزى (سيرل بيرت هازلا) (إن علم النفس الحديث فقد روحه، ثم فقد شعوره، ثم فقد عقله.)[1].

ولقد مرت مدارس علم النفس ـ قديمها وحديثها ـ بثلاثة محاور رئيسة لم تخرج عنها فى جملتها، وهى:

المحور الأول: عندما كان علم النفس مختلطا بالفلسفة كجزء لا يتجزأ من أبحاثها، شأنه شأن ما يسمى بالعلوم (الإنسانية) وكان فى هذا الطور يسير على منهج وثنية اليونان ابتداءً من أفلاطون وأرسطو وغيرهما..

المحور الثانى: بدأ بما يسمى بعصر التنوير، وهو الذى انفصلت فيه العلوم وما يتعلق بها عن الكنيسة، بعد أن كانت تفرد جناحها على كل شىء. ففى هذا الوقت بدأت العلوم تخلع اللباس الدينى، ومن ضمنها علم النفس الذى لم ينفصل بعد عن الفلسفة، وكان من رواده العالم (جاليلو) وغيره..

المحور الثالث: هذا الطور هو الذى بدأ بعصر النهضة العلمية ـ عصر الثورة الصناعية وما بعدها ـ الذى تولد عن ثورات سبقته مثل الثورة الفرنسية رائدة العلمانية فى الغرب.

وظهر فى هذا الطور كثير من الفلاسفة الذين كانوا من رواد كثير من العلوم التى من ضمنها علم النفس، ومنهم: (ديكارت) و (أوجست كونت) ثم (دارون) و (فرويد) و (ماكدوجل) و (جون لوك) و (واطسون)...

وقد تميزت بعض فترات هذا العصر بتخبطات عديدة، تقلب فيها العقل الغربى من الإلحاد إلى عبادة المادة. إلى تأليه العلم والإعجاب بالمخترعات العقلية.

---

(١) التفكر، د. مالك بدرى ص (١٨)، نشر المعهد العالمى للفكر الإسلامى بأمريكا ط، ١، دار الوفاء بالقاهرة.

وكان ذلك على وجوه الإجمال فى القرون: الثامن عشر، والتاسع عشر، وأوائل القرن العشرين إلى حوالى منتصفه، ولكن مدارس علم النفس فى شكلها الحاضر تبلورت وتمايزت فيما بين: ١٨٩٨ - ١٩١٢م ولم تظهر مدرسة جديدة متكاملة لا قبل ذلك ولا بعده حتى الآن، وإنما توجد نظريات تطويرية لتلك المدارس[1].

وعلم النفس لم يقف يوما من الأيام مستقلا بذاته، ولم يقم على ساقه، بل كان دائما عالة على غيره: فهو مرة مغ الفلسفة فى تهويماتها وخيالاتها، وتارة يسير فى ركاب الثورات الإلحادية المادية، ومرة يصحب العلوم الطبيعية، مثل الفيزياء والأحياء!!

ويظهر لنا مما تقدم أن علم النفس غربى المولد والمنشأ، كما هو وليد ثورات وملابسات عديدة، عقدية وفكرية، بل واقتصادية. وبالتالى يحق لنا أن نقول: إنه لا يناسب بيئاتنا الإسلامية بشكله الذى هو عليه، وما لم تُجْرَ له عمليات جراحية تأصيلية وتجميلية، وعمليات تنظيف شاملة، ولكن - للأسف - ما يزال يدرس فى جامعاتنا ومدارسنا كما جاء من الغرب، شأنه فى ذلك شأن كثير من العلوم الأخرى! وبالتالى فهذه العلوم غربية فى كل شىء. وما يقال عن عالميتها فهو ضرب من الخداع والتمويه لا تسنده ذرة من الحقيقة، ويكذب ذلك الواقع الذى عليه هذه العلوم، فهى أجنبية حتى فى الأمثلة التى تساق للتوضيح...

والذى نعنيه هنا العلوم المسماة بالإنسانية: كالعلوم النظرية الفكرية الفلسفية، لا العلوم التطبيقية، حيث إن الأخيرة علوم محايدة، فى عمومها.

كما أننا لا ننادى بِاطِّرَاحِهَا وإِلْغَائِهَا، بل نقول بإصلاحها وأخذ النافع منها الذى يناسب أحوالنا، من عقيدة وفكر ومنهج وأسلوب حياة...

---

(١) انظر: مدارس علم النفس، د. فاخر عاقل ص ١٥.

ومدارس علم النفس، لم تتفق فى نظرتها للإنسان: فمنها التى تعاملت معه كمادة معملية وقطعة أثرية تجرى عليها التجارب داخل المعمل.

ومنها التى جعلته روحا دون جسد، فَهَوَّمَتْ في سبحات الخيال، ولم تلو على شيء.

ومنها التى تعاملت معه من منظور شكله الخارجى وأهملت ما سوى ذلك، من دواخل النفس وخلجاتها، وزعموا أن الظاهر يدل على الباطن، وأن ظاهر الجسم مرآة تنعكس فوقه مكونات النفس، فمن حسن تركيب خلقته وتناسبتْ أعضاء بدنه، كان طيب النفس، حسن الخلق، نقى السريرة، طاهر الوجدان. وأحسن طريقة لمعرفة النبيل من غير النبيل هو أن ننظر إلى شكله وأفعاله، فإذا كان حسن الشكل نبيل الفعل حكمنا بطيب أصله، وإذا كان قبيح الشكل قبيح الفعل، قلنا إنه من سواد الناس وحثالتهم، حتى نستطيع أن نجعل الناس زُمَراً، فمن تشابهت أجسامهم تشابهت أخلاقهم[1].

وأخذوا يصفون شكل الإنسان الخارجى، ثم يذكرون صفاته النفسية طبقا لشكله الخارجى: فوصفوا صاحب الوجه الطويل بنفسية معينة، وصاحب الوجه المستدير بنفسية أخرى، والممتلئ الجسم بنفسية، والنحيف بأخرى، وكذا القصير والطويل، بل ذهب بعضهم إلى احتساب اللون والسحنة[2].

أما علم نفس الدعوة فلا يقر تلك النظريات، ولا يربط بين الهيئة الخارجية على النحو المذكور، وبين النفس، فلا علاقة بين امتلاء الجسم والحالة النفسية والأخلاقية ولا الطول والقصر، ولا جمال الشكل وقبحه، فكم من أُناس أشكالهم جميلة ونفوسهم خبيثة والعكس.

---

(١) علم الفراسة (أسرار الخلقة وإبداعها) د. إحسان حقى ص ٢٠ وما بعدها، دار النفائس - بيروت - ط ٣ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م).

(٢) المرجع السابق ص ٣٩ وما بعدها.

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو أكمل الناس خَلْقاً وخُلُقاً يسأل الله الذى حسن خَلْقه أن يحسن خُلُقَه فيقول:

(اللهم أحْسَنْتَ خَلْقى فأحْسِنْ خُلُقى.)[1].

والغريب أن هؤلاء مع تقسيمهم ذلك للإنسان، يعترفون بأنهم لا يعرفون الإنسان على حقيقته، ولا يعرفون متى جاء لهذا الوجود.!! فهم يعترفون قائلين: (ونحن لا نعرف بالاستقصاء العلمى، متى بدأ الإنسان يفكر؛ إذ تنقصنا الأدلة العلمية، لا بل تنقصنا المادة الرئيسية لذلك، وهى: متى وجد الإنسان على سطح الأرض؟!)[2].

وإذا كان أصحاب مدارس علم النفس العام لا يعرفون متى وجد الإنسان، فإننا ـ فى علم نفس الدعوة ـ نعرف ذلك تماما ويقينا، بل ونعرف متى خلق، وممَ خلق، وما مهمته التى خلق لأجلها.! عرَّفَنَا بذلك كلِّه خَالِقُ الإنسان:

﴿ ... وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾[3].

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ... ﴾[4].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ... ﴾[5].

وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مخاطبا الناس جميعا معلنا مساواتهم فى الخلقة وفى الإنسانية: (... والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب...)[6].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١/٤٠٣.

(٢) علم الفراسة (أسرار الخلقة وإبداعها) د/ إحسان حقى ص ٢٦ دار النفائس ـ بيروت ١٤٠٦ هـ.

(٣) سورة السجدة ـ من الآية (٧).

(٤) سورة آل عمران ـ من الآية (٥٩).

(٥) سورة النساء ـ من الآية (١).

(٦) رواه الترمذى، كتاب تفسير القرآن، باب (٤٩)، ٥/٣٦٣.

أما علم نفس الدعوة ـ على حداثته ـ فهو يبحث فى النفس الإنسانية على ضوء هدى الإسلام العام ومعطيات القرآن الكريم والسنة النبوية، مستهدفا ضبط السلوك البشرى بما يتلاءم والهدف الإنسانى السامى من خلقه على صورته التى خلق عليها، وتوجيه سلوكه على هدى الإسلام، وضبط انفعالاته واندفاعاته بذلك المعيار المنضبط. فكل الاستنتاجات والدراسات والأقيسة تساق من منظور إسلامى دَعَوِى. مع الاستفادة ـ فى ضوء ذلك المعيار ـ من كل ما أنتجه الفكر البشرى وما هداهم إليه خالقهم. ننتفع بالصالح الذى لا يتعارض وأخلاقنا وعقيدتنا. وليس من شأن المسلم الداعى أن ينطوى على نفسه، بل هو دائم الانفتاح على غيره، يفيد ويستفيد، ولكن فى وعى إسلامى كامل، وفطنة لا تُخدع.

ولقد حاولنا فى هذا الكتاب أن نسير على هذا المنهج فى عمومه، مع استعمالنا لكثير من مناهج البحث العلمى، مثل المنهج الاستقرائى، والمنهج التحليلى، وغير ذلك مما يراه ويلمسه قارئ هذا الكتاب.

وإن كان هذا الكتاب قد تناول نفس الموضوعات التى بحثها علم النفس العام، فإنه يختلف فى نوعية الطرح والمعالجة والشرح والتحليل والاستنتاج والهدف والأسس التى يبنى عليها نتائجه، بل والمنهج الذى يسير عليه.

فقد تعرض الكتاب للتعريف بالنفس الإنسانية، والعلاقة بينها وبين الروح، كما بحث الشخصية وتحدث عن أنواعها، وميزة الشخصية الدعوية وكيفية تنميتها، ثم تطرق إلى الدوافع والانفعالات، وتعامل الداعى مع المدعو، وما أنسب الطرق لفهمه ودراسة نفسيته، ثم عرض من خلال ذلك علاجات القرآن للنفس الإنسانية وإصلاحه لحالها، مع ما يمتاز به التشريع الإسلامى فى هذا الصدد.

وأكثر ما واجهنى من عقبات هو المراجع التى فى صلب الموضوع، فهى فى حكم العدم، ولكنى مع ذلك قد أخرجت الكتاب بصورة أحسب أنها على خير، بتوفيق من الله وعون منه.

والذى حفزنى لتأليف هذا الكتاب ـ إضافة إلى خلو الساحة من المادة المعروفة فيه ـ أن مادته تدرس فى بعض الجامعات والمعاهد الإسلامية فى بعض البلاد العربية، مثل سلطنة عمان، فى معاهد السلطان قابوس، والمعهد العالى للقضاء، وفى جامعة السلطان قابوس...

فآمل أن يكون هذا الكتاب مرجعا يستفيد منه طلاب العلم، كما يستفيد منه الدعاة وكل من يقرؤه.

ولا يفوتنى أن أسجل شكرى لكل من أعاننى على إخراجه، وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور دفع الله الأمين يوسف نائب مدير جامعة أم درمان الإسلامية، وعميد معهد السلطان قابوس للدراسات الإسلامية بجعلان؛ لما بذله من جهد لقراءة الكتاب، كما أشكر زوجتىَّ: أم عبدالله، وأم عبدالرحمن على ما بذلتاه من جهد فى تخريج الأحاديث والمراجعة وطباعته على الآلة الكاتبة، وما هيأتاه لى من مناخ صالح للبحث والدراسة...

والحمد لله رب العالمين.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

سلطنة عمان ـ جعلان بنى بو حسن

فى السابع والعشرين من رمضان (١٤١٣ هـ) الموافق (٢٠/٣/١٩٩٣م)

د/ محمد زين الهادى العَرَمَابِى

التعريفات
والأهداف والفوائد

المبحث الأول
التعريفات

المطلب الأول: التعريف اللغوى وما يتصل به من مفاهيم حول النفس والروح

القضية التى نحن بصدد توضيحها تتكون من ثلاث كلمات:

علم ونفس ودعوة، حيث إن الأولى منها تعريفها معلوم لدى الأوساط العلمية، وهى لشهرتها معروفة عند من هم دونهم، والأخيرة قد عرفناها فى كثير من كتبنا السابقة لهذا الكتاب[1]، ولهذا سوف نقصر التعريف اللغوى على الكلمة الوسيطة (نفس) للمركب، أما عند التعريف الاصطلاحى فسوف يكون التعريف للمركب كاملا حيث هو المعنى هنا من هذا الكتاب.

ورد لكلمة (نفس) فى اللغة العربية كثير من المعانى، بعضها له صلة بموضوعنا، وهو الحديث عن النفس الإنسانية التى تكون شخصية الإنسان وتؤثر فى سلوكه، والبعض الآخر يبتعد عن موضوعنا، وسوف نذكر هنا بعضا من هذا وذاك لمجرد المقارنة ومعرفة الثروة اللغوية وزيادتها[2].

---

(١) انظر على سبيل المثال لتعريف كلمة دعوة. كتابنا: منهج تقديم الدعوة.

(٢) للمعانى اللغوية التى سقناها انظر: لسان العرب، مادة (النفس) ٦/ ٤٥٠٠.

١ ـ النفس: تعنى الروح، يقال خرجت نفسه، أى روحه.

٢ ـ النفس: تعنى ما يكون به التمييز (اليقظة) وهنا أيضا تأتى بمعنى الروح، جاء فى معنى النفس والروح شعرا قوله:

نجا سالم والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا[1]

٣ ـ النفس: تعنى الروع والنية، يقال: فى نفس فلان أن يفعل كذا أى فى نيته وروعه.

٤ ـ ومن معانى النفس الذات والقوة العاقلة.

٥ ـ ومن معانيها، العزة والكرامة والكبرياء والهمة... الخ.

٦ ـ ومن معانى النفس اللغوية ـ التى لها علاقة بموضوعنا ـ الدم حيث جرى بعض العلماء على تفسير اللغويين لها بهذا المعنى ونسب النفس للدم، وعلل ذلك قائلا: وأما النفس ـ الدم ـ فشاهده قول السموءل:

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيل[2]

كما استعملَ الدَّمَ بمعنى النفس الفقهاءُ، فيقال: لا ينجس ما لا نفس له سائلة، أى ما لادم له، واستشهدوا ببيت السموءل السابق. وإنما سمى الدم نفسا لأن النفس تخرج بخروجه[3] ونص على هذا المعنى للنفس بعض الأطباء المعاصرين الذين سوف نعرض لرأى بعضهم لاحقا ـ إن شاء الله ـ عند الحديث حول مادية النفس والروح وماهيتهما.

ومن معانى النفس الأخرى: الغيب، والعين التى تصيب الإنسان من إنسان آخر، فيقال: أصابته نفس، أي: عين، والمعانى الأخيرة تبعد عن موضوعنا شيئا ما.

(١ و ٢) البيت الأول من شعر حذيفة بن أنس الهذلى، والبيت الثانى للسموءل.

(٣) لسان العرب لابن منظور، مادة (النفس) ٦/ ٤٥٠٠.

بعض معانى النفس فى القرآن الكريم:

وردت النفس فى القرآن الكريم فى كثير من الآيات بمعان مختلفة، ولا غرو فى ذلك؛ حيث إن منزل القرآن هو خالق النفس وما هى عليه، فحديث القرآن عنها هو حديث الحقيقة التى ما بعدها حقيقة، وبما أنه سوف تكون لنا جولات طويلة ـ خلال هذا الكتاب ـ مع القرآن الكريم، فسوف نقتصر على بعض معانى النفس فى القرآن؛ وذلك لكثرتها، ولأننا سوف نطرقها مرارا فى حديثنا ومعالجتنا للنفس.

١ ـ النفس بمعنى الإنسان، أى الشخصية البشرية بكامل هيئتها.

وهى الإنسان بكامل دمه ولحمه وشخصيته، وهذا كثير وغالب فى القرآن. فمن ذلك الآيات التالية: قال الله تعالى ـ مخاطبا الناس عامة وبنى إسرائيل خاصة بأن يحذروا يوم الحساب ويعملوا صالحا، وأن الإنسان يأتى ربه فى ذلك اليوم فردا، ولا تنفعه شفاعة الشافعين: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ... ﴾[٢].

فالمقصود بالنفس هنا المخلوق كله وانتقال وجوده من دار الدنيا.

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ... ﴾[٣].

٢ ـ النفس بمعنى الروح.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة ـ الآية (٤٨).
(٢) سورة آل عمران ـ من الآية (١٤٥).
(٣) سورة الأنعام ـ من الآية (٩٨).
(٤) سورة الزمر ـ الآية (٤٢).

وقال تعالى عن الكافرين وأموالهم وثرواتهم وكيف أن الله يريد أن يعذبهم بها فى الدنيا بجمعها ورعايتها والنَّصب عليها، وكذا يعذبهم بها فى الآخرة، ثم بعد كل هذا العناء عليها يموتون على الكفر، فلم يتسفيدوا منها لا فى الدنيا ولا فى الآخرة...)[1]: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[2]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا .. ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... ﴾[4].

٣ ـ النفس بمعنى الغرض أو الهوى أو الحاجة والرغبة فى الشىء... الخ.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[6].

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ... ﴾[7].

كانت تلك مجرد أمثلة، وتعتبر لاشىء بالنسبة لمعانى النفس فى القرآن، كما أن الآيات التى ذكرنا أنها تدل على معنى بعينه لا يعنى أنها لا تحتمل معنى آخر غير ما ذكرنا، بل الآية القرآنية الواحدة قد تحمل عددا كبيرا من

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى ٨/ ١٠٤ ط١، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
(٢) سورة التوبة ـ الآية (٥٥).
(٣) سورة آل عمران ـ من الآية (١٤٥).
(٤) سورة آل عمران ـ من الآية (١٨٥).
(٥) سورة يوسف ـ الآية (٥٣).
(٦) سورة المائدة ـ الآية (٣٠).
(٧) سورة يوسف ـ من الآية (٦٨).

المعانى، وكل إنسان يفهم منها بحسب ما أعطاه الله من علم؛ ذلك لأن القرآن يحوى ويجمع بعمومه كل ما خلق الله سواء عرفنا ذلك أم لم نعرف، وطرق ذلك كثيرة: منها العموم، والإيجاز والحذف، والإشارة البعيدة، والإجمال، والطى، بل ومنه سؤال أهل الاختصاص، أو بتعبير القرآن: أهل الذكر، كما قال، تعالى: ﴿ ...فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]. وقال، تعالى: ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ... ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ ... مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ... ﴾[3].

من معانى الروح فى القرآن الكريم:

إن كل من يتناول النفس لابد أن يتطرق إلى الروح لتلازمهما، بل ربما تطابقا، فهما كيان إنسانى أو هما كيان يتعلق بكل حى، ولا يعرف كنههما على الحقيقة غير الذى خلقهما، فلنتناول طرفاً يسيراً من معانى الروح فى القرآن:

وردت للروح فى القرآن معان كثيرة ومتباينة، منها:

١ ـ الروح التى بها الحياة وترادف معنى النفس.

قال الله تعالى فى قصة اليهود الذين سألوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الروح: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[4].

هذا هو المعنى الذى عليه أكثر العلماء لمعنى الروح هنا، وإن كان لبعض المفسرين آراء أخرى، ولكنها ليست قوية، وقال الله تعالى عن خلق آدم

---

(١) سورة الأنبياء ـ من الآية (٧).

(٢) سورة النحل ـ الآية (٨٩).

(٣) سورة الأنعام ـ الآية (٣٨).

(٤) سورة الإسراء ـ الآية (٨٥).

ونفخ الروح ـ أى الحياة ـ فيه وإسجاد الملائكة له: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1].

يقول القرطبى معلقا على الآية: (النفخ إجراء الريح فى الشىء، والروح جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفا وتكريما. . .)[2].

٢ ـ تأتى كلمة الروح بمعنى المَلَك جبريل، عليه السلام، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ... ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... ﴾[4].

٣ ـ الروح بمعنى القرآن الكريم:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ ... ﴾[5].

وجاء بمعنى القرآن أو الوحى عامة قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾[6].

٤ ـ وقد تأتى كلمة الروح بمعنى التأييد والنصر بالقوة والمنعة والحجة والبرهان، أو الإيمان والهدى كما فى قوله تعالى: ﴿ ... أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ ... ﴾[7].

---

(١) سورة الحجر ـ الآية (٢٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى ١٠/ ٢٤.

(٣) سورة الشعراء ـ الآية (١٩٣) وصدر الآية (١٩٤).

(٤) سورة النحل ـ الآية (١٠٢).

(٥) سورة الشورى ـ من الآية (٥٢).

(٦) سورة النحل ـ الآية (٢).

(٧) سورة المجادلة ـ من الآية (٢٢).

وكثير من تلك المعانى للروح تلتقى مع معانى النفس من قريب أو من بعيد. . .

المطلب الثانى: العلاقة بين النفس والروح والجسد:

أما من حيث العلاقة بين الثلاثة، فلا ينكر أحد أنها علاقة ترابط وتلازم، ولايَقُوم أَحَدُ الثلاثة دونَ الآخر، بل ولا يُؤَدِّى أحَدُهَا دوره المنوط به إلا مع وجود العناصر الثلاثة وتلازمها وتعاضدها. .

وأما من حيث المعنى والماهية، وهل كل عنصر من العناصر الثلاثة مستقل بذاته وقائم بنفسه ولا يعتمد على الآخر ـ فهذا أمر لا يمكن القطع به، ولاسيما من حيث المعنى بين الروح والنفس.

والقدر المتفق عليه بين الباحثين فى هذا المجال قديما وحديثا، هو أن الجسد لا يصلح بدون الاثنين معا، الروح والنفس، وليس له قيام ولا فوائد بدونهما، ولكن الجدل محتدم فى العلاقة بين الروح والنفس وما هما؟ وهل يفنيان ويموتان أو يبقيان بعد مفارقتهما للجسد ـ الذى اتفقوا على عدم بقائه ـ ؟ وهل يفنى أحدهما ـ على فرض اختلافهما ـ ويبقى الآخر؟.

أولا وقبل كل شيء نقول: هل من وراء البحث فى مثل هذه الأمور وبهذه الكيفية من فائدة تذكر، سواء دنيوية أم أخروية؟ والإجابة طبعاً لايمكن أن تكون بالنفى الكامل أو بالإيجاب الكامل؛ ذلك لأن العنصرين لهما علاقة بالإنسان، وهما مذكوران فى النصوص الشرعية، والعقل البشرى يتوق لمعرفة ما له علاقة به، ولا سيما إذا كانت تلك العلاقة مصيرية بالنسبة له، ولا يكون بقاؤه إلا بها، ولكن ينبغى أن يكون البحث فى حدود المعقول الذى يمكن أن يعود على الباحث بفائدة وفى الحدود التى يدركها العقل البشرى، وليس وراء ذلك من فوائد للبحث إن تخطى ما ذكرنا؛ ولهذا سوف نعالج الموضوع على ضوء هذه القاعدة ولا نتعداها.

إن النفس والروح من أمور الغيب بالرغم من وجودهما فينا، وكل أمر غيبى لا يقع تحت حسنا وإدراكنا المباشر، له طريق واحد للدخول إلى البحث فيه، وهو طريق الوحى، سواء أكان قرآنا أو سنة، ومن خلالهما نستطيع الاستبصار فى كل أمر غيبى على ضوء معطيات نصوصهما وبمقدار فهمنا لتلك النصوص، وعلى مدى مبلغ علمنا لهما، نحصل على قدر من المعرفة الغيبية، وما عدا ذلك فإن وسائل البحث فيما وراء الحس تصبح ضرباً من الخيال الذى لا يأتى بحقيقة، ولكن على ضوء النصوص الشرعية التى تملك زمام الغيب نستطيع أن ندرك بعضا من ذلك.

والناظر إلى تلك النصوص يجد أن ثمة علاقة وثيقة وحميمة بين الروح والنفس، ويجد الحديث عنهما فى تلازم وتناغم؛ فلم يرد - لا فى القرآن ولا فى السنة - أن الروح شىء والنفس شىء آخر - حسب علمى - والدليل على ذلك أننا نجد الحديث عنهما متناوباً ومتناسقا لا ينم عن فرق، بل يستخلص من السنة أنهما شىء واحد، أو أن عملهما يكمل بعضه بعضا، وإن كان الحديث عن الروح يميل فى كثير من الأحيان إلى أنها هى التى تكون بها الحياة، وهى التى تُتَوَفَّى وتُرْفَع، وإن ورد هذا المعنى للنفس أيضا - كما سنذكر إن شاء الله - ولكنه يكون فى جانب الروح أكثر ورودا وبروزا.

دلالة التلازم بينهما

من الأدلة البارزة على التلازم بين النفس والروح: ذلك السؤال الذى سأله المشركون - عن طريق اليهود - لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الروح، والوجه فيه هو أنهم سألوه عن الروح فقط، وسكتوا ولم يسألوه عن النفس، ولو كانوا يعتبرون فرقا بينهما لسألوه أيضا عن النفس؛ لأن غرضهم التعجيز، ولا سيما أن النفس والروح من أمور الغيب، فكونهم يكتفون بالسؤال عن الروح فقط - يدل على تلازمهما، كما أن الجواب الذى جاء من عند الله كان مكتفيا بالروح فقط، ولم يتطرق للنفس؛ سَدّاً لذريعة سؤال الرسول، صلى الله عليه وسلم، عنها مرة أخرى، فلو أن بينهما تبايناً

لأجاب القرآن عن ذلك منعا للفتنة، أو لعكس عليهم السؤال وسألهم عن النفس على سبيل التحدى والإعجاز، مثلما سألهم أن يأتوا بعشر سور وبسورة وغير ذلك من أسئلة التعجيز لهم والنصرة لنبيه.

البرهان الثانى على تلازمهما: ما ورد فى القرآن الكريم من الحديث عنهما بصورة لا يفهم منها الاختلاف، كما فى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ... ﴾[1].

وكذا قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا... ﴾[3].

وورد عن الروح ما يلى:

قول الله تعالى عن خلق آدم وإحيائه بنفخ الروح فى جسده: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[4].

فالناظر للآيات التى ذكرت النفس والتى ذكرت الروح لا يجد فرقا يذكر، حيث إن النفس تقبض وتموت، وكذلك تنفخ فى الجسد الهامد فتدب فيه الحياة والحركة...

فإذا نظرنا فى السنة النبوية، كذلك، وجدنا الأمر واضحا وبينا فى تلازم وتعانق الروح والنفس، ولا نلاحظ أى فرق ـ فيما نعلم ـ والله أعلم، فإلى بعض الأحاديث الدالة على ذلك:

---

(١) سورة الزمر ـ من الآية (٤٢).

(٢) سورة التوبة ـ الآية (٥٥).

(٣) سورة آل عمران ـ من الآية (١٤٥).

(٤) سورة الحجر ـ الآية (٢٩).

عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت: دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه، ثم قال: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر)[1].

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ألم تروا الإنسان اذا مات شخص بصره... قال: فذلك حين يتبع بصره نَفْسَه)[2].

ففى الحديث الأول كان الكلام عن الروح وأنه إذا قبض تبعه البصر، وفى الحديث الثانى ـ الذى ربما حدَّث به النبى، صلى الله عليه وسلم، فى مكان آخر ووقت آخر وسمعه رَاوٍ آخر ـ ذكر أن الإنسان إذا مات تبع بصره نفسه، فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتبر النفس والروح لا فرق بينهما، حيث عبر عنهما فى الحديثين بعبارتين هما: النفس مرة، والروح مرة أخرى، ولو كان ثم فرق ما تبادل التعبير باللفظين للمعنى الواحد. والله أعلم.

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: (إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان. فلا يزال يقال ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء...)[3].

وجاء عنه، صلى الله عليه وسلم: (إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها)[4].

ففى الحديث الأول أن التى تخرج وتصعد هى النفس الطيبة، وفى الثانى

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الجنائز ـ حديث.
(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الجنائز ـ حديث.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٦٤ و ٦/ ١٤٠.
(٤) مسلم ـ كتاب الجنة ـ حديث رقم (٧٥).

ذكر أنها الروح تصعد. فهذا التبادل فى الألفاظ للمعنى الواحد يدل على عدم الفرق بينهما.

والدليل الأخير على تلازم الروح والنفس وأنهما كذلك فى الهدى النبوى هو حديث الوادى الذى نام فيه المسلمون وقد وكَّل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بلالا ليكلأ لهم الفجر، فإذا طلع أيقظهم، فنام بلال بعد طول سهر، ولم يتيقظوا إلا على حر الشمس فقال بلال عندما سأله الرسول، صلى الله عليه وسلم: لِمَ لَمْ يوقظهم؟ (.. أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك...)[1].

وروى زيد بن أسلم فى نفس الحديث أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال فى رده على قول بلال موجها حديثه للمسلمين:

(يأيها الناس، إن الله قبض أرواحنا، ولو شاء ردها إلينا فى حين غير هذا)[2].

ووجه الدلالة أن بلالا ذكر للرسول، صلى الله عليه وسلم، أن الله أخذ بنفسه مثلما أخذ بأنفسهم، وكان جواب النبى، صلى الله عليه وسلم، عليه وموجها ذلك للمسلمين، أن الله قبض أرواحنا، فرد بالروح على قول بلال بالنفس، فهذا بَيِّن الدلالة على ذلك التناغم بينهما، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول بقبض الأرواح أو توفيها فى النوم، وهو يعلم قول الله، تعالى، فى هذا المقام:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ... ﴾[3]،

(١) سنن ابن ماجه - كتاب الصلاة (١٠) باب (٢) من نام عن الصلاة ١/ ٢٢٧. والموطأ - كتاب الوقوت - باب النوم عن الصلاة ١/ ١٣.

(٢) الموطأ - كتاب وقوت الصلاة - حديث (٢٦) ١/ ١٤ طبع دار الكتاب المصرى (بدون تاريخ).

(٣) سورة الزمر - من الآية (٤٢).

فتعبير الرسول، صلى الله عليه وسلم، بأن التى يقبضها الله ويرسلها إلى أجل هى الروح ـ مع علمه بأن الآية تذكر النفس ـ يدل على ما ذهبنا، والعلم عند الله، وإنما نحن نبحث ونفسر ونستنتج على ضوء فهمنا للنصوص، ومع ذلك فنحن معرضون للخطأ دائماً، نسأل الله الثواب على العمل والمغفرة عند الزلل.

آراء العلماء فى الفرق بين النفس والروح

أما أقوال العلماء فى الفرق بين النفس والروح، فقد تباينت واختلفت: فمنهم من جعلهما شيئاً واحداً، ومنهم من فرق بينهما، وهذا ملخص لبعض تلك الآراء:

فالقرطبى، صاحب التفسير المشهور، رأى عدم التفريق بينهما، وأنهما شىء واحد وانتصر لرأيه بعدد من الشواهد ذكرها فى كتابه (التذكرة) وذكر طرفاً منها فى تفسيره فقال: (وقد اختلف الناس فى هذه الآية فى النفس والروخ، هل هما شىء واحد أو شيئان. . . والأظهر أنهما شىء واحد، وهو الذى تدل عليه الآثار الصحاح. . .)[1].

أما أبو حامد الغزالى، فقد طرق الموضوع طرقاً فلسفياً ـ كعادته فى كثير من مباحثه ـ فمرة فرق بينهما، ومرة جعلهما شيئاً واحداً.

فأما التفريق فيفهم من خلال حديثه عنهما وتقسيمه لهما كُلٌّ على حدَة، وأنه جعل الروح فى تجويف القلب، وجعل النفس قوة الغضب والشهوة فى الإنسان، وقال: هذا استعمال أهل التصوف لها!!

وأما فى حالة الجمع بينهما، فقد ذكر أن كلاً من النفس والروح (اللطيفة) الربانية العالمة المدركة من الإنسان، وهى حقيقة الإنسان. . .)[2].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى، ٥/ ٢٦١.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين ٣/ ٤ طبع دار إحياء التراث ـ بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ).

وبهذا المعنى الأخير فقد جمع بينهما، فيما يفهم من سياقه وسرده، وسوف نزيد كلامه إيضاحاً عند حديثنا عن ماهية النفس والروح لاحقاً، إن شاء الله، تعالى.

ولقد أكثر ابن حجر من النقول فى الفتح، لكبار العلماء عن معنى الروح، ولم يذكر المقارنة بينها وبين النفس إلا قليلا، وكان يميل إلى السكوت والإضراب عن الخوض فى ذلك؛ ولهذا قال: (وقد تَنَطَّعَ قَومٌ فتباينت أقوالهم، فقيل: هى النَّفَس الداخل والخارج، وقيل: الحياة.. وقال ابن العربى: اختلفوا فى النفّس والروح، فقيل: متغايران، وهو الحق، وقيل هما شىء واحد، قال: وقد يعبر بالروح عن النفس، وبالعكس كما يعبر عن الروح وعن النفس بالقلب، وبالعكس...)[1].

أما أحد المعاصرين، وهو الدكتور عابد توفيق الهاشمى الأستاذ المشارك فى علم النفس، فقد اضطرب رأيه حول النفس والروح، فمرة يقول: (هما اسمان مترادفان لمعنى واحد، ويقول مرة أخرى: وتطلق النفس على الروح وحدها...

ويقول أخرى: إلا أن الروح لا تطلق على البدن ولا على النفس، فالروح التى تتوفى وتقبض هى النفس، وهى واحدة غير متعددة، وإن تعددت صفاتها، فتسمى باعتبار كل صفة باسم..[2].

وَحُقَّ له ولغيره أن يفعل ذلك؛ لأن الروح مما استأثر الله بعلمه الإحاطى، وذلك بصريح القرآن: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3].

---

(١) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر ٨/٤٠٣ طبع دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.
(٢) انظر: مدخل إلى التصور الإسلامى للإنسان والحياة، ص ٢٥ للدكتور عابد توفيق الهاشمى، نشر دار الفرقان، عمان ـ الأردن ط ١ (١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م).
(٣) سورة الإسراء ـ الآية (٨٥).

المطلب الثالث: النفس والروح، بين المادية والجوهرية

لما كان أمر النفس والروح يكتنفه الغموض بالنسبة لمعرفة الإنسان، فقد تباينت حول ذلك المفهوم وجهات النظر، وغدا كل باحث يدلى بحسب ما آتاه الله من علم ومعرفة، وحق لهم أن يقعلوا ذلك؛ لأن الروح والنفس، قد استأثر الله بعلمهما الدقيق وكنههما الأصيل، ولم يعط البشر من ذلك إلا العلم القليل الذى يدورون حوله، وهم فيه يتفاوتون، والسبب هو أن الروح من أمر الله ومن خصائصه الغيبية التى لا يدرك ماهيتها وحقيقتها إلا هو.

فالناس يلفُّون ويدورون حول العلم القليل الذى وهبهم إياه خالق الروح حول معرفة شىء عن النفس والروح وغيرهما.

ومع ذلك فقد حاول العقل البشرى أن يتعرف على النفس والروح، ولو من قبيل الْخَرْصِ والْحَزْر (أى التخمين).

هل النفس والروح، من الماديات المحسوسة أم هما من غير الماديات؟ وهل إحداهما مادية والأخرى غير مادية؟.

فبعضهم جعل الروح من مشتقات المادة اللغوية (روح) وقال: الرُّوحُ والريحُ والرَّوْحُ من أصل واحد اكتنفته معان تقاربت، فبنى لكل معنى اسم من ذلك الأصل... فالروح، روح الأجسام الذى يقبضه الله عند الممات...[1].

فهو يجعلها من المعانى غير المادية وإن اشتركت فى الأصل مع بعض الماديات مثل الريح والريحان، ولكنها أقرب إلى الروحانيات.

وابن منظور ومعه كثير من اللغويين يرون أن الروح والنفس شىء واحد،

(١) تأويل مشكل القرآن، عبدالله بن مسلم بن قتيبة المروزى، ص ٤٨٨، طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط ٣ (١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م).

وهما ـ لا سيما الروح ـ ليسا من قبيل الماديات وإن جاء عندهم أحد معانى النفس بالدم، ولكنهم لا يقولون ذلك عندما يتحدثون عن الروح فى الغالب، فهو يقول:

والروح، النفس، يذكر ويؤنث، والجمع الأرواح، قال أبو بكر بن الأنبارى: الروح والنفس واحد، غير أن الروح مذكر، والنفس مؤنث عند العرب... والروح إنما هو النَّفَس الذى تنفسه الإنسان، وهو جار فى جميع الجسد، فإذا خرج لم يتنفس بعد خروجه...[1].

أما القرطبى، فقد جعل النفس والروح اسمين لمسمى واحد، اعتبر أن الروح جسم لطيف، وبالتالى فهو مادى مَثَلُهُ مَثَلُ بقية المخلوقات، ويفهم من سياقه أن الدلالة المادية تتناول الاثنين معا: النفس والروح، فيقول:

والصحيح فيه ـ أى المركب من النفس والروح ـ أنه جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة يُجذب ويُخرج، وفى أكفانه يلف ويُدرج، وبه إلى السماء يُعرج، لا يموت ولا يفنى، وهو ما له أول وليس له آخر... وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة، كما فى حديث أبى هريرة[2] وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض...[3].

فالقرطبى يرى أنهما من الأجسام المحسوسة بحسب الأدلة التى ذكرها،

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (روح) ٣/ ١٧٦٧، طبع دار المعارف ـ بيروت.

(٢) الحديث الذى أشار إليه حديث طويل، رواه مسلم فى كتاب الجنة رقم ٧٥ ـ وأحمد فى المسند ٤/ ٢٨٧. وإليك مواضع الاستشهاد منه: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء. فيقول ملك الموت: أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِى السِّقَاء. ويخرج بها كأطيب نفحة مسك. فلا يمرون على ملأ من الملائكة حتى قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ قال: والعبد الكافر ـ يجيئه ـ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سخط من الله، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة، فتقول الملائكة: ما هذا الروح الخبيث؟...

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى، ١٥/ ٢٦٢.

بالرغم من أنه يرى عدم الخوض فى ماهية الروح؛ لأنها من أمر الله، ومع ذلك حاول ـ على ضوء النصوص ـ فهم ذلك.

وهذا دأب علماء السلف الأوائل: فقد كانوا يحاولون ويفسرون ويعللون ويستنتجون ويستنبطون ويشحذون أذهانهم على ضوء النصوص وما أعطاهم الله من عقل وفهم، ولا يقفون جامدين متحجرى الفكر، مما جعلهم يُثْرُون المكتبة الإسلامية بذخائر نادرة مازال المسلمون يجترونها إلا القليل ممن فتح الله عليه باب الاجتهاد والتجديد والنظر إلى مستجدات العصر ومتغيرات الزمن فأعمل فكره، ولكنه لم يسلم من سهام المتحجرين!!

أما أبو حامد الغزالى، فقد قسم كلاً من الروح والنفس إلى قسمين أو بتعبيره هو إلى معنيين: أحدهما ـ فى كل من الروح والنفس ـ مادى والآخر روحانى أو روحى أو غير محسوس ولا مُدْرَك، وساوى بين المعنيين فى عدم المحسوسية، فقال عن الروح بالمعنى المادى: إنها جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن... وهى الدم الأسود الذى فى تجويف القلب...!!

وشبه فيضان الروح بفيضان النورمن السراج على الحيطان. فالروح عنده مثل السراج، والحياة مثل النور السارى والساطع منه... وقال: إن الأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا منه هذا المعنى... ويصف الروح: بأنه بخار أنضجته حرارة القلب!! ولعله يعنى بهذا أن الروح بالمعنى المادى هى الدم؛ لأن هذا المعنى هو الذى ذهب إليه عدد من الأطباء كما سنذكر لاحقا ـ إن شاء الله.

وعن النفس من الناحية المادية يذكر الغزالى، أنها: المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان. وهذا هو الاستعمال الغالب لها عند أهل التصوف. وهو المعنى الجامع للصفات المذمومة عندهم...

وأما المعنى غير المادى للروح، وكذا للنفس عند الغزالى، فهو أن الروح هى: اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، كما يذكر أن هذا أحد معانى القلب وأن القلب والروح يشتركان فى هذا المعنى. وعن النفس بهذا المعنى هى: حقيقة الإنسان وذاته وهى تطابق معنى الروح والقلب فى ذلك ـ عنده ـ تمام المطابقة...

ويذكر أن هذه النفس لها أحوال عديدة توصف بها حسب كل حالة، وما يلابسها، فهى إذا دافعت الشهوات، تسمى اللوامة، وإذا سكنت، تسمى المطمئنة، وإذا داخلها الشيطان سميت، الأمارة بالسوء...[1].

أما ابن حجر فيظهر أنه يميل إلى أن الروح ليس من قبيل الماديات، وإن كان من الحوادث المخلوقة، ويورد افتراضات ينقلها عن فخر الدين الرازى حول سؤال اليهود للرسول، صلى الله عليه وسلم، عن الروح ويقول: إن جوابه، يدل على أنها شىء موجود مغاير للطبائع والأخلاط وتركيبها، فهو ـ أى الروح ـ جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث، وهو قوله، تعالى: (كُنْ)..

ولكنه نقل عن ناس لم يسمهم بأنهم تنطعوا وقالوا: هو النَّفَس الداخل والخارج... وقيل: جسم لطيف يحل فى جميع البدن، وقيل: هى الدم، وقيل: هى عرض... قال: واختلف هل تفنى عند فناء العالم قبل البعث أو تستمر باقية؟ على قولين، والله أعلم...[2].

وكلام ابن حجر الأخير الذى لم يرجح فيه أحد الجوانب، يدل على أنه يعتبرها من صنف الماديات؛ لما ذكره من أقوال عن جسميتها وأنها دم.. الخ ولكن لم يقل أى الأقوال يتولاه ويرجحه.

---

(١) انظر: لما تقدم من المنقول عن الغزالى: كتابه إحياء علوم الدين، ٣/٣ وما بعدها...

(٢) انظر: فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر ٨/٤٠٢ وما بعدها.

ولقد ذكر بعض الأطباء النفسانيين من المعاصرين أن النفس هى الدم، وجزم بذلك وأن الروح مكانها فى القلب، وأن النفْس التى هى الدم تنقل الروح إلى كل خلية من خلايا البدن، فتبعث فيها الحياة!! ويقول: إن الروح هى العقل المفكر وآلته الدماغ الإنسانى، ويدافع بأن النفس ليست الروح؛ لأن ـ عنده ـ أن النفس هى الدم فقط!! والروح عنصر حيوى مفكر، وعن طريقه تكون كل الانفعالات والتفاعلات الحيوية والدماغية فى الإنسان. . . ويميل إلى أن الروح جوهر وليست مادة عكس النفس، وهى تتفاعل تفاعلا حميما مع العقل والنفس التى مصدر جميع الانفعالات والظواهر النفسية وما يتبعها من انعكاسات عضوية. .[1].

وتفسيره للنفس عضوى (بيولوجى) خالص، وهو من صميم تخصصه، وهو فى هذا يسلك مسلك علماء النفس من أصحاب المدارس التجريبية وطرقها المختلفة، مثل (السايكولوجية) الوظيفية التجريبية، ومثل الطريقة (الفسيولوجية) وطريقة الشروط المتنوعة. . .[2] وكلها تعتمد التجريب على النفس الإنسانية!! سالكين فى ذلك مسلك علماء الأحياء وغيرها من العلوم التجريبية.

ذلك ملخص لما يتعلق بالنفس والروح من حيث التعريف اللغوى وما يتصل به من مفاهيم حول الروح والنفس، وسوف نعالج فى الفقرة الثانية التعريف الاصطلاحى لعنوان الكتاب.

المطلب الرابع: التعريف الاصطلاحى:

إن أصعب شيء فى البحوث العلمية أن يجد الباحث نفسه وحيدا فريدا

---

(١) لما تقدم انظر: من علم النفس القرآنى، د/ عدنان الشريف، طبع دار العلم للملايين ـ ط١ (١٩٨٧) ص ٤٠ وما بعدها.

(٢) انظر: مدارس علم النفس، د/ فاخر عاقل ص ٢٩، طبع دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان، ط ٦، (١٩٨٣م).

فى الميدان الذى يطرقه أو على الأقل فى المادة أو المفهوم المعرفى الذى يبحث فيه، حيث يلزمه أن يبحث عن قواعد متينة ليشيد عليها البناء الأولى، وأن تكون قاعدة الأساس متينة عميقة؛ حتى تحتمل ما يمكن أن يشاد عليها من بنايات فوقية، هذا إذا تفادينا المخاطر التى ربما يقع فيها المؤسس، والتخبطات التى يصاب بها، والعثرات التى ربما صدَعت البنيان من أساسه أو ربما ضلل الكثيرين الذين يأتون من بعده، ولكنه على كل حال هو مأجور ما صلحت وخلصت النية وبُذل الوسع وأُفرغ الجهد، فهو مع إحدى الحسنيين: إما الأجر الواحد فى حالة عدم الإصابة، أو حصول الأجرين إن كانت الأخرى.

ولقد بذلت جهدى أن أجد من الباحثين من كتب عن موضوعى هذا (علم نفس الدعوة) ولكن محاولاتى للعثور على شيء من ذلك باءت بالخسران، ولا حتى فى أسطر من كتاب لم أجد شيئا البتة!! لا من قريب ولا من بعيد، إلا شيئاً لم يقع تحت يدى. ومتى وجدت من سبقنى فسوف أثبت له حقه.

ولهذا فقد حزمت أمرى، وعقدت عزمى على خوض غمار المعركة منفردا إلا من معية الله ـ تعالى ـ وهى أكبر عون للعبد.

وكل علم أو فن لابد له من تعريف يحد أطرافه، ويجمع شتاته، ويهتدى على أثره من جاء ليبحث فى ذلك العلم.

وبعد البحث والتدقيق فى العناصر التى تتكون منها مادة علم نفس الدعوة، وبعد النظر فى الأهداف والغايات المقصودة لهذا العلم أو الفن، وما يرمى إليه وما يسعى لتحقيقه... بعد كل ذلك توصلت إلى التعريف التالى، فظهر لى أن علم نفس الدعوة هو:

الدراسة العلمية لنفسية المدعوين وسلوكهم، للتعرف على أمثل الطرق والوسائل لدعوتهم إلى الحق أو الاستزادة منه.

وحسب وجهة نظرى المتواضعة أن هذا التعريف ينطبق على المعرف تماما، وهو جامع مانع للمعرف، نؤيد ذلك بالاستنتاج التالى:

قولنا: (الدراسة) هذا عنصر لابد منه؛ لأن كل بحث علمى لا يقوم على الدراسة فهو قاصر، ولن يؤدى إلى نتيجة، فلابد إذن من الدراسة.

وكذا كلمة (العلمية) حيث إن كل أمر لايقوم على علم، وكل دراسة لا تستند إلى العلم فهى خبط عشواء تصيب من غير تمييز.

وكونها ـ أى الدراسة ـ لنفسية المدعوين وسلوكهم، فإن كلا من النفس والسلوك عنصران رئيسان فى التكوين البشرى، وفيما يخص علاقة الإنسان بنفسه وبغيره، كما أنهما المميزان البارزان لشخصية الإنسان وكينونة الجماعة، وعلى هذا فلابد من دراسة علمية عملية للنفس والسلوك، كما أن كلا من النفس والسلوك يؤثر فى الآخر، فالعوامل النفسية تنعكس على السلوك الخارجى، وتظهر فى كل تصرفات الفرد والجماعة، كما أن السلوك الخارجى بدوره يتسبب فى تكوين وغرس العوامل النفسية الداخلية والتى هى بدورها تجلب أو تظهر سلوكا خارجيا آخر، فالعملية ـ إذنْ ـ متبادلة تبادلا عكسيا بين الاثنين..

هذه الدراسة، بتلك الكيفية التى ذكرناها مختصرة، تؤدى إلى التعرف على أمثل الطرق والوسائل والأساليب التى على ضوئها يقوم الداعية بإيصال ما يريد إيصاله للمدعو...

أما قولنا فى التعريف: (لدعوتهم إلى الحق أو الاستزاد منه)، فإن غرض الداعى هو إيصال المدعوين إلى الحق الذى ينشده كل عاقل ويسعى إليه كل حصيف، وهو الذى قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما، وهو سبب السعادة إلى البشر إن أبصروا طريقه.

أما إذا كان المدعوون يعرفون الحق أو بعضا منه، فإن مهمة الدعاة تثبيت

الحق وتوطيده فى النفوس فإن للحق جوانب كثيرة، وله طرقا متعددة، وهو ذو شعب وأفانين. وإن كان هو فى النهاية واحداً فإن معانيه ووسائله وسبله وأهدافه وغاياته متعددة، وهذا ما كان يقر عليه الرسول، صلى الله عليه وسلم، الصحابة عند اختلافهم فى بعض الأمور مثلما أقرهم فى الصلاة فى بنى قريظة حيث أقر من صلى دونهم فصلى العصر فى وقته، وأقر من صلى بعد وصوله إليهم وبعد غروب الشمس، كما يظهر فى صدق النيات وإفراغ الوسع فى الاجتهاد، وإن لم يصب عين الحق، حيث كان للمجتهد المصيب أجران، ولغير المصيب أجر...

وبهذا نعتبر أن هذا التعريف أدى الأمر المبتغى منه، وهو أن يعرف القارئ لهذا الكتاب ـ إجمالاً ـ ما المقصود بعلم نفس الدعوة.

موضوع علم نفس الدعوة

لكل علم أو فن موضوع يعتنى به ويبحث فيه ويدور حوله، وإلا كان عبثا، والعبث باطل، والباطل يُجتنب، فضلا عن أن يُدْرس ويُنفَق فيه الوقت والجهد، فلو طرحنا سؤالاً نقول فيه: لماذا يَدرس الداعى هذا العلم، علم نفس الدعوة؟ نقول يدرسه ليتعرف على:

١ ـ سلوكيات المدعوين ونفسياتهم.

٢ ـ آرائهم ووجهات نظرهم.

٣ ـ معتقداتهم وأفكارهم.

٤ ـ العوامل التى تؤثر عليهم سلبا وإيجابا.

٥ ـ البيئة التى يعيشون فيها من النواحى المناخية، والتاريخية والاجتماعية والسياسية لمعرفة الخلفيات التى تؤثر على النفس. ولماذا هذا التعريف؟

١ ـ إن كانوا على خير زادهم، وإن كانوا على غير ذلك أرشدهم للصواب.

٢ ـ التعرف يفيد الداعى كيفية الإرشاد بالطريق الصحيح السليم.

المبحث الثاني
الأهداف والفوائد

لابد لكل علم من أهداف ينبغى الوصول إليها بدراسته، وغايات يرنو إلى الانتهاء عندها وحط رحاله فى كنفها، وعلم نفس الدعوة - على حداثته - من أهم العلوم الإسلامية التى تعنى بالإنسان ليكون إنسانا يؤدى المهمة التى خلقه الله من أجلها ويقوم بها خير قيام؛ ليسعد هو وليرضى ربه، بل وليكون إنسانا يستحق الإنسانية، ويستحق التكريم الذى منحه إياه خالقه وفضله على كل مخلوقاته: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1].

إن من أهداف علم نفس الدعوة الارتقاء بالإنسان، وهذا الارتقاء يتمثل فى عدة نواح نجملها فى المطالب التالية:

المطلب الأول: الارتقاء بالإنسان من حيث السلوك العام

إن سلوك الإنسان يتمثل ويظهر فى أمور عديدة، بعضها متعلق به تعلقا عضويا، والبعض الآخر يتمثل فى هندامه ولباسه، وبعضها فى مركبه. . . نجمل ذلك فيما يلى:

---

(١) سورة الإسراء - الآية (٧٠).

أولا: القوام:

لقد منح الله ـ تعالى ـ الإنسان خلقة وهيئة لم يمنحها غيره من مخلوقاته ـ على كثرتها وعظمتها ـ بالنسبة للإنسان، فهو بالنسبة للمخلوقات ـ من حيث كثرتها وتنوعها ـ كقطرة فى بحر لُجِّىٍّ، ولكنه مميز عليها تمييزا بينا واضحا، بل هى مستخدمة له ومسخرة.

فإن الإنسان لو تدبر فى كيفية صنعه وهيئته من حيث القوام والشكل العام لم يخالف لخالقه أمرا، ولعظم له قدرا وأعلى له ذكرا، ولكن الإنسان كفور ـ إلا من رحم ربى ـ وفى ذلك بتلك الكيفية تكريم له أيما تكريم، فهو لم يُخلق وهو يمشى على أربع مكبا على وجهه، ولم يسترخ ذيله ويستطل قرنه ولم يُكس جسمه الشعر والوبر، بل جُعل يمشى على رجلين مستويا مستقيما، وجُعلت عيناه فى مقدمة وجهه، ولم تجعلا على الجانبين!

وفى هذا كله دلالة على خلجات نفسه وإشارة إلى سلوكه وتعامله مع غيره من بنى جنسه ومن مخلوقات الله الأخرى..

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾(1).

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾(2).

نعم، لو شاء الله لركبك ـ أيها الإنسان ـ فى صورة غير هذه، وليس لك ـ عندئذ ـ أن تقول: لم؟ وكيف؟ لأنك حينئذ لست قادرا ولا متصورا لغير ما جُبلت عليه!!

ولهذا فقد كانت الفطرة والجبلة الأصيلة هى الإيمان بالله خالقا لهذا

(1) سورة التين ـ الآية (٤).

(2) سورة الانفطار ـ الآيات (٦ ـ ٨).

الكون وقادرا ومدبرا وحكيما ورازقا، ولكن صوارف الدهر وعاديات الزمان تُحوِّران الإنسان وتغيرانه ويوسوس له الشيطان بالكفر فيغويه:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ... ﴾[1].

(إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجم، والحب لربه الكريم، الذى أكرمه بهذه الخلقة، تفضلا ورعاية منه، فقد كان قادرا أن يركبه فى أى صوة أخرى يشاؤها، فاختار له هذه الصورة السوية الجميلة. . .

إن الإنسان لمخلوق جميل التكوين، سوى الخلقة، معتدل التصميم، وإن عجائب الإبداع فى خلقه لأضخم من إدراكه هو، وأعجب من كل ما يراه حوله. . .

وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو فى تكوينه الجسدى، وفى تكوينه العقلى، وفى تكوينه الروحى، وهى تتناسق فى كيانه فى جمال واستواء. .)[2].

إن خلق الإنسان لبديع ورائع حقا، وهو مدهش لكل العقول، ومحير لكل الألباب، وإن له دلالات وإيحاءات قوية ومعينة على كيانه الداخلى النفسى والروحى والخلقى، بل والسلوك الظاهرى. . .

وكل شىء فى تركيب الإنسان وتسويته وتعديله آية قائمة بذاتها، وذات

---

(١) سورة الأعراف ـ من الآية (١٧٢).

(٢) فى ظلال القرآن، لسيد قطب، ٣٨٤٨/٦، طبع دار الشروق ـ بيروت ـ لبنان (١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م).

دلالة ظاهرة على تفرده فى الخَلْق والخُلُق، فلو أخذنا عضوا واحدا من أعضائه، بل ولو جزءا من العضو لهالنا أمره الذى لم يخلق مثل خلقه . .

فلو نظرنا وفحصنا اليد الإنسانية سنجدها ـ ومن النظرة العامة ـ ذات رونق وجمال ومميزة بعدد من المميزات لم تتوافر فى أى مخلوق آخر غير الإنسان بما لها من صفات عديدة واستخدامات شتى تمدها بخصائص متفردة، كلها تعين الإنسان على ما يريد، وتخدمه فى أنواع شتى من الحرف والصناعات والمعارف والعلوم.

فهى مرنة ومبسطة وبدون تكاليف، ولا تحتاج إلى إضافات تضاف إليها، وبها منظفاتها ومطهراتها الخاصة، وبها حصونها وأجهزة دفاعها وحرسها، بما فى ذلك أجهزة الإنذار المبكر ودفاعات الطوارئ والدفاعات المستمرة الدائمة . . .

ومن الناحية السطحية نجدها تتكون من:

خمس أصابع تتفاوت فى طولها وحجمها حسب المهام التى تناط بكل واحدة منها، وبحسب ما يقتضيه التناسق المفيد لقضاء الحوائج، وكذا التناسق الجمالى. والأصابع مركبة على قاعدة محكمة البنيان متسقة النظام، وهى الكف، (المفلطح) المقعر. . . وتوجد فى أعلى الكف أربع أصابع، وفى الجانب الأسفل منها واحدة أسمك وأقصر، ولكنها على درجة قصوى من الأهمية.

وتحمى الأصابع وتتزين ـ فى آن واحد ـ فى الجهة العليا من رءوسها بالأظافر المكونة من غضروف قوى لامع جميل المنظر، والمفاصل المتعددة تساعد الأصابع واليدين عامة على الانقباض والانبساط بسهولة ويسر، مما يجعل الاستفادة منهما كبيرة للغاية لا تضارعها أى آلة أخرى من صنع الإنسان، فسبحان الله الخالق المبدع الصانع القدير!!

﴿ ... صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ... ﴾[1].

إن الإنسان بيده التى هى من عجائب صنع الله، قد أسس الحضارات، وشاد المدنيات، وبرع فى هندستها، وتفنن - بيده - فى إعمارها وتجميلها، وإنه لمن المستحيل أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية فى التناسق والمرونة وسهولة الحركة ويسر الاستعمال مع الإتقان...

(ولقد درس فريق من الباحثين الحركات التى تقوم بها اليدان، فوجد أن عددها يقرب من الألف، فأى آلة تستطيع أن تفعل ذلك؟)[2].

بل نقول: إن اليدين يمكنهما القيام بما لا نهاية له من الحركات؛ حيث إن العمل غير متناه وغير محصى، ذلك كله بما وهبهما ومنحهما الله من القدرات المتنوعة الفائقة كل قدرة آلية.

إن الآلة الحديثة بكل مخترعاتها وتقنياتها لايمكن أن تجعل البشر يستغنى عن استخدام يديه، بل من العمل ما لايمكن معه استخدام أى آلة خلا اليد، فإن العمليات الجراحية الدقيقة فى أجزاء الجسم تستلزم استعمال اليدين وتدخلهما، ولا توجد آلة تتوافر فيها مرونة اليد وإحساسها.

واليد أكثر الأعضاء تمييزا للإنسان عن بقية المخلوقات، باستثناء النطق الفصيح والضحك بصوت، فبعض الحيوانات التى لها نوع من الأصابع لايوجد بها إبهام، مثل بعض أنواع القردة، وهذا نقص بيِّنٌ؛ لأن الإصبع - الإبهام - على أهمية كبيرة فى إعطاء اليد مرونتها وحيويتها وقوة القبض بها وإجراء بعض الأمور الدقيقة.

وإذا كان العقل من خصائص الإنسان، فإن اليدين هما اللتان تنفذان له ما

---

(١) سورة النمل - من الآية (٨٨).

(٢) كتاب: جسمك كله عجائب، تأليف فريق من المتخصصين، ص ١٤٥ نشر دار المعارف بتونس (بدون تاريخ).

يأمر به، فهما الجهة التنفيذية، إن صح التعبير، وهو السلطة التى تدفع بالأوامر والنواهى.

إن الجسم الإنسانى يشتمل على نحو خمسة ملايين فلزات استقبال حسية دقيقة، عملها أن تسجل الألم والحرارة والضغط وكثيرا من الأحاسيس الأخرى، منها نحو مليون ونصف المليون، قرابة ثلث المجموعة، موجود فى اليدين، وقد يثير دهشتك أن تعلم أنه يوجد فى اليدين والرسغين سبع وعشرون عظمة؛ ولكى تحرك يداً واحدة تحتاج إلى معونة ثلاثين مفصلا، ومفصلا محوريا وأكثر من خمسين عضلة موجودة فى اليدين والذراعين والكتفين..)[1].

وهذا الحشد من العضلات والأعصاب والمفاصل وأدوات الإحساس يدل على مدى ما تقوم به اليد من جهد جبار ومتنوع لخدمة الإنسان، فسبحان الله المبدع الصانع!!

هذا جزء واحد من تركيب الإنسان وقوامه، وهو جزء يسير للغاية فى هذا القوام الذى أبدعته يد القدرة الإلهية، وهو من الصورة الحسنة التى امتن بها الله على الإنسان فأكرمه، وخصه بها: ﴿ ... وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2].

فإذا كان هذا هو القوام الإنسانى فى أبدع صورة وأكملها وأجملها، فى عموم خلق الإنسان، فإننا نجد أنه كلما اختل شرط من شروط هذا القوام الحسن بسبب من الأسباب، فإن ذلك الاختلال يؤثر على سلوك الإنسان وعلى شخصيته على حد سواء.

فإن سلوك ونفسية الأعرج والأقطع أو مجدوع الأنف أو الأعمى أو الأكمه

---

(١) المرجع السابق ص ١٥١.

(٢) سورة التغابن ـ من الآية (٣).

والأبرص وكل أصحاب العاهات، يختلف عن الأسوياء من أصحاب القوام المستقيم، ولعل ذلك الاختلاف بعض الأسباب، التى منها أن نقص تلك الأعضاء والأجهزة يعوقهم عن الاستفادة من بعض معطيات الحياة، ويسبب لهم نقصاً عن بقية أفراد البشر من الأسوياء، وهذا النقص ينعكس على نفسياتهم وسلوكهم فى الحياة، وعلى تعاملهم مع بنى جلدتهم، وبالتالى فهم يحتاجون إلى معاملة خاصة وفهم خاص لتلك النفوس؛ حتى يمكن الاستفادة منهم، وجعلهم أعضاء فاعلين فى المجتمع، وإلا أصبحوا وَبَالاً وخسارة عليه وعالة أيضا.

ولقد حاول المجتمع أن يدفع بهم إلى ما يعدل سلوكهم ويحرر نفسياتهم بتخفيف بعض أسباب النقص الذى يشعرون به، وأن يعزلهم عن بقية البشر، فأنشأ لهم ـ المجتمع ـ المعاهد والمدارس وأدوات التعليم، وصنع لهم ما يعلمهم الحرف والمهن التى تدخلهم فى زمرة بنى جنسهم، فخفف ذلك عنهم بعض الشيء، وحَسَّن من سلوكهم.

ونحن نقول: يلزم الدعاة أن يراعوا هذه الجوانب، وأن يستفيدوا منها فى خدمة هذه الشريحة من الناس الذين لحقت بهم هذه النقائص، وأن يشعروهم بعناية الإسلام بهم، وأنهم بشر ككل الناس وأن الله يقبل عمل الصالحين، ويثيبهم عليه وزيادة إن هم صبروا وشكروا ونظروا إلى من هم دونهم ممن ابتلاهم الله.

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يجالسهم ويؤانسهم، ويرحب بهم، ويزورهم...

استفاد ذلك من أدب ربه الذى أدبه به، وهى أخلاق القرآن، التى تخلق بها؛ ولهذا قالت السيدة عائشة عندما سئلت عن خُلُقِه: (فإن خُلُق نبى الله، صلى الله عليه وسلم، كان القرآن)[1].

---

(١) رواه مسلم، فى كتاب المسافرين (١٣٩).

ومن ذلك الأدب عتاب الله له عن واحد من هؤلاء جاءه ليتعلم، وكان مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نفر من عِلْيَة قريش يحدثهم عن الإسلام، فكان لايريد أن يقطع حديثه معهم، ولكن الأعمى ابن أم مكتوم - رضى الله عنه - أصر على ذلك فوجد النبى، صلى الله عليه وسلم، فى نفسه من ذلك، فعاتبه الله وأدبه بقوله، تعالى:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴾[1].

إن هذا الأمر الذى تعالجه هذه الآيات لا يعتبر حادثا فرديا بالمقياس القرآنى، وإن كان فى الواقع هو فردى، ولكن منهج القرآن، الذى نزل على الرسول، صلى الله عليه وسلم، منجما - حسب الحوادث والوقائع - إنما يأخذ تلك الوقائع كنماذج يقاس عليها ما شابهها وماثلها أو اقترب منها، وهذا ما عبر عنه علماء الأمة بقولهم: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأما اعتناؤهم بأسباب النزول فهو لمعرفة الحوادث والوقائع للاستفادة منها فى ذلك.

وهكذا فإننا نأخذ من تلك الآيات، فى موضوعنا، عددا من الاستنتاجات التى نستضىء بها فى كيفية معالجة مثل الحادثة المشابهة، فنجد فيها - حسب علمنا - النقاط التالية:

١ - تصنع لنا الآيات الكريمات قاعدة، بل وقواعد، فى كيفية التعامل مع مثل هذا النفر من الناس.

٢ - نجد فيها منهجا متكاملا، وليس حادثا فرديا، وتسوق نموذجا حيا

---

(١) سورة عبس - الآيات (١ - ١١).

وعملا واقعيا شاخصا للعيان، وهذا أفضل أنواع القدوة التى تتمثل وتحتذى وتؤثر فى نفس الإنسان وسلوكه.

٣ ـ أنها تعطى دراسة كاملة للنفسيات البشرية الخاصة التى تفقد إحدى حواسها ومستقبلاتها للحياة الدنيا كابن أم مكتوم الكفيف؛ حيث لم يكن يرى تعابير وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولو كان يرى لعرف رد الفعل ولما استمر فى حواره وحثه للرسول، صلى الله عليه وسلم، لكى يعلّمه، والحال أن القوم معه، ولما عامله الرسول، صلى الله عليه وسلم، بما يرى فيه مصلحة الدعوة ـ حسب بشريته ـ جاءه القانون الذى عن طريقه يعامل مثل هؤلاء، وهى الآيات التى بين أيدينا، ففعل ذلك وأظهره فى أمته، رغم عتابه له، ولكنه نبى وقدوة ما ينبغى له أن يخفى شيئا من أمر الله، تعالى.

فالآيات بينت لنا كيف نتعامل مع مثل هذه الفئات، وكيف ندرس أحوالهم النفسية، وكيف نؤثر فيها، بل وكيف نعدها لتكون رائدة فى المجتمع؟

٤ ـ أن نفسيات كثير من هؤلاء مرهفة الشعور، ومفرطة الإحساس، إنهم ينفجرون لأقل ملابس يلامس علاقاتهم أو يتناول شخصياتهم، ويثورون لأقرب مثير، إننا نحتاج إلى أن نعرف كيف يفسرون الأشياء، وما هى الأشياء التى تمثل انطباعاتهم نحوها؟.

٥ ـ أن النفر والفرد الواحد من هؤلاء قد يصلح حال أمة بأسرها، إن صلح هو؛ وذلك لأن مثل هؤلاء لهم تأثير قوى عند من يخاطبونهم، حيث توحى حالهم بإيحاءات إيجابية للمخاطبين، ويرقون إليها وينجذبون نحوها فى ميل عاطفى بيِّن، والناس يتلقون حديثهم بصورة أكبر من غيرهم، لاسيما إن كانوا على درجة من العلم، ويخافهم العدو أكثر من غيرهم لهذا التأثير الملموس، ولا نذهب بعيدا فأمامنا الآن مثال حى شاهد على ما نقول، فهذا

مُقْعَدُ فلسطين، الشيخ أحمد يس، يقود المسيرة الفلسطينية الإسلامية ويؤجج الانتفاضة، فيزعج إسرائيل، ولا يهدأ لها بال حتى تضعه فى السجن، وهو لا يستطيع أن يمشى على رجليه.

ولهذا فقد أشار القرآن إلى هذا الأثر وهذه الفائدة: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾[1].

٦ ـ تُبرز الآيات ملاحظات قوية وغاية فى الأهمية ذات قواعد، حيث تبرز الدافع النفسى القوى، دافع الإيمان والرغبة فى الإصلاح والنفع والاستفادة، وهذا يؤدى بصاحبه لحمل الدعوة والقيام بها على أحسن وجه. فأما من جاءك يسعى...

يقابله دافع من نوع آخر من ورائه نفس مرتابة هيابة متعالية، تدفع بصاحبها للمعارضة ولو كان المعارض على حق، هذه نفسية مريضة بأدواء متعددة، منها داء الكبر وداء حب الرئاسة، وداء الحسد، وداء الشهوة والرغبة فى تمتع الجسد بالملذات الفاسدة: (أما من استغنى * فأنت له تَصَدَّى).

٧ ـ أننا نجد درجة البيان التوضيحى العالية ذات الصوت القوى الجرىء، لغرس مبدأ الإيمان فى نفوس الدعاة للنهوض بأعباء الدعوةوتحمل تبعاتها ومعرفة ما يصلحها ويصلح لها معرفة متمكنة ودقيقة، قائمة على علم وممارسة عملية، يتمثل ذلك فى الكلمة القوية الفاصلة: (كلا) حيث لا تدع مجالاً لأى شك أو مساومة، بل تحسم الأمر وتضع الحدود...

وخلاصة القول هنا: أن القوام له أثر نفسى وسلوكى كبير، فهو إن كان يتمثل فى الصحة التامة والعضلات القوية والفتوة الزائدة والقوام الممشوق المستقيم والطول الفاره والجسم المنسق... فإن صاحبه يُخْشَى عليه داء

(١) سورة عبس ـ الآيتان (٣ ـ ٤).

الخيلاء والمشى فى الأرض مرحا والعجب بالنفس والتيه، وهذا يسبب كثيرا من المصائب والمتاعب لصاحبه وللمجتمع على حد سواء، وربما عاث فى الأرض فسادا وتجبراً... ومن علاجاته وتطبيبه الذى يَحد من غلوائه أن يعالج بما عالج به لقمان ابنه وأن يسدى إليه النصيحة:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[1].

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾[2].

فإذا عرف أن كل ذلك سيئ ومكروه فلعله يرعوى، وكذا إذا رأى من هم دونه أو من ابتلاهم الله بعاهات أو أمراض أو سلبهم نعمة من نعم الأعضاء والحواس، فهذه كلها يلزم الداعى أن يبرزها للعيان، ويوضحها لمن يتعامى عنها؛ لان صاحب النعمة لا يرى نعمته حتى إذا ذُكِّرَ بها أو وقع فى ضدها تنبه.

ثانياً - اللباس ودلالاته العامة على السلوك النفسى:

إن اللباس الخارجى الذى يعنى الاكتساء بكساء للجسم من خارجه، هو من خصائص الإنسان التى كرمه الله بها وميزه بها على سائر المخلوقات؛ ولهذا فقد امتن الله به عليه وجعله دلالة على نعمه على البشر، وهو تكريم لهذا المخلوق المفضل على كل المخلوقات. قال الله، تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ

(١) سورة لقمان ـ الآيتان (١٨ و ١٩).
(٢) سورة الإسراء ـ الآيات (٣٧ ـ ٣٨).

ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

واللباس إلى جانب أنه ستر للعورة فإن له دلالة على سلوك صاحبه ونفسيته، ودلالة على أخلاق الأمم ورقيها وتحضرها، فكلما كان اللباس فاضحا وغير ساتر ومظهرا لدواخل الجسم ـ دل على ضمور الأخلاق الكريمةوالصفات الإنسانية؛ لأنه من خصائص الإنسان، فنقصانه يعنى نقصان الإنسانية، وحسنه والتستر به يعنى عكس ذلك تماما.

وما نراه اليوم من تكشف وعرى فى الأمم غير الإسلامية عامة والغربية خاصة ـ يدل على تفسخ تلك الأمم من إنسانيتها، وأن نفسياتها تميل إلى الحيوانية والشهوانية الجسدية فنزلت عنها مستويات القيم الكريمة، فتشهد عليهم ألبسة نسائهم التى لا تكاد توارى شيئاً من سوءاتهن وألبسة رجالهم القصيرة الضيقة التى تبرز العورة مغلظة ومحددة، بل تدنت الأخلاق حتى نزلت بهم إلى تخصيص أندية وأماكن خاصة لا يدخلها إلا العراة تماما بتمام!! وهو أمر يعرفه كل من زار تلك البلاد، وأدى هذا بدوره إلى انحطاط نفسى وأخلاقى متسلسل كل سلسلة تؤدى إلى غيرها، حتى وصل بهم الحال إلى أن تبيح برلماناتهم الفواحش مثل اللواط والزنى، إذا كان برضا الطرفين!! فشاعت الفاحشة، وانتشرت الرذيلة؛ حتى تسبب لهم ذلك فى أفتك الأمراض وأخطرها مثل مرض نقص المناعة الذاتية المرموز له باسم (الإيدز) والمعروف أن السبب الرئيسى لانتقال عدواه هو الفواحش بكل أنواعها، وهذا كله كان السبب الأول فيه هو اللباس الكاشف للجسد الفاضح للعورة التى أمر الله بسترها، وجعلها علامة تحضر على الإنسان ومن خصائصه.

---

(١) سورة الأعراف ـ الآيتان (٢٦ و ٢٧).

وقد جاءت بعض الآثار عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، تحض على اللباس والتجمل به فى غير ما خيلاء، بل لستر العورة، منها:

(.. تسرولوا وائتزروا وخالفوا أهل الكتاب...)[1].

وجاء: (اتخذوا السراويلات، فإنها من أستر ثيابكم، وحصنوا بها نساءكم إذا خرجن)[2].

وقال، صلى الله عليه وسلم: (البسوا الثياب البيض، فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم)[3].

واللباس له أثر كبير وظاهر على السلوك الخارجى والتفاعل النفسى؛ حيث يمكن للداعى أن يتعامل مع الشخصيات المدعوة على ظواهر ذلك، وأن يجعل من مظهر اللباس دلائل على الشخصية، فيحتاط لها بما يلزم من معاملة، فاللباس يدل على نوعية الشخصية، مثله فى ذلك مثل الشكل الخارجى للجسم يدل على شخصية وفكر ومعتقد صاحبه وسلوكه. فإن الشخص الذى يلبس ثيابا لا تستر العورة - سواء أكان رجلا أو امرأة - أو ثيابا ذات ألوان صارخة أو ضيقة أو لا تناسب حاله وشخصيته - كل ذلك له دلالة على الشخصية ودلالة على نفس اللابس.

وبالعكس فإن صاحب اللباس المحتشم واللون الهادئ واللباس المناسب المنسجم مع الشخص ذاته، يدلنا لباسه ذلك على شخصيته، ويعطينا مؤشر التعامل معها.

ولكن يلزم مراعاة البيئات واختلافها فى نوعية اللباس؛ فإن من اللباس ما يعتبر دليلا على عدم اللياقة وسوء الأدب فى بلاد ما، فى حين أنه فى بلاد

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٥/ ٢٦٤.

(٢ و ٣) رواه الإمام أحمد وغيره، انظر المسند ٥/ ١٣.

أخرى يعتبر أمرا عاديا، فلقد وجدتُ بعض البلاد تعتبر لبس الإزار للرجال من الأمور المخلة بالرجولة والمعيبة جدا، ويعتبرونه من ألبسة النساء، فى حين أنه فى بلاد أخرى من ألبسة الرجال دون النساء، كما وجدتُ بعض البلاد تعيب على الرجال لبس السروال، وتجعله من خصائص النساء والعكس فى بلد أخرى حيث هو خاص بالرجال دون النساء . . .

وهذا كله ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار عند الحكم على لباس الشخص؛ لنستدل به على سلوكه ونفسيته، فبعد معرفة أنواع الألبسة وعرفها عند الناس فى البيئة المعينة تؤخذ الدلالة الحُكمية، فإذا كان العرف كله منحرفا عن الذوق الإنسانى الرفيع فى اللباس، كما ذكرنا سابقا عن الغرب، فإن على الداعية أن يبدأ بعلاج ذلك بالطرق والوسائل التى تفيد فى تعديل هذا السلوك المعوج؛ حتى يستقيم مع سلوك الناس الأسوياء كما أراد لهم خالقهم . . .

إذا كانت تلك دلالات اللباس العامة على السلوك النفسى، فإن للألبسة معانى ومنافع أخرى تعتبر من نعم الله على الإنسان وإن لم تكن تعنى تغطية الجسد مباشرة، ولكنها تعنى نوعا من الستر والحفظ الذى يفيد الإنسان ولا يمكنه أن يستغنى عنه بحال من الأحوال، نذكر طرفا منه مما جاء فى القرآن الكريم للفائدة الدعوية العامة؛ حتى يتذكر الإنسان نعم الله عليه، فيعدِّل من سلوكه، وتهدأ نفسه، ويسير فى الطريق السليم، وهو من أهداف علم نفس الدعوة فى الارتقاء بالإنسان، ونذكر بهذا الخصوص ما يلى:

اللباس بمعنى، التمتع والرفاهية والراحة:

إن الإنسان إذا عرف أن الشريعة الإسلامية جاءت لراحته وسعادته وأنها تسعى به لكى يتمتع بنعم الله عليه فى غير ما إسراف ولا تقتير، فإنه إذا عرف ذلك صلح حاله، ونظر إلى الدنيا نظرة تفاؤلية، فيحيا كما أراد له الله ذلك .

فمن ذلك تعاقب الليل والنهار، وحتى تتم الراحة للإنسان فإن الله سلب من الليل الضوء الساطع الذى يسبب نوعا من النشاط لأجهزة التنبيه فى العصب الحسى لدى الإنسان فيظل مستيقظا ونشيطا فى النهار، فإذا جاء الليل بظلاله وسكونه وهدوئه تراخى عصب الحس حتى ينام الإنسان هادئا مرتاحا، مما يجعله يتسقبل يومه فى همة ونشاط، نجد ذلك كله فى الآيات التالية، كما فى قوله: تعالى:

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾(1).

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾(2).

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾(3).

ومن متعة اللباس وراحته للنفس قوله تعالى، عن لباس أهل الجنة ومدى متعتهم النفسية به: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾(4).

وقال تعالى، فى المعنى عن لباس أهل الجنة وزينتهم:

---

(1) سورة الأنعام - الآية (96).

(2) سورة يونس - الآية (67).

(3) سورة غافر - الآية (61).

(4) سورة الحج - الآية (23).

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾[1].

وقال عن البحر وما فيه من خيرات ونعم، ومنها اللباس للزينة والمتعة:

﴿ ... وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ ... ﴾[2].

إن نعيم أهل الجنة لا يحصى، ومتع الروح والنفس عندهم لا تفنى؛ ولهذا لا يجد الناس فى الجنة صخبا ولا نصبا ولا كدرا، ولا معاناة نفسية، ولقد نوع الله لهم من زينة اللباس؛ لما له من أهمية وقيمة لدى الإنسان، ففى الآية الآتية ما يثلج النفس، ويبهج الروح ويجعلها فى غاية السرور والحبور من ألوان وأنواع الألبسة:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ ... ﴾[3].

وليس من لون يريح الأعصاب ويهدئ النفوس أكثر من لون الخضرة، فهى فى الزرع والنبات عامة، وكذا على الجسد فى اللباس، لا تختلف كثيرا حيث المتعة للعين وراحة النظر التى يتبعها راحة النفس وطمأنينتها...

وكذلك نجد الراحة النفسية والسكون والهدوء الذى فيه معنى من معانى اللباس الذى يأتى بمعنى الراحة فى قوله، تعالى، عن الليل وما فيه من جُنَّة ووقاية وستر للإنسان عامة؛ ولهذا عبر الله عنه باسم اللباس فقال:

﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴾[4].

---

(١) سورة فاطر ـ الآية (٣٣).

(٢) سورة فاطر ـ من الآية (١٢).

(٣) سورة الكهف ـ من الآية (٣١).

(٤) سورة النبأ ـ الآية (١٠).

مثلما قال فى آية أخرى عن سكون الليل وهدوئه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا... ﴾[1].

كما جاء اللباس بمعنى الستر عامة والحفظ الحسى والمعنوى، وفيه معنى الطمأنينة والراحة أيضا، وكلها معان تنصب على راحة البشر واستقرارهم النفسى والجسدى، ومن ذلك الزوجة التى تعتبر سكنا ولباسا للرجل كما هو لها كذلك:

﴿ ... هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... ﴾[2].

قلنا إن اللباس الحسى الجسدى، يدل على الشخصية والحالة النفسية والسلوك العام للابسه، ويعطى الداعية الدارس المراقب لسلوك المدعوين مؤشرات يستفيد منها فى التعرف على سلوك الشخص المدعو، حيث تدل الألبسة الصارخة الألوان أو التى تكشف الجسد على السلوك، كما أن الذى لا يلبس ألبسة لائقة لا يكون مطمئنا فى نفسه وتجده دائما مضطربا ووجلا خائفا، بل ويخيف غيره بسلوكه فى اللباس الذى يخالف سلوك الناس الأسوياء.

هذا بالنسبة للباس الجسدى، الذى يرادف فى المعنى العام والمضمون، عدم الاستقرار النفسى الذى تحصل معه النتيجة النهائية على دفع الشخص نحو سلوك معين يخالف سلوك الآخرين، وإلى جانب ذلك نجد القرآن يذكر اللباس بنوع آخر من أنواع السلوك يؤدى بدوره إلى مضاعفات خطيرة على الإنسان، ويجعل سيره ومنهجه فى الحياة مضطربا. فمن ذلك الخوف، فهو نوع من السلوك تصحبه دوافع تؤدى إلى سلوك معين، فجعل القرآن الخوف

---

(١) سورة يونس - من الآية (٦٧).

(٢) سورة البقرة - من الآية (١٨٧).

نوعا من اللباس، يمكن أن يكتسى به الإنسان كساء معنويا يؤدى إلى سلوك خارجي حسى، فقال، تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[1].

ومن آثار اللباس على السلوك، التكبر والخيلاء، حيث يدفع اللباس الفاخر الجميل صاحبه إلى التباهى به والكِبْر والتعالى على الآخرين، وهذا نوع عصيب من أمراض النفس التى تضر بصاحبها وبالمجتمع على حد سواء، حيث يفوِّت المتكبر على نفسه كثيراً من المصالح بسبب التكبر والبطر، فهو إن كان جاهلا يتكبر على التعلم فيظل يرفل فى جهله حتى يموت، وإن دله أحد الدعاة على فعل خير يأنف بنفسه عنه، وإن نهى عن منكر تأفف وصد عن الموعظة وازدرى الداعى وحقره؛ لأنه فى زعمه كيف يتطاول عليه وهو السيد المهيب!!

ولقد منع الكبر الكثيرين من إجابة الدعوات والدخول فى دين الله أو الكف عن المحرمات والموبقات؛ ولهذا فقد نهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن جر الثوب تكبرا، فقال:

(إن الله لا ينظر لمن جر ثوبه خيلاء، وفى رواية: إن الله لا ينظر لمن جر ثوبه بطرا)[2].

ولهذا فقد حث الإسلام على التوسط والاعتدال فى اللباس؛ حتى لا يؤدى بصاحبه إلى التبختر والكبر.

---

(١) سورة النحل ـ الآية (١١٢).

(٢) متفق عليه، البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب اللباس (١)، ١/ ٢٥٢، دار المعرفة ـ بيروت، مع اختلاف فى بعض الألفاظ حسب الروايات، ومسلم ـ كتاب اللباس رقم (٢٥)، والترمذى ـ كتاب اللباس ـ باب (٨)، ٤/ ١٩٥، دار الفكر ـ بيروت (١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م).

وهذا لا يمنع التجمل باللباس أبدا، ولكن يجب أن يفرق بين اللباس الجالب لتعالى النفس، واللباس الذى يُتَّخَذُ لمجرد التجمل فى الحدود المستحسنة عند الناس، وقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتجمل باللباس وأنواع الثياب وفى نفس الوقت ينهى عن الفاضح من اللباس والذى لا يليق بالإنسان.

فقد قال الله، تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[١].

وقد جاء فى الأثر النهى عن لباس الشهرة الذى يؤدى إلى تعالى النفس، كما ورد النهى عن الألبسة التى تزرى بصاحبها وتهينه، ومن ذلك النهى عن الألبسة المشهورة فى حسنها، والمشهورة فى قبحها.

وورد عنه، صلى الله عليه وسلم، قوله:

(من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوبا مثله، ثم تلهب فيه النار)[٢].

ومن فوائد اللباس ومهامه حفظ الجسد من الضرر والتلف، وكل إنسان عاقل يعرف علاقة الجسد بالنفس، حيث إذا اعتل الجسد ومرض فإن النفس تتبعه فى ذلك وتصبح مضطربة وغير مستقرة، ولقد جاءت نتائج كثير من البحوث حول علاقة النفس بالجسد لتقول: إنها علاقة لا تنفصم، فكثير من أمراض الغدد تتسبب فى تدهور النفس واضطرابها وانحرافها واختلال مزاجها واضطراب الشخصية ـ كما سنذكر لاحقا إن شاء الله[٣].

(١) سورة الأعراف ـ من الآية (٣٢).

(٢) رواه أبو داود فى كتاب اللباس ـ باب (٤) فى لبس الشهرة ـ حديث (٤٠٢٩)، ٣/ ٤٣ دار الفكر ـ بيروت (بدون تاريخ) وابن ماجه ـ كتاب اللباس ـ باب (٢٤) من لبس ثوب الشهرة. والإمام أحمد فى المسند ٢/ ١٣٩، وزاد: ألبسه الله، تعالى، ثوب مذلة.

(٣) انظر: أصول علم النفس، د/ أحمد عزت ـ ص ٤٢٠، ط٧ ـ المكتب المصرى (بدون تاريخ).

ولقد أظهرت الأبحاث الطبية أن اللباس الذى يستر الجسد له فوائد كبيرة فى حفظه من الأمراض التى تسببها بعض الميكروبات والجراثيم التى تدخل الجسم عن طريق الجلد والمسام الدقيقة، إضافة إلى التعرض للتلوث عن طريق الغبار والأتربة العالقة فى الجو والتى تحمل معها كثيرا من الأمراض الضارة بالجلد، كما أن اللباس يقى الجسم من التعرض المباشر لأشعة الشمس التى تنبعث منها أشعة ضارة مثل الأشعة فوق البنفسجية، فإن (أشعة الشمس الحارة تهدم أسوار الدفاع الذاتى الموجودة داخل جسم الإنسان، وقضاء الساعات تحت أشعة الشمس أشبه بالتدخين بكثافة فى مكان مغلق.. كما أن التعرض للأشعة فوق البنفسجية يشجع على انتشار سرطان الجلد، بل ويتسبب فى دخول الجلد مرحلة الشيخوخة قبل الأوان...

ولقد قام علماء متخصصون فى الولايات المتحدة وفرنسا، مؤخرا بإجراء بحوث عن نتائج ارتداء المرأة للملابس القصيرة، فأخذوا مقاييس لسيقان بعض الفتيات قبل ارتدائهن (المينى جوب) ثم أخذوا مقاييس للسيقان نفسها بعد مدة معينة من ارتدائه فوجدوا أن هذه السيقان قد تضخمت بنسبة خمسة بالمائة، وتغير لون جلدها بنسبة سبعة فى المائة، ولقد نشرت المجلة الطبية البريطانية أن السرطان الخبيث الذى يصيب الجلد فى المناطق المكشوفة من جسد المرأة، أصبح فى تزايد عقب انتشار موضة (المينى جوب) أو الملابس العارية القصيرة بسبب تعرض المناطق المكشوفة لأشعة الشمس فترات طويلة على مدار السنة، وهو يبدأ أولاً بصورة بقع صغيرة سوداء فى القدم أو الساق العارية، ثم يأخذ فى الانتشار فى كل مكان فى الجسم)[1].

ولقد أشار القرآن الكريم إلى نعمة كساء الجسم ووقايته من لسع وهج الشمس وتخلل أشعتها للجلد، فقال، تعالى ذاكرا الظل وفوائده التى يجملها القرآن فى

---

(١) مجلة الوعى الإسلامى، العدد (٣١٦) ذو القعدة ـ ذو الحجة ١٤١٢ هـ ـ يونيو ١٩٩٢م. ص ٨٧ ـ ٨٨.

إعجاز لايدانيه إعجاز: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[1].

ولقد أشار إلى هذا الترابط الوثيق النبى، صلى الله عليه وسلم، فى تمثيله للمسلمين فى وحدتهم وأنهم يتألمون لألم إخوانهم ويفرحون لفرحهم، هذا الترابط الذى تناساه المسلمون فى حاضرهم، إلا قليلا منهم، وهو: (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[2].

ومعلوم أن الذى يحس بالألم ويتداعى للسهر والحمى هو النفس الْحَالَّةُ فى الجسد، ولولا النفس ما شعر الجسد بشىء، فالمعنى العميق البعيد يشير لهذا الترابط.

الألبسة المحرمة وأثرها على النفس

وهناك نوع من الألبسة حرمها الشرع الإسلامى، والناظر الفاحص إلى هذه النوعيات المحرمة يجد لها التأثير الكبير على نفسية الشخص وسلوكه المنحرف، فمن الألبسة التى حرمها الإسلام لتأثيرها على الشخصية وتحويرها عن خطها الصحيح السليم، نوع اللباس الخاص بالنساء والآخر الخاص بالرجال، فقد (لعن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل)[3].

فإن الرجل له شخصيته المميزة التى تؤهله ليقوم بالأعباء المنوطة به، وكذا

---

(١) سورة النحل ـ الآية (٨١).

(٢) متفق عليه، البخارى ـ كتاب الأدب (٢٧) الفتح ٤٣٨/١٠ ومسلم ـ كتاب البر والصلة والأدب، (٦٦) مسلم بشرح النووى ١٦/ ١٤٠.

(٣) رواه أبو داود ـ كتاب اللباس ـ باب (٢٨) حديث رقم (٤٠٩٨) وأحمد فى المسند ٣٢٥/٢.

المرأة لها ذاتيتها المستقلة المرغوب فيها. فإذا تقمص كل واحد شخصية الآخر ذابت شخصيته المميزة؛ وأصبح شخصية ممسوخة ومشوهة وغير قادرة على تأدية أى عمل خاص، حيث المتقمص لشخصية غيره لن يستطيع أن يكون مثله؛ لأن لكل واحد تركيبه الجسدى والنفسى، وبالتالى تصبح الشخصية مسخا مشوها لا إلى هذه تنتمى ولا إلى تلك، فتصبح النفس مجزأة ومبعثرة... وينطبق على هذا العمليات الجراحية العضوية التى تجرى لبعض الناس بغرض تحويلهم عن جنسهم، من الذكورة إلى الأنوثة، ومن الأنوثة إلى الذكورة، فإنها تجانب الخلق السليم الحميد إلا إذا كان بالعضو التناسلى عيب ولد به الشخص، وحينئذ تدخل فى عملية العلاج والتجميل.

ولهذا فقد نهى الله، تعالى، أن يتمنى الرجل أن يكون امرأة، وأن تكون المرأة رجلا؛ حيث إن كل واحد قد فضله الله على الآخر بالخلقة التى خلقه عليها وأهله لها، والإسلام يحث الناس على الاستقلال بالشخصية ومنع تمييعها وتذويبها..

قال، تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ... ﴾[1].

ولا نريد أن نخوض فى الفروق بين المرأة والرجل؛ لأن هذا له مجال آخر غير هذا الكتاب، وقد كتب فيه كثيرون، كل فى مجال تخصصه، واتضحت للجميع فروق أساسية فى التركيب العضوى الجسدى والذهنى والمعنوى والصوت والنفس والانفعالات، بل حتى الذكاء وجدوا فيه فوارق..

والذى يهمنا هنا هو إبراز التأثير النفسى الذى، يحدثه انتحال كل طرف لشخصية الآخر، حيث يظهر جنس ثالث لا هو خالص الذكورة ولا هو كامل الأنوثة، فتنحدر أخلاق المجتمعات ويختل تركيب السكان وتوازنه.

(١) سورة النساء ـ من الآية (٣٢).

وهذا الفارق أمر اقتضته حكمة الله؛ لتحتفظ البشرية ببشريتها، وليكون كل من الرجل والمرأة مكملا للآخر، وحتى فى الماديات وجد أن الأقطاب المتشابهة تتنافر ولا تتجاذب، والعكس تجاذب المختلفة وتآلفها!! ولعل هذا من حكمة الله فى الاختلاف الْبَيِّنِ بين الذكر والأنثى، ولله فى خلقه شئون.

ونشير الآن إلى مثال واحد معاصر على الاختلاف بين الذكر والأنثى، وهو مثال حى ومن امرأة ليس عادية، بل قادت أمة بأسرها أَمَداً من الزمن، تعترف بالفوارق بينها وبين الرجال، وهذا فيه رد مفحم وضربة لازب على داعيات المساواة بين الرجل والمرأة، مما يدلل أن ادعاءهن زور وبهتان، ليس وراءه مثقال حبة من خردل من الحقيقة.

تقول رئيسة الفلبين (كورازون اكينو) فى تصريح أدلت به إلى وكالة أنباء رويتر فى السابع من شهر ربيع الأول عام ١٤٠٨ هـ الموافق للثلاثين من شهر أكتوبر عام ١٩٨٧م، تقول فيه:

(إنه بوسع الرجل أن ينهض من الفراش، ويمشط شعره؛ ليكون مستعدا لمباشرة عمله خلال دقائق، غير أن الأمر يختلف بالنسبة للمرأة... وتسوق مثلا على ذلك من واقعها فتقول:

فى ليلة محاولة الانقلاب الفاشلة فى الثامن والعشرين من أغسطس الماضى، عندما تم إيقاظى من سبات عميق لإبلاغى بنبأ محاولة جنود متمردين اغتيالى، انصرف ذهنى حينئذ إلى الاهتمام بمظهرى... وتابعت حديثها الذى أدلت به إلى رابطة الصحفيين الأجانب في مأدبة عشاء فى الفلبين تقول:

لو كنت رئيسا - أى رجلا - فكل ما يتعين علىَّ أن أفعل، هو ارتداء ملابسى، وهذا كل ما فى الأمر، ولكن فى حالة كون رئيس البلاد امرأة، فإن الأمر يتطلب الاهتمام بالميكياج!!)[1].

---

(١) مجلة الوعى الإسلامى، العدد (٣١٦) ص ٩٠ (دو القعدة - الحجة ١٤١٢ هـ) يونيو ١٩٩٢ م.

فهذه امرأة ذات منصب وسلطة تعترف بالفوارق الْبَيِّنَة، والاعتراف سيد الأدلة، كما يقول أصحاب القانون، وهذا يظهر لنا مدى الأثر النفسى الذى يتركه تجاذب الذين يطالبون بالمساواة بين الجنسين.

ثالثا: المركب:

إن المركب بأنواعه وأشكاله المختلفة، قديمها وحديثها ـ يدل دلالة واضحة المعالم على نفسية وسلوك راكبه، فالذين يركبون السيارات الصغيرة ذات الإطارات العريضة والشكل الممدد وكأنها سلحفاة أو سمكة ولها من الخلف مثل ذيل الأرنب وسرعتها تفوق (٤٠٠) كيلو فى الساعة، و ذات الطلاء اللامع الصارخ والمزمار العالى الأجش والأصباغ الخاطفة للبصر... إلى آخر تلك الأوصاف، مثل هؤلاء الناس يعرف الداعى الحَذِق أنهم من فئة معينة من البشر، وأن لهم نفسيات وسلوكيات مختلفة، وبالتالى يلزم لهم معاملة خاصة بهم تناسب وضعهم، وتحبب الداعى إليهم، وتجعلهم ينجذبون إليه، وهؤلاء عادة يكونون بعيدين عن السلوك المعتدل أو الوسط، وينفرون ـ غالبا ـ من المتدينين، وخاصة الذين تظهر عليهم علامات وسلوكيات التدين؛ ولذا فهم يحتاجون إلى نوع خاص وبارع وحذر من التأليف المتدرج، حسب وضعهم النفسى والسلوكى الجامح الجانح...

والمركب ـ حسب نوعه ـ قد يتسبب فى عوامل نفسية جديدة لصاحبه، لاسيما إذا كان فخما وجديدا ونادر الوجود فى تلك البيئة، فإذا ركبه ضعيف الإيمان وسبح به فى تيه ودلال لا يشمس ولا يجمح، ونظر إلى عطفيه فى برديه، وانتشى، فإن ذلك يؤدى إلى البطر والخيلاء، وهما من صفات النفوس المريضة التى تصاحب السلوك المائل.

أما إذا كان من الصالحين المسبحين فإنه عندما يشتريه جديدا يقول: ما شاء الله!! تبارك الله!! اللهم إنى أسألك خيره وخير ما هو له، وأعوذ بك من

شره وشر ما هو له، وعندما يركبه يقول: باسم الله مجراها ومرساها، ويقول: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾[1].

هذا هو دواء علة السلوك المنحرف عند أصحاب المركب الذى يزهو به صاحبه ويختال عجبا، يقوله الداعى أمامه أو يلقنه له إن اطمأن على ثورانه ونزواته.

ولما كان المركب عرضة للانحراف بالنفس والانجراف بها صوب الطريق المعوج، فقد ذكره الله من ضمن نعمه على الإنسان؛ لعله يتذكر أو يخشى: يتذكر خالق هذه النعم، ويخشى عقابه وعذابه.

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وفى تعبير (ويخلق ما لا تعلمون) تهدئة للنفوس الطافحة بالعجب بما تحت يدها من المركب الذى تظن أنها بلغت به غاية ما يمكن أن يركبه بشر، فيأتيها الخبر اليقين بأن الذى هدى عقول خلقه إلى هذا ـ قادر على هدايتهم لما هو أفخم وأجمل فلا تغتر، وتريث رويدك، مما يجعل ذلك المعجب المختال المتعالى يتراجع؛ ليراجع حساباته الخاطئة؛ لأن هناك ما لا يرقى إليه علمه ولا يطاوله ماله.

وهذه المركوبات لو شاء الله لجعلها فى غير متناول يدك أيها المتكبر، أو لو شاء لما هيأ لك المال لاقتنائها، أو لو شاء لجعلها شامسة جامحة لا تستطيع

---

(١) الزخرف ـ آخر الآية : ١٣ ثم الآية : ١٤.

(٢) سورة النحل ـ الآيتان: ٧ و ٨.

امتلاكها وتذليلها وتطويعها، والتطويع أنواع: منه تسخير المواد الخام لصنعها وتوفير مستلزمات ذلك كله وجعله فى متناول اليد، وتيسير وتسخير كل ما يمكن أن يساعد فى صنعها وجمالها... وجعل كل ذلك طوع الإرادة، وطوع البنان، يصنعه كيفما يشاء، فهو تذليل وتسخير وهداية من الله خالق هذا الكون من مثقال الذرة إلى المجرة. فسبحان الذى سخر لنا هذا وذلله لنا: ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ... ﴾[1]، فالتذليل لا يقتصر على الحيوان فقط كما يفهمه أصحاب النظر القصير، بل إنه يعنى التهيئة وإعداد الشىء حتى يكون طوع الخدمة؛ ولهذا جاء عن الأرض مثل هذا المعنى: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ... ﴾[2].

وملخص القول هنا، أن أكثر ما ذكرناه عن اللباس يمكن أن ينطبق على المركب نفسه عليه نحيل القارئ هناك، فليراجعه.

المطلب الثانى: الارتقاء بالإنسان من حيث المعتقد

من أهداف علم نفس الدعوة أن يسمو بالإنسان ويرقى به من حيث عقيدته؛ وذلك لأن العقيدة تشكل العامل الأهم فى تكوين الإنسان النفسى والسلوكى على حد سواء.

فكلما كانت عقيدة المرء صافية وإيمانه قوياً، وتصديقه جازماً لايداخله شك ـ كان هادئ النفس، حسن السلوك سليم المنهج، والعكس بالعكس، فإنا نجد أصحاب العقائد المنحرفة يصابون بأنواع كثيرة من الأمراض النفسية والعقلية، كما ينحرفون فى سلوكهم عن سلوك الناس الأسوياء من أصحاب العقائد الصحيحة.

فصاحب العقيدة الصحيحة فى الله يكون مطمئن النفس هادئ البال، لا

---

(١) سورة يس ـ من الآية (٧٢).

(٢) سورة الملك ـ من الآية (١٥).

يصيبه قلق ولا اضطراب نفسى، فهو يُحَصِّنُ نفسه بذكر الله، ويحفظ سلوكه بعبادته لربه على الوجه السليم، ويسمع قوله، تعالى، لعباده المخلصين:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1].

والمؤمن بالله الواحد الأحد نفسه مطمئنة صافية زاكية، وبقضاء ربها راضية، تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن فى جانبه وحماه، تطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة فى الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضرر ومن كل شر إلا بما يشاء، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء[2] والشكر على النعماء، لا تبطر ولا تطغى؛ لأن الطغيان نوع من جنون النفس وانفصام الشخصية غير السوية.

والمؤمن يذكر قول الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى أحوال المسلم مع إيمانه ومع تقلبات الدهر وصروفه، فهو يعمل ويجتهد ويقوم بكل الأسباب، ولكن تحصيل النتيجة وجنى الثمار هو من قَدَر الله، يسمع قول الرسول، صلى الله عليه وسلم:

(عَجَباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن إصابته ضراء صبر فكان خيرا له، عَجَباً لأمر المؤمن! فإن أمره كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن)[3].

ولكن غير المؤمن أو صاحب العقيدة المنحرفة غير ذلك فهو غير سوى الشخصية، بل هو مضطرب وقلق، تضيق به الحياة، ويتبرم بها ويضيق بها،

(١) سورة الرعد ـ الآية (٢٨).

(٢) انظر: فى ظلال القرآن، لسيد قطب، ٤/ ٢٠٦٠.

(٣) مسلم ـ كتاب الزهد ـ رقم (٦٤) وأحمد فى المسند ٤/ ٣٣٢ و ٣٣٣ و ٦/ ١٥.

ولا يكاد يسعه مكان، ولا يستقر له حال، ولا تسكن نفسه، فهو هائج وثائر ووجل، وَجِلٌ من كل ما حوله؛ لأنه لا يدرى لماذا جاء لهذه الدنيا، وما مهمته فى هذه الحياة، وما مصيره، وإلى أين مسيره، لا يدرى هل هو خلق ليأكل ويشرب وينام ثم يموت!! وهذا مصير كل الحيوانات! فهو لا يرى لنفسه فَرْقاً عليها إذَنْ! وهذا هو معدن الحيرة وسبب الاضطرابات النفسية والأمراض العقلية، إنه مضطرب حيران تائه، ولسان حاله يقول:

لَبِسْتُ ثوبَ العمر لم أُستَشَرْ وحِرْتُ فيه بين شَتَّى الفِكَرْ!!

وسوف أنضو الثوب عنى ولم أدْرِ لماذا جئت؟ أين المفر؟!

(وكأن هذا الحائر الخائر الإيمان لو استشير ـ حسب وجهة نظره ـ لقال: لا فائدة فى حياتى، ولا خير فى بقائى...)[1]، وما ذلك إلا لاضطراب العقيدة وضعفها. وهكذا يستمر الاضطراب النفسى والحيرة:

جئت، لا أعلم من أين، ولكنى أتيتُ!
ولقد أبصرت قُدَّامى طريقا فمشيتُ!
وسأبقى سائرا إن شئت هذا أم أبَيْتُ!
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟! لست أدرى !!

أجديد أم قديم أنا فى هذا الوجودْ ؟!
هل أنا حر طليق أم أسير فى قيودْ ؟!

---

(١) انظر: منهاج الحياة، ص ١٣، د/ محمد زين الهادى، نشر دار العاصمة الرياض ط ١ (١٤٠٨ هـ).

هل أنا قـائد نفسـى فى حيـاتى أم مقودْ ؟!
أتــمنـــى أنـــنـى أدرى ولــكــن: لست أدرى !!

وطريقى مـا طـريقى؟ أطويـل أم قصيرْ ؟!
هـل أنـا أصـعد أم أهـبط فيــه وأغـورْ ؟!
أأنـا السـائر فـى الـدرب أم الدرب يسيرْ ؟!
أم كــلانـــا واقــف والـدهـــر يـجـرى ؟! لست أدرى !!

ليت شـعرى وأنا فى عالم الغيب الأمينْ !
أتـرانـى كنـت أدرى أنــنى فيــه دفــينْ !
وبـأنـى سـوف أبـدو، وبـأنـى سـأكـونْ !
أم تـرانـــى كـنـــت لا أدرك شـيئا ؟! لست أدرى !!

أتـرانـى قبـلـمـا أصـبحت إنسـانا سـويـاً !
كنـت محـوا أو محالا أم ترانى كنت شيًّا !
ألهـذا اللـغز حـل أم سيبـــقى أبـديًّـا ؟ !
لســت أدرى. . . ولمـــاذا لســت أدرى ؟! لست أدرى !![1]

أما فى العقيدة الصحيحة، عقيدة الإسلام، فإن المسلم يعرف ويدرك مهمته فى هذه الحياة: لماذا خلق؟ ولماذا جاء إلى الأرض؟ ويعرف ما مصيره، حسب ما يكون عمله فى الدنيا.

---

(١) انظر. ديوان الجداول ـ لإيليا أبى ماضى ص ١٠٦ من قصيدته (الطلاسم).

يعرف أنه مستخلف فى هذه الأرض؛ ليعمرها ويسعى فيها بالخير للناس جميعا، ويقيم الدين لله حنيفا، ويعرف أن الله خلقه، أيضا لعبادته. . . كل ذلك مسطور له فى القرآن الكريم. . . ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

﴿ ... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... ﴾[2].

والأبيات التالية تعكس نظرة المسلم للحياة ولمهمة وجوده فيها، والغاية التى يرنو إلى الوصول إليها، وهى فى نفس الوقت تعكس لنا الفرق بين الوضع النفسى للمؤمن وغير المؤمن، يقول الشاعر المؤمن:[3]

هات ما عندك هاتِ   يا زمانَ الأَزَمَاتِ

أنا لا أخشاك فانثر   كل ما فى الجُعُباتِ

وارم من نَبْلك ما شئْـ   ـتَ فلن تثنى قناتى

هل ترى الإعصار يوماً   هَزَّ شُمَّ الراسيات ؟

أنا محمى بدرع   من يقين وثباتِ

مَعِيَ اللهُ فَلِمْ لا   أتحدى النائباتِ ؟

مَعِيَ الإيمان يهديـ   ـنى ببحر الظُّلُماتِ

مَعِيَ الإخلاص، ينجى   مركبى، والموج عاتِ

(١) سررة الذاريات ـ الآية (٥٦).

(٢) سورة هود ـ من الآية (٦١).

(٣) نشرت القصيدة فى جريدة (المسلمون) العدد (٣٩٥) الجمعة ٣٠ من صفر ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢/٨/٢٨.

مَعِــيَ الصبــر شراعــى فــى خِضَــمٍّ الحادثــاتِ

مَعِــيَ الحـق وحـب الْـ ــخير حـب المكرمـاتِ

مَعِيَ حُبٌّ الـورى، هـم إخــوتــى أو أخـوَاتــى

قـد صفا قـلبى من الشَّحْـ ــناء إلا للطــغاةِ

لَفَــظَ الحــقدَ وأمــرا ضَ القــلوب المهلــكاتِ

يـا زمـانى أنـا حـر حَـرَّرَ الإسـلامُ ذاتــى

أنــا باللــه عــزيــز عــزتــى فــى سَجَدَاتــى

أنــا للــه ولــىٌّ لا لِعــُزَّى أو مَنَــاةِ

أنــا عبــد اللــه لا عبــ ــدُ الهــوى والشهــوات

فَنَبَـتْ نَفْسِيَ عـن نفــ ــسى فَسُـدتُ الكائنــاتِ

سَخَّرَ اللـه السمـا والْــ أرض لــى والنَّيِّــراتِ

أنـا أقـوى الخـلق باللــ ــه بِـذِكْـرِى بِصَـلاتــى

كـم توجــهت إليــه فــى دياجــى الكُرُبَــاتِ

كــم أُنَاجِــيه فَأُلْفِيــ ــه مُجِيبـاً دَعَـوَاتــى

سامــعا هَمــِّى وسِـرِّى ودبيــبَ الخُطُــوَاتِ

قابِــلاً مِنِّــى قليــلى مــن فُـتَاتِ الحَسَـنَاتِ

غافــراً ما آدَ ظهــرى مــن جِبَــالِ السَّيِّــئَاتِ

ساتراً ما لا يراه ... خَلْقُه من كَبَوَاتِي

أنا أغنى الخلق بالْحَـ ... ـقِّ بِأَغْلَى الثَّرَوَاتِ

لا يُدَانِي كلُّ مُلْكِ الْـ ... أرض إحْدَى رَكَعَاتِي

إن يكنْ قد تاه (إيليا) ... في فَيَافِي الْفَلْسَفَاتِ

بات حيرانَ يُعَاني ... من شُكُوكٍ مُظْلِمَاتِ

بات لا يعرف معنًى ... لحياةٍ أو ممات

بات لا يفرق بين الْـ ... ـملح والعذب الفرات

فأنا أدرى وأدرى ... وكِمَ ادرى سرَّ ذاتي

أنا أدرى مبدئي من ... أي شيء أنا آت

أنا أدرى أين تمضي ... رحلتي بعد الوفاة

أنا أدرى غايتي أعـ ... ـرف منهاج حياتي

حَسْبِيَ القرآن أتلو ... هُ فيُحْيِي لي مَوَاتي

شرحتْ لي أصل خَلْقِي ... بعضُ آيِ (المُرْسَلاتِ)[1]

وتجلَّى لي مصيري ... إذْ تلوتُ (النازعاتِ)[2]

واستبانتْ غايتي من ... آيةٍ في (الذارياتِ)[3]

---

(١) يشير إلى الآيات من (٢٠ ـ ٢٢) من سورة المرسلات.

(٢) يشير إلى الآيات من (٣٧ ـ ٤١) من سورة النازعات.

(٣) يشير إلى الآية: ٥٦ من سورة الذاريات.

أنا روح أنا نور لا حصاةٌ في فلاةِ

أنا شمس ليس تُطْفَا بهبوب العاصفاتِ

ذاك سري يا زماني فَلْيَمُتْ غَيْظاً عِدَاتي

إنه الارتقاء بالإنسان في المعتقد أن يكرم بعبادة الله وحده، ويرفع عن أي مخلوق غيره، فما أحط أولئك الذين يعبدون غير الله، وإنه لمن المزرى بالإنسان أن يركع ويسجد لمخلوق مثله، بل لمخلوق أحط منه، لقد رفع الإسلام من قيمة الإنسان باستعباده لله الواحد الأحد.

لقد أُذلَّ الانسان عندما استعبدوه لمخلوقات الله الدنيا، وهو العزيز المكرم عند ربه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1].

وأُذل كذلك عندما زعموا له أن ربه ومعبوده مكون من ثلاثة (أقانيم) لا يدرى لأى الثلاثة يكون مستعبدا!! وكذا عندما جعلوا له إلاهه يلد ويولد وتجرى عليه أعراض البشر المخلوقين..

لقد مزقت هذه المعتقدات نفسيات البشر، وجعلتهم يلغون عقولهم ليؤمنوا بإلاه يُقتل ويُصلب، وله دم يُشرب، ولحم يؤكل إلى يوم القيامة!! هؤلاء لسان حالهم يقول: إنهم معذبون ولا يكادون يصدقون بهذه الآلهة الكثيرة أو المثلثة، وهذا أمر مطرد عندهم. تذكر إحدى النصرانيات قصتها مع النصرانية، وتلخصها في إيجاز قائلة:

(... كانت أسرتي تحرص على ذهابي للكنيسة، ولم يكن في نفسي قرب من المسيحية... لكنني أعترف أنه لم يكن يعنيني ما يريده القساوسة أو

(١) سورة الإسراء - الآية (٧٠).

تحكيه الأناجيل؛ لأنه كان دينا غامضا بالنسبة لى، ولم يكن هناك أمامى بديل لرفضه. . . .

وهكذا تتمزق النفس الإنسانية وتداخلها الشكوك بسبب العقائد المنحرفة أو الفاسدة الأصول؛ لأن قيم الإنسان الفطرية ترفض ذلك.

ولكنها تقول عن الإسلام:

(قرأت فى العقيدة (الإسلامية) وسيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحياته، ولأول مرة أحس بسعادة غامرة وأعيش فى عالم لا يعرفه إلا من يتذوق حلاوة الإيمان)[1].

هذه هى خلاصة هدف علم نفس الدعوة، فى الارتقاء بالإنسان؛ ليكون إنسانا، وليكون مؤهلا للمهمة التى رشحه الله لها، وليكون مكرما ويعيش إنسانا سويا لا مبعثر النفس مضطرب الشخصية.

أما الغاية التى يسعى إليها هذا العلم فهى: أن ينال الإنسان ـ بعد أن يحقق الهدف ـ رضا الله ليفوز بالجنة.

---

(١) انظر: جريدة (المسلمون) العدد (٣٨٦) بتاريخ ٢٥ من ذى الحجة (١٤١٢ هـ، الموافق ٢٦/٦/١٩٩٢ م).

المبحث الثالث
الفرق بين علم نفس الدعوة وعلم النفس العام

فى هذا المبحث نريد أن ندرس العلاقة بين العلمين، ومدى تلازمهما أو اختلافهما، وهل هناك فروق جوهرية بينهما، أم أن الخطوط رفيعة، وسوف نعتمد فى المقارنة على الخطوط العريضة والأسس العامة التى يستند إليها كل علم منهما، وسوف يكون ذلك باختصار وفى شكل نقاط رئيسة لا نكثر فيها من التفريعات والمتاهات، وبعد أن ندرس عددا من الأسس والمصادر لكليهما سوف نحدد الفروق بينهما على ضوء نتائج ومعطيات البحث والأدلة، فنقول:

أ ـ كل علم تُعرف متانته ورسوخه: من الأصول التى يستند إليها، ومن المصادر التى تمده بالمعرفة التى يستند إليها ويقيم برهانه على أساسها، وبالتالى يحكم على النتائج من خلال تلك المعطيات، وبالنسبة لعلم نفس الدعوة من حيث الاستعداد المصدرى نجده يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية، وذلك فيما يتعلق بتحليله للنفس البشرية وسلوكياتها، وهذا المصدر المكون من القرآن الكريم والسنة، هو أقوى المصادر دلالة على دواخل النفس ومعرفة مكنوناتها وأسرارها: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[1].

---

(1) سورة الملك ـ الآية (١٤).

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ... ﴾[1].

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[2].

فعلم نفس الدعوة تقوم أصوله وكلياته على القرآن والسنة فى الأساس، ولا تؤثر فيه الدراسات العضوية (الفسيولوچية) التى يجريها علماء علم النفس العام فى الوقت الحاضر، حيث إنها ما تزال نظريات فى عمومها، وأما ما يتصل منها بعلم الأعضاء والتشريح فإنه يدخل فى علمٍ غير علم النفس، ولا يبحث فى النفس البشرية، بل يبحث فى عوارض الجسم وأمراضه العضوية، غير أننا نزيد الأمر وضوحا، بأن النفس تؤثر كثيرا على الأعضاء حيث إن المعاناة النفسية تسبب أمراضا عضوية جسدية، وبالتالى يغدو مَرَدُّ الأمر كله أو معظمه إلى النفس، التى لا يعلم خصائصها بالتفصيل الدقيق إلا خالقها، الذى حدثنا عنها فى القرآن الكريم وفيما أوحى به إلى نبيه من السنة.

أما علم النفس العام فإنه يقيم دراساته على النفس عن طريق الملاحظة وإيراد الأسئلة وإجراء التجربة النظرية بوضع أسئلة معينة على عدد من الناس فى مختلف الأعمار، وغالبا ما يكون ذلك فى بلد الشخص والطبيب المعالج، وربما كان فى عدد من البلدان، ثم إجراء بعض التجارب المخبرية العضوية، مثل الغدد وبعض الأجهزة لمعرفة مدى تأثيرها على النفس والسلوك، وكما ذكرنا قبل قليل، فإن أثر مثل هذه الدراسات متبادل بين النفس والعضو، حيث يؤثر كل واحد فى الآخر، فلا يعرف بالضبط أيهما كان أثره أسبق لصاحبه، فوجد أن اضطراب كثير من الغدد يحصل فى حالات اضطراب السلوك والحالة النفسية غير المستقرة، وكما تؤثر الغدد فى بناء الشخصية، فإن الشخصية تؤثر فى وظائف الغدد تأثيرا دائما مزمنا،

(١) سورة الإسراء ـ من الآية (٢٥).
(٢) سورة الشمس ـ الآيتان (٧ و ٨).

حيث اتضح أن التوتر والانفعال المستمر يؤدى إلى تضخم الغدة الدرقية وزيادة إفرازها، وأن الهبوط النفسى المتواصل يؤدى إلى فتور فى نشاط هذه الغدة وقلة إفرازها[1].

كما يستمد علم النفس العام دراساته حول النفس الإنسانية من البيئة المحيطة بالشخصية المراد دراستها، وهذا فى حد ذاته أمر طيب يجب أن يأخذه الباحث والدارس للأشخاص فى حسبانه، لما للبيئة من تأثير، ولكن الاعتماد عليه من أجل إعطاء نتيجة قاطعة حسب مواصفات البحث العلمى، أمر فى غاية الخطورة والتضليل، إذ أن تأثير البيئة على النفس يمكن أن يتغير ويتعدل فى كل وقت ولحظة، كما أنه يختلف من وقت لآخر، حسب المؤثرات الواقعة على الشخص، وحسب قوة المؤثر نفسه، هذا مع قابلية الشخص للتأثير، فالتأثير البيئى لا نعترض عليه، إذ أنّ علم نفس الدعوة يأخذ به أيضا، ولكن بعد الدراسة القرآنية والسنية عن النفس، بل وفى ضوئها وعلى منهجها.

ولكن علم النفس العام يستمد من البيئة استمدادا مصدريا، ويعول عليها تعويلا كاملا لتقويم السلوك النفسى البشرى...

ب ـ علم النفس العام يؤسس دراساته عن النفس من خلال السلوكية الخارجية والملاحظة الأولية العامة للظاهرة السلوكية للأفراد، وسير حياتهم المعيشية والاجتماعية على اختلاف المدارس النفسية فى ذلك، فمنها ما تركز على المؤثرات الاقتصادية مثل المدارس الشرقية الشيوعية التى تعول كثيرا على العوامل الاقتصادية والطبقية، فَتُقَوِّم السلوك النفسى على أساس الاقتصاد، من الفقر والغنى، ضاربة بالنواحى العقدية عرض الحائط، وهى ذات أثر كبير ودلالة قوية على النفس.

---

(١) انظر: أصول علم النفس، د/ أحمد عزت. ص ٤٢١.

أما المدارس الغربية المادية فهى أنواع فى ذلك: فمنها ما تركز على الدراسات الجنسية لتفسير العوامل النفسية، ومنها التى تعتمد المؤثرات الاجتماعية الأخرى المتعددة. . .

أما علم نفس الدعوة، فيركز على دراسة دواخل النفس وأسرارها الخفية التى لا يمكن أن تعرف إلا من خلال خالق النفس، حيث شرح أحوالها فى القرآن الكريم، وإن كان ذلك فى عموميات النفس الإنسانية كلها، ولكن الناظر فى القرآن يجده قد وضع أسسا منضبطة ورصينة لكل أنواع النفوس البشرية فى تنوع عام لا تخرج عنه نفس أى فرد من الناس.

حيث قسم القرآن النفوس الإنسانية إلى صفات عامة وأعطى لها مواصفات منتظمة يمكن لدارس النفس أن يسير عليها بكل ثقة ودقة، حسب ما أعطاه الله من علم، ووفق تلك المواصفات القرآنية المتقنة، كما أتقن الله، تعالى، الكون الآخر وجعله منضبطا يسير بنظام لا يتغير، مما أمكن الباحثين أن يدرسوه دارسة منضبطة بآلاتهم: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[1].

فمثلا، أعطى القرآن وصفا دقيقا لنفسية المنافقين لا يخطئها الدارس إن سار حسب الوصف القرآنى لها، واستعمل فى دراسته معطيات العلم الحديث لتعينه على ذلك ولتعطى نتائج طيبة مثل أجهزة الحاسوب (الكومبيوتر) فما عليه إلا أن يضع أوصاف المنافق ـ مثلا ـ داخله ثم يطلب منه إن كانت الشخصية التى أمامه تنطبق عليها تلك الأوصاف أم لا، وهنا يكون قد سار على المنهج القرآنى. وهذه جملة من صفاتهم التى يمكن أن تقوم الدراسة على أسسها:

١ ـ التردد والتهيب، فهم مترددون، هيابون، يقدمون رجلا ويؤخرون

(١) سورة النمل ـ من الآية (٨٨).

أخرى، فنفوسهم هيابة غير مقدامة: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ... ﴾(١).

وهكذا يخبر الله بهم رسوله، وبالتالى عامة المسلمين بأنهم لا صدق لهم، ولا عهد لهم ولا ذمة لهم، وبالتالى لا يمكن تصديقهم، فهم لا يخرجون مع المسلمين لقتال ولا لمصلحة راجحة تهم المسلمين، ذلك لاستيلاء النفس الحيرى المترددة عليهم، وإن خرجوا فسيكون خروجهم لتثبيط الهمم والتخذيل، كما فعل عبدالله بن أُبَىٍّ بن سلول حين خرج مع المسلمين بجيشه ثم رجع به بعد أن تجاوز الجيش المدينة لتخذيل المسلمين وتوهين عزيمتهم، فوصفهم الله بقوله:

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ... ﴾(٢).

٢ ـ ومن لوازم أوصافهم، الخداع والمراوغة:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٣).

فهم يخادعون حتى فى الإسلام والإيمان، ويزعمون أنهم على الإسلام

---

(١) سورة النساء ـ من الآية (١٤٣).

(٢) سورة التوبة ـ الآيات (٤٤ و ٤٥ و ٤٦ وصدر الآية: ٤٧).

(٣) سورة النساء ـ الآية (١٤٢).

والإيمان، ولكن يظهر ذلك فى سلوكهم وأعمالهم وتثاقلهم فى العبادات، حتى إن الصحابة قد درسوا تلك النفسيات وأصبحوا يعرفون المنافق من كثرة ما ذكر القرآن من صفاتهم، حتى كانوا يرون أن الذى يتأخر عن صلاتى العشاء الآخرة والفجر من المنافقين، وقالوا: كنا نرى أنه لا يتأخر عنهما إلا منافق بَيِّنُ النفاق، (قال عبدالله: لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد عُلم نفاقه أو مريض، إن كان المريض ليمشى بين رجلين حتى تأتى الصلاة... الخ)[1]. ويقول الله، تعالى، فى نفاقهم الإيمانى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[2].

ويقول عنهم:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[3].

٣ ـ ومن صفاتهم الخوف والاضطراب، فهم دائما فى حذر وترقب لأن نفوسهم مريضة تتوقع الشر دائما ويخافون أن تأتى الحقيقة فتكشفهم وتظهر عوراتهم التى يخادعون بها، فإن الله يكشفها لرسوله، ويكشفها للمؤمنين بعد ذلك عن طريق دراسة أوصافهم فى القرآن:

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[4].

(١) مسلم ـ كتاب المساجد، فضل صلاة الجماعة ـ شرح النووى ٥/ ١٥٦، ابن ماجه، ١/ ٢٥٤، المساجد.

(٢) سورة البقرة ـ الآيتان (٨ و ٩).

(٣) سورة البقرة ـ الآية (١٤).

(٤) سورة التوبة ـ الآية (٦٤).

٤ ـ ومن أبرز صفاتهم الملازمة لهم ملازمة ظلهم، ومن أخطرها صفة الكذب، فهم أبدا يكذبون ويصرون عليه، حتى يكاد الناس يصدقونهم، ولكن المؤمن بحاسته الإيمانية وفراسته يكشفهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]. ويؤكد الله كذبهم، منبها عليهم بقوله، تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[2].

٥ ـ ولما كان شأنهم ودأبهم الخداع والمراوغة، لم يكن لهم علم ولا فقه دقيق، ولكنها حيل وتلافيق يشغلون بها الناس، مما يطلونها به من طلاء براق يجذب الأنظار، كله خداع وليس وراءه من الحقيقة من شيء، وإن نجحوا ـ ولو لحين ـ لخداع أصحاب النظر السطحى أو أرباب الخبرة القليلة بالقرآن الكريم، أما فى واقع الأمر فإنك لن تجد عند المنافق من علم ولا فقه.

﴿... وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[3].

﴿... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[5].

ويبدو أن عدم استقرارهم النفسى شل فكرهم ومحق فقههم، فهم دائما مشغولون بحياكة المكائد وتدبير المصائد لغيرهم، وليس لهم وقت للتفكير والتدبر واستعمال العقل الذى هو مناط الفقه والدراية والعلم، ولا يطلبون تثبتا ولا برهانا؛ لأنهم لاهثون فى دوران مستمر لا تنقطع حلقاته.

(١) سورة الأحزاب ـ الآية (١٢).
(٢) سورة المنافقون ـ الآية (١).
(٣) سورة المنافقون ـ من الآية (٧).
(٤) سورة المنافقون ـ من الآية (٨).
(٥) سورة المنافقون ـ الآية (٣).

وهذا النوع من أمراض النفس لا يتوصل إليه علم النفس العام؛ لأنه ليس من شأن البشر معرفته بآلاتهم الحسية فقط، وهذا معنى قولنا السابق: إن علم نفس الدعوة يدرس دواخل النفس ليستدل بذلك على السلوك الخارجى، وهو من الفروق الرئيسة البينة بين العلمين.

جـ - يقوم علم النفس العام فى دراسته للنفس الإنسانية على تقسيم تلك الدراسات والأبحاث إلى وحدات وأجزاء، يدرس كل جزء على حدة، ثم تجمع تلك الدراسة المجزأة؛ ليُستَخلَص منها قانون تَسِير عليه دراسات النفس الإنسانية وسلوكها.

فلم تكن معظم مدارس علم النفس تدرس الإنسان باعتباره وحدة متكاملة، ولكنهم يدرسونه تحت تأثيرات مختلفة ومتفككة بعضها عن بعض، ثم يحاولون ربطها من بعد ذلك، أى من بعد دراسة كل جزء منفرداً وإخراج نتيجة دراسته، وهذا لا يعطى نتائج للكل.

ولهذا فقد صرخ بعضهم قائلا: (... إننا لا نفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة... إننا استطعنا أن نفهم جوانب فقط من أنفسنا... وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب؛ لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة... فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب...

ثم يعرج على الحضارة المادية وما أنتجته فى مضمار الماديات وما لم تستطع به أن تنفع الإنسان النفع المطلوب؛ لقصور فهمها للإنسان، فيقول محللا ذلك تحليل الخبير بأدواء قومه:

... إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب؛ لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بجهودنا فإنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا... وهؤلاء النظريون يبنون حضارتهم بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان فإنها تلائم فقط صورة غير متكاملة أو مهوشة للإنسان.. (.. يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شئ[1] لكن الواقع عكس ذلك، فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه؛ لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته، ومن ثَمَّ فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية، إننا قوم تعساء؛ لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا...)[2].

ولقد حرصت على نقل تلك الفقرات المطولة لفائدتها للقارئ؛ لأنها من خبير بأدواء قومه، وما هم عليه، والاعتراف سيد الأدلة، فلقد شهد بأن مدارس علم النفس لم تدرس الإنسان كوحدة وكيان متحد لا يمكن تجزئته.

إن المعرفة بالإنسان معرفة بدقائق معظم أو بعض الكائنات والعوالم الأخرى والجهل به جهل بها أو بمعظمها، وهذا ما أكده قبل حوالى سبعة قرون العالم الجليل ابن قَيِّم الجوزية حين قال:

(إنه ـ سبحانه ـ جمع ما فرقه فى العالم فى آدم، فهو العالَم الصغير، وفيه ما فى العالَم الكبير... إنه خلاصة الوجود وثمرته...)[3].

---

(١) يعنى أن الإنسان ينبغى أن يكون مقياسا للآلة المادية، وليست الآلة المادية هى التى تكون مقياسا للإنسان، تقيس شعوره وأحاسيسه ونفسياته.

(٢) الجمل التى بين الأقواس مأخوذة من: الإنسان ذلك المجهول ـ للدكتور ألكسيس كاريل، وهو عالم مثقف ومطلع على علوم كثيرة ومنوعة وعالم بارع، الكتاب من تعريب: شفيق أسعد فريد، نشر مكتبة المعارف ـ بيروت ـ لبنان.

(٣) انظر: الفوائد، لابن قيم الجوزية ص ٥٨، نشر المكتبة القيمة بالقاهرة.

وهناك خطأ آخر وقعت فيه تلك المدارس النفسية، وهو أنها لم تدرس (النفس الإنسانية قط، موصولة بالله خالقها ومحركها، ومودع ما فيها من طاقات، مع أنهم درسوها فى مجالات مختلفة، وليس من بينها جميعا تأثير الإرادة الإلهية فى حياة الإنسان.

(... فمرة يدرس الإنسان تحت التأثير الجغرافى والمناخى والبيئى والمادى، ومرة تحت التأثير الاجتماعى، ولكنه لم يدرس مرة واحدة متأثرا بقَدَرِ الله الذى يقرر مصير كل شىء، بما فى ذلك مصير الإنسان، ونشأ من ذلك خطأ فادح. فهذه المذاهب والنظريات كلها تغفل من حسابها توجه النفس البشرية توجها فطريا إلى خالقها، واستمدادها منه مكونات حياتها كلها، وقوانين حركتها، ومجالات تحركها، هذا الإغفال المتعمد يحدث تشويشا فى الصورة المرسومة للإنسان، فتارة يرسم كأنه يقوم فى هذا الكون وحده، وكأنه هو الإله، وتارة يرسم عبدا للآلهة المزعومة، آلهة الاقتصاد والاجتماع والمادة، وتارة يرسم كأنما المحرك له هو الأفعال المنعكسة، أو الجنس... أو الكيمياويات، أو الميكانيكا الجسمية...)[1].

أما علم نفس الدعوة، فإنه يدرس الإنسان فى كيان واحد لا يتجزأ ووحدة من أجزاء مترابطة يكمل بعضها بعضا فلا تستغنى النفس عن الأعضاء، ولا يستغنى الجسم عن أى جهاز من أجهزته، بل ولا جزىء صغير من خلية من خلاياه.

فالإنسان كيان واحد نفسه وروحه وجسده وعواطفه وانفعالاته وسكونه وسلوكه وهدفه وغايته، غضبه وفرحه، صحته وعافيته. لا يمكن أن يدرس فى أجزاء ثم تجمع، فهذا منهج لن يؤدى إلى معرفة النفس الإنسانية بحال،

(١) الجمل بين الأقواس مقتطفة من كتاب: دراسات فى النفس الإنسانية، ص ٢٥ ـ ٢٦، لمحمد قطب، طبع دار الشروق، ط ٦ (١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣).

هذا، ومع هذه الوحدة لابد أن نأخذ فى الحسبان المؤثرات الأخرى الخارجية مثل البيئة والطبيعة المحيطة والحالة الاقتصادية والاجتماعية، ولكن كلها فى ظلال الإنسان البشر الموحد الكيان، ثم الإنسان المخلوق لله تعالى، الذى يسير بقَدَره ويجرى عليه قضاؤه، وتدرس فيه الفطرة الإيمانية (الكامنة) وإن أخفتها المؤثرات الخارجية، فيجب أن تثار وتنبش، إن كان يراد معرفة كوامن النفوس ودواخلها. . . ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾[1].

د ـ من الفوارق البارزة بين علم النفس العام (الغربى والشيوعى) وعلم نفس الدعوة، أن الأول يدرس النفس الإنسانية ويحللها تحت وطأة المادة، أى ينظر للإنسان نظرة مادية، مركبة من عضويات مادية، ويرى أنه يجب أن تدرس النفس من خلال تلك الأعضاء والأجهزة المادية ـ كما أشرنا إلى أثر الغدد الصم على النفس ـ خاصة المدارس التى تأخذ بنظريات العلوم الحديثة (الفيسيولوجية والبيولوجية) التى تدرس وظائف الأعضاء.

وخير ما يمثل ذلك الاتجاه المدرسة السلوكية، خاصة بعد مجىء (واطسون) الذى حرص على التعامل مع النفس البشرية من الناحية المادية فقط، وكان يصر على القول بأن (علم النفس، كما يراه السلوكى، فرع موضوعى وتجريبى محض من فروع العلوم الطبيعية. ويبدو أن الوقت قد حان ليتخلص علم النفس من كل إشارة إلى الشعور ومن ملاحظة الحالات النفسية. إن من الممكن كتابة علم النفس دون الإشارة إلى (الشعور) و(الحالات النفسية و (فحوى الخبرة) و (الإرادة) و (التصور) وما إلى ذلك.

(١) سورة الأعراف ـ الآية (١٧٢)

إن من الممكن كتابته ضمن حدود (المثير والاستجابة) و (تكوين العادات) و(تكامل العادات) وما يشبه ذلك. . .)[1].

وهذا تصور خاطئ وقعت فيه مدارس علم النفس، حيث تصورت النفس الإنسانية تصورا ماديا ودرستها دراسة جسدية كما يدرسها علم وظائف الأعضاء (الفيسيولجى) وعلم الأحياء (البيولوجى).

ولا يمكن تفسير النفس الإنسانية فى حدود المثير، كما زعم واطسون، (إذ كيف نفسر (الحب) مثلا عن طريق المثيرات والاستجابات الشَّرطية المنعكسة؟ إن طبيعة السلوك المعقد لا تسمح بمثل هذه التجزئة الشديدة، فالتفاعل بين العوامل الجسمية والنفسية والاجتماعية والحضارية والروحية لإنتاج مركب السلوك الإنسانى لا ولن تكون ببساطة التفاعل بين (الهيدروجين والأكسجين والكربون) لإنتاج مركب سكر الجلوكوز، كما يحدث فى عملية التمثيل الضوئى عندما يستخدم النبات الطاقة الشمسية لإنتاج السكر من الماء وثانى أكسيد الكربون. . .

إذنْ فَلِكَىْ يكون علم النفس علما تجريبيا، كما يتصور السلوكيون، فقد أفرغ الإنسان من شعوره ومحتواه العقلى والفكرى المعقد كما أفرغوه من قبل من محتواه الروحى، وفى ذلك يقول العالم البريطانى المشهور (سيرل بيرت هازلا): إن علم النفس الحديث قد فقد روحه ثم فقد عقله ثم فقد شعوره)[2].

وقد دحضنا ذلك فيما نقلناه عن (ألكسيس كاريل)، فعامل الإنسان معاملة

---

(١) انظر: مدارس علم النفس ص ٩٢، د/ فاخر عاقل، نقلا عن كتاب واطسون: مدخل إلى علم النفس المقارن المنشور عام (١٩١٤).

(٢) التفكر، ص ١٨، د/ مالك بابكر بدوى ط ١ (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م) دار الوفاء للطباعة والنشر القاهرة.

مادية وهم يدرسون نفسياته وسلوكياته، والسبب أنهم لم تُظهر لهم دراساتهم عن النفس ما كانوا يرومونه منها، ولم يقفوا للنفس على حقيقة (ملموسة)، والقوم ماديون حسيون، وهم عن المعنويات ومكنونات الأسرار بعيدون.

أما علم نفس الدعوة، فإنه نحا نَحْواً آخر، حيث إن منهجه يختلف فى أساسه عن المنهج المادىِ، فنظر فى الإنسان وتكوينه الحقيقى، فوجده ليس بالمادى الخالص، ولا بالروحانى الكامل، وإنما هو مزيج من ذلك كله، روح ومادة، فإذا صفا الإنسان وسمت روحه وتألقت نفسه، صارت ذات شفافية وروحانية سماوية ملائكية، وإذا انحط وخبتْ تلك الجذوة فيه، مال وركن إلى الترابية الطينية، فذبل وهمد...

وإذا تشابك فيه الأمران وتلاقح العنصران المكونان له، غدا إنسانا بدمه وعصبه ولحمه وروحه بَيْنَ بَيْن...

فهو يصفو ويعكر، ويغضب ويرضى، ويحلم ويجهل، ويغفل ويستيقظ، يذنب ثم يئوب فيرجع ويتوب ويتألق... وهكذا ـ دواليك ـ هو الإنسان المزدوج التكوين، المزدوج النفس المتباين الطبائع، المتنوع الغرائز..

وهكذا ينبغى أن يعامل وأن تدرس نفسياته وسلوكياته، هكذا أراد له بارئه، خَلَقه من تراب، ثم نفخ فيه من روحه، أسكنه الجنة، ثم أنزله منها إلى الأرض، إلى جزء أصله إلى نصفه؛ ليكون عليها، ثم يحاول الصعود إلى عالم الروحانيات إلى عالم السمو والرفعة.

والإنسان كما أنه ليس بمادة، كذلك هو ليس بملائكة روحانية مجبولة على شيء واحد: لا خطأ، ولا تخاصم، ولا توبة...

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾[1].

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2].

وهكذا يعالج علم نفس الدعوة الإنسان، وهكذا يتعامل معه فى الدعوة إلى الله، مذكرا إياه بأنه مخلوق لله يجب عليه أن يرجع إلى خالقه طوعا قبل أن يرجع إليه قَسْراً وقهراً، مذكرا إياه أن كل مخلوقات الله سواء، تأتى ربها وتعبده طوعا:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[3].

تلك النظرة التوازنية للإنسان، بين النفخة الروحانية، وبين القبضة الطينية هى التى تعرِّف بالنفس الإنسانية، وتيسر السبيل إلى بعض معرفتها، أما التجزيئية والمادية وإبعادها عن بارئها، فذلك كله لا يصلح ليكون أداة من أدوات البحث عن مكنونات النفس البشرية، ولا عن الروح التى هى من

(١) سورة الحجر ـ الآية (٢٩).

(٢) سورة السجدة ـ الآيات (٧ ـ ٩).

(٣) سورة فصلت ـ الآيات (٩ ـ ١٢).

أسرار الخالق، ومن أمره، ولكن إن اتبعنا ذلك السبيل الناهج، سبيل القرآن فسوف نلتمس لها بعض المعرفة بعلمنا القليل الذى آتانا إياه ربنا ورب كل شىء.

علاقة علم النفس بالدعوة:

العلاقة بين الدعوة وعلم النفس أو الداعى والنفسانى، علاقة وشيجة ومتلازمة فى عمومها، وفى موضوعاتها وفى بعض اهتماماتها، بل فى بعض طرق العلاج والوسائل وإن اختلفا فى الأهداف والغايات أو قُلْ فى بعضها.

والدعوة وثيقة الصلة بعلم النفس فى كل فروعه، خاصة العملية منها، وتدخل فى كل تخصصاته جملة وتفصيلا...

فإذا كان من أهداف علم النفس فهم السلوك البشرى، فهذا ما يصبو إليه الداعى. فهو فى لهف لمعرفة سلوك المدعو، ولماذا فعل هذا؟ ولماذا لم يفعل غيره؟ وكيف فعله؟ وهل له مصلحة فى ذلك؟ وهل المصلحة عامة أم خاصة؟... ثم محاولة التنبؤ بما يؤدى إليه هذا السلوك الصادر من هذا الشخص، ما ضرره أو ما مصلحته...؟

والدعوة تسعى وتعمل على ضبط السلوك، بعد تعديله، والتحكم فيه، بتعهده ورعايته المستمرة للفرد والجماعة، على حد سواء، فى تعاقب مستمر من الدعاة المنتشرين، الثابتين فى نفس المنطقة منهم والمتجولين، وهذه الملاحقة لا تتوافر لعلم النفس؛ لأنه ليس من مهام رجاله متابعة الناس وملاحقتهم.

أما الداعية فهو مأمور دينيا بذلك، وهذا أفضل أنواع الفراسات التأصيلية، حيث يلزم أنْ يتابعها أصحابها حتى يستطيعوا معرفة السلوك وانحرافه ونجاح العلاج، ولتثبيت ما غرسوه، وتعهد الداء؛ لكيلا ينبت مرة أخرى بسبب مؤثرات البيئة.

ولما كان الداعية يهمه أمر الناس جميعا بكل فئاتهم وقطاعاتهم وبمختلف أعمارهم وأجناسهم وألوانهم، ذكوراً وإناثاً وبمختلف مهنهم وحرفهم وصناعاتهم، عوامهم ومتعلميهم . . .

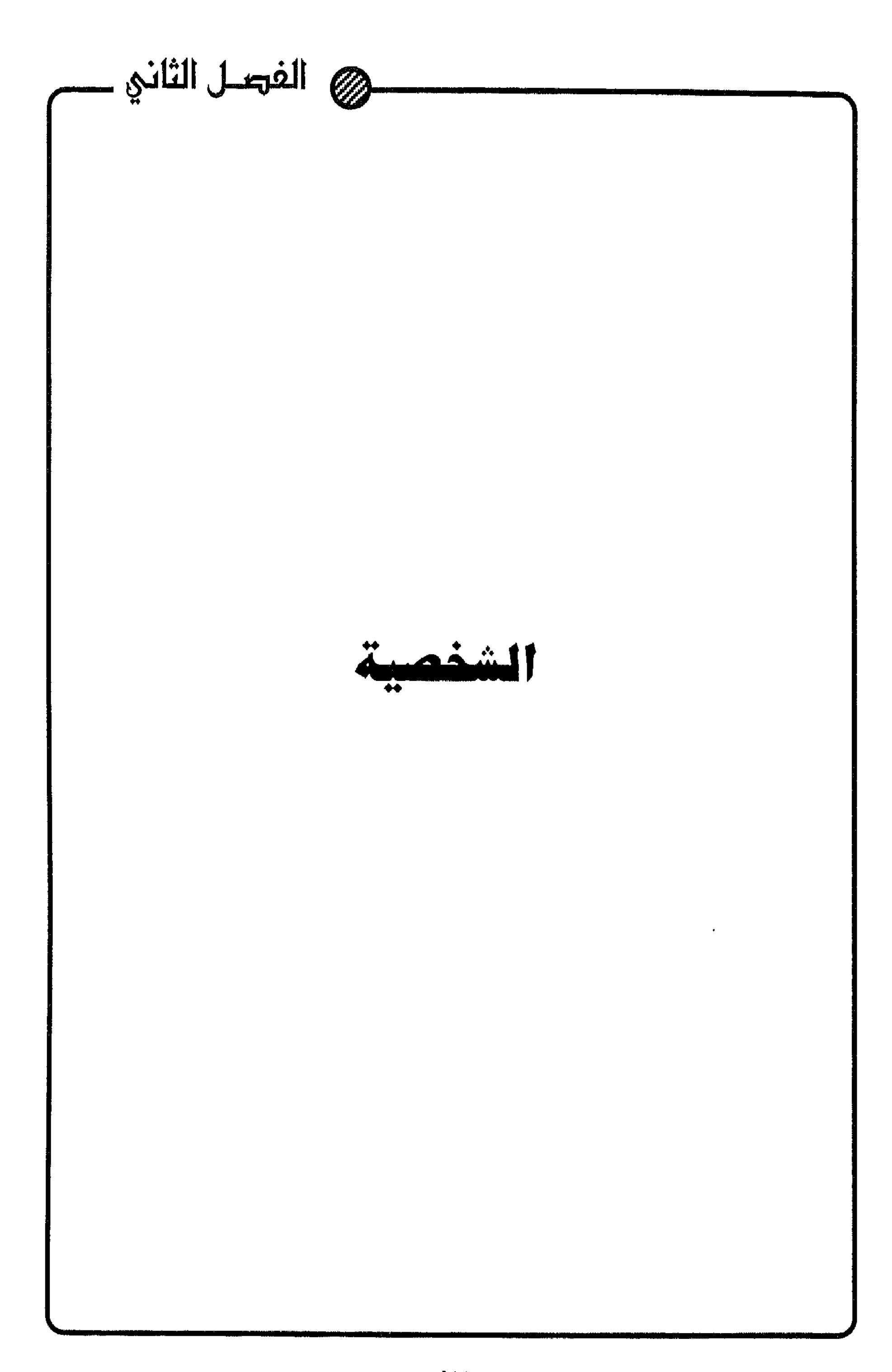
لما كان الداعى يعتنى بذلك كله ويهمه فى الأساس - كان ارتباطه بكل فروع علم النفس، العام، وعلم النفس الفارق، الذى يدرس الفوارق بين الناس وطبقاتهم وتأثير ذلك فى سلوكهم ونفسياتهم، وعلم نفس الشواذ من البشر، ومعرفة سبب ذلك وما أثَّر فيه من عوامل، ثم البحث عن طرق العلاج، سواء أكان الشذوذ سلوكيا أو فكريا أو عقديا . . .

وكذا القول فى بقية فروع علم النفس، مثل علم النفس التجارى والصناعى والجنائى والحربى . . . كل تلك العلوم يحتاج الداعى إلى معرفتها، ففى الدراسة المتعلقة بالتجار، مثلا، يود الداعى أن يعرف ما يدفع التاجر للجشع والاحتكار ورفع الأسعار وإخفاء السلع، ثم نوعية البضاعة المعروضة للمستهلك، وما أثرها عليه، ثم يلى الدراسة والبحث والفحص عملية المتابعة للعلاج وإزالة ما يخالف الدين ويضر بالمجتمع من ذلك كله . . .

وكذا يقال بخصوص الصناعات، حيث يتجه الداعى لمعرفة دوافع الصناع لصنع الصناعات التى تضر بالإنسان، سواء من ناحية سميتها أو كونها أسلحة أو كيمياويات، وكذلك يعمل على توجيه الناس للمفيد من الصناعات والمهن، كل إنسان حسب استعداده ومواهبه وما يمكن أن يجيده من مهارات حسب تركيبه المهنى . . .

ولهذا نقول: إن العلاقة حميمة بين علم النفس والدعوة ومتلازمة، ولكن كل ذلك فيما لا يتعارض مع أسس الإسلام وأصوله وأهدافه وبعد إزالة

الشوائب والمخلفات التى علقت بعلم النفس من البيئة غير الإسلامية التى نبت فيها، وتنقيته تنقية كاملة وإلغاء كل ما لا يتناسب مع البيئة الإسلامية؛ حتى لا يضر بالمجتمع المسلم.



الشخصية

آثرنا الحديث عن الشخصية فى هذا الفصل المبكر، تقديما لها على غيرها من موضوعات الكتاب؛ لما لها من أهمية قصوى فى موضوع بحثنا، حيث يدور حولها مضمون الكتاب ومادته الأساسية، وعنها تتكون بقية شعبه وأقسامه، كما أن الشخصية هى أساس البناء للنفس الإنسانية ومادتها الأصيلة، ويشمل الحديث عنها المباحث التالية:

المبحث الأول
التعريف بالشخصية والعوامل المؤثرة علي تكوينها

المطلب الأول: التعريف الاصطلاحى للشخصية

هناك عدد من التعاريف للشخصية لدى علماء النفس، وجاءت متباينة فى بعض جوانبها، والسبب هو نظرة كل عالم للمفهوم الذى تعنيه الشخصية، فمنهم من نظر إلى الهيكل الخارجى والسمات الظاهرة، فعرَّفها على أساسها، وبعضهم نظر إلى السلوك والانفعال النفسى والاتجاه الخلقى فَنَعَتَ على ذلك، والبعض الآخر عرفها من حيث نظرة الآخرين إليها فقال:

(الشخصية هى ما تتركه صفات الفرد من انطباعات على الآخرين)[1].

وقال آخر هى: (المجموع الكلى لسمات الفرد التى تميزه عن غيره)[2].

وبعد دراسة عميقة ونظرة طويلة للشخصية وما تدل عليه، رأيت أن التعريف الجامع المانع الذى يمكن أن نقيس على أساسه الشخصية ونحكم به عليها، وهذا حسب اجتهادنا ـ هو أن الشخصية هى:

عبارة عن مجموع السمات أو الصفات التى تميز الفرد أو الجماعة عن غيرها سواء أكانت خُلُقية أو خِلْقِيَّة، فِطْرِية أو مكتسبة.

وذكرنا الفرد والجماعة؛ لأن الجماعة عندما تكون وحدة متكاملة تربطها مبادئ وأهداف ومنهج ثقافى أو عقدى أو مصلحة وثيقة ببرنامج خاص ـ تكون ذات صفات متشابهة، ومتماثلة، خاصة فى المظهر والمنهج والسلوك؛ لأن عوامل البيئة والمنهج يؤثران فى الشخصية، كما سنذكر إن شاء الله.

ولهذا فقد ورد فى المثل السائر: من عاشر قوما أربعين يوما صار منهم. والإنسان مدنى بطبعه، كما يقولون، يتأثر بالمحيط الذى حوله، سلبا وإيجابا، فما بالك إذا كان الناس يرتبطون برباط العقيدة والتوجه والمنهج المعرفى، الثقافى والتعليمى والتربوى؟ أفلا يكون ذلك ذا أثر فى المجموعة، مما يجعلها ذات سمات مشتركة ومتشابهة؟

المطلب الثانى: تكوين الشخصية والعوامل المؤثرة فيها

توجد ثلاثة عوامل رئيسة تتضافر كلها، مجتمعة؛ لتكوِّن الشخصية، وإن تفاوت تأثير كل واحد منها عن الآخر، حسب قوته، وما يتاح له من فرص النجاح والتأثير. وتنقسم تلك العوامل إلى:

---

(١) و (٢) انظر: أصول علم النفس، ص ٣٧٩، د/ أحمد عزت راجح، وانظر: السلوك الإنسانى د/ انتصار يونس، ص ٢٩٦، دار المعارف بمصر (١٩٨٤ م).

عوامل داخلية ـ غالبا ما تكون وراثية ـ وعوامل خارجية، وعوامل دينية عقدية، حيث تشكل هذه العوامل شخصية الإنسان.

أولا: العوامل الداخلية

١ ـ العامل الوراثي

العوامل الداخلية المؤثرة فى الشخصية نوعان: نوع لا يمكن للإنسان أن يتدخل فيه بأى نوع من أنواع التأثير؛ لأنه خارج عن مقدور البشر، وليس من اختصاصاته، اللهم إلا من قبيل دراسته ومعرفته، دون المساس بتعديله أو إلغائه وإن حاول بعض العلماء الاقتراب من ذلك، ولكنهم حتى الآن يقفون عنه بمعزل، ذلك هو العامل الوراثى، وهو ذو تأثير بالغ فى تكوين الشخصية، حيث يشمل أثره كل الصفات المكونة للشخصية، سواء أكان ذلك الأثر من ناحية الصفات الخِلْقية أو الخُلُقية، النفسية والعقلية، ويشمل الأول كل الصفات الجسدية والعضوية الداخلية والخارجية.

ولما لهذا العامل الوراثى من أهمية فقد حث الإسلام على الاعتناء به، خاصة عند النكاح فطلب من الإنسان أن يختار ويحسن الاختيار لمن يود معاشرتهم، فحث على تخير الأسر الصالحة وذات الصفات الحميدة، فقال، تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ... ﴾[1].

ولقد حث الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى أحاديث مروية عنه، وفى آثار أخرى، حث على تخير المكان الصالح والمنبت الجيد حتى إذا قدر له أن ينجب كان إنجابه صافى العرق والأصل من جميع النواحى، المرضية والعضوية والنفسية. . .

(١) سورة النور ـ من الآية (٣٢).

فقال، صلى الله عليه وسلم: (إذا خطب من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض)[١]. وجاء فى الأثر الذى يرويه ابن عدى عن أنس: (تزوجوا فى الحُجر الصالح فإن العرق دساس)[٢].

وورد أيضا: (تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم)[٣].

والتكوين الوراثى لا يمكن دفع خطره وتجاوز ضرره إلا باجتنابه من الأساس، إذا عرف، بألا يرتبط المرء بمن يعرف أن فيهم شيئا من ذلك، حيث يمكن أن يؤثر على نسله من بعده، ولعله لهذا السبب نهى الإسلام عن زواج الأقارب، وحث على زواج الأباعد، لما فى الزواج من الأقارب من مخاطر انتقال المورثات التى فى سلالة الأسرة.

٢ - الجهاز العصبى

أما النوع الثانى من العوامل الداخلية المؤثرة على الشخصية، فهو عامل يمكن معالجته ومداواته والتداوى من علله، إذا قدر الله الشفاء منه، خاصة مع تقدم العلوم الطبية التى فتح الله بها على أهل العصور المتأخرة؛ لكثرة المصائب والأمراض عندهم، نسبة لاختلاط الناس وانتقال الأمراض المستوطنة إلى بلدان عديدة بسبب سهولة المواصلات وسرعتها ويسرها.

والغريب أن هذا النوع لا يتعلق بالنفس، بل يتعلق بالجسد، وتركيبه العضوى وتفاعلاته الكيمياوية..

(١) الترمذى - كتاب النكاح رقم (٣)، ٣/ ٣٩٤، وابن ماجه - كتاب النكاح (٤٦).

(٢) رواه ابن عدى فى الكامل فى الضعفاء، ٧/ ٢٥٣٥، وإتحاف السادة المتقين للزبيدى ١/ ٣٤، كنز العمال رقم ٤٤٥٤٩ وكشف الخفاء ومزيل الإلباس للعلجونى ٢/ ٧٧ والمغنى عن الأسفار فى جمل الأسفار للعراقى ٢/ ٤٢.

(٣) رواه ابن ماجه فى كتاب النكاح - حديث (١٩٦٨)، ١/ ٦٣٣، باب (٤) نكاح الأكفاء، رواه الحاكم فى المستدرك، كتاب النكاح، ٢/ ١٦٣، وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ولعل وجه الغرابة يختفى اختفاء النفس ـاتها فى هذا الجسد!! مادام أن النفس تحل فى هذا الجسد، ولا يدرى أحد بالتحديد واليقين أين مكان حلولها فيه، فلا استغراب ولا تعجب إن تحدثنا عن الجسد وما يصيبه من تباريح وآلام وصحة وعافية، وما فيه من أجهزة، ولنقل إن ذلك كله يؤثر على النفس الإنسانية، كما أنها بِدَوْرِها تؤثر عليه..

هذا الجهاز الذى قدمنا له تلك المقدمة والذى يعتبر من أكثر أجزاء الجسم حساسية وإحساسا وتيقظا وانتباها، بل وحيوية وفاعلية، هو الجهاز المصطلح على تسميته بالجهاز العصبى، حيث عن طريقه يتألم الإنسان، بل هو الذى ينقل ويعطى الإحساس بذلك، وهو الذى يوحى للإنسان الشعور بالراحة والصحة والنعيم، وهو الذى ملَّكه خالقه جهاز الإنذار المبكر ضد المخاطر المحدقة بالجسم من كل مكان وفى كل اتجاه.

فإذا كان الإنسان، صنعة الله، قد اكتشف أجهزة الضبط والتحكم (الكهروميكانيكية) فإن الله الذى أبدع صنع عقل الإنسان وهداه ليكتشف هذا الجهاز الآلى ـ قد جعل فى الإنسان جهازا للضبط والتحكم فى حركاته وإحساساته (الميكانيكية) الإرادية وغير الإرادية عن طريق هذا الجهاز العصبى، فسبحان الله الذى صنع كل شىء فأتقنه..

وصلة هذا الجهاز بعلم النفس أو بالأحرى بالنفس البشرية، هو أن الله قد وضع فيه القدرة على الإثارة والتوجيه التلقائى، التى يستجيب لها الإنسان، بالحزن والفرح أو الخوف أو الإقدام أو التراجع. ولقد وضع الله هذه الخاصية ـ خاصية التنبه ـ فى المادة (البروتوبلازمية) وهى أبسط المواد التى يتكون منها جسم الكائن الحى، وتمتاز بقابليتها للإثارة والاندفاع والتغيير، لكل المنبهات الخارجية..

وبفضل ما وضع الله فى الجهاز العصبى فى الإنسان، يستطيع الجسم أن يتفاعل مع بيئته الداخلية والخارجية، فهو يعتبر جهازا اتصاليا يربط بين أعضاء الجسم كلها ـ داخليا ـ وبين البيئة الخارجية عن طريق مراسلين أكفاء ومقتدرين ومدربين تدريبا ممتازا، ينتشرون فى كل أنحاء وحدود الدولة ـ الجسمية ـ الخارجية، وهم المسمون بأعضاء الحس مثل: اليدين، والأذنين، والعينين، واللسان، والجلد... كلها ترتبط بدائرة توجيه مركزية قاعدتها فى المخ، حيث يتم التحكم والتوجيه المركزى من هناك.. فسبحان الله المبدع الخلاق القائل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

(لقد اكتشف علماء النفس حقائق كثيرة عن فعالية الأعصاب، وهذه الحقائق بالغة الأهمية لدراسة علم النفس أو السلوك البشرى، ومن هذه الحقائق، أن العصبونة (الجملة العصبية) تنقل شحنة كهربائية على طول المحور عندما تستثار، وبذلك تثير عصبونات أو غدد وعضلات أخرى)[2]. تؤثر على سلوك الشخص وكل حالته داخليا وخارجيا، وبالتالى تتأثر النفس.

٣ ـ الغدد:

وكما أن للعصب أثره البالغ فى تكوين الشخصية، فإن الغدد عامة والغدد الصماء خاصة لها فاعلية قصوى فى تحوير الشخصية ونمائها، وكما هو معلوم لدى المختصين أن الغدد الصماء عبارة عن (أعضاء أو نسيج تفرز خلاياه مواد كيمياوية تؤدى وظيفة (فسيولوجية) عضوية، ولها أثر كبير على

---

(١) سورة النحل ـ الآية (٧٨).

(٢) علم النفس الفسيولوجى، د/ كاظم والى أغا، ص ٦١، نشر دار الآفاق ـ بيروت ط ١، (١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م).

الحالة المزاجية للفرد، وعلى ذكائه، وكذلك على الصحة الجسمية عامة، وعلى نمو الفرد... وثمة تآرز وتكامل ما بين الجهاز العصبى والجهاز الغُدِّى، أبرز ما يبدوان فيه فى حالات التوتر الانفعالى)[1].

والذى يهمنا هنا، هو أن ما يصيب هذه الغدد من أمراض أو خلل فى وظيفتها، سواء بزيادة هرموناتها التى تفرزها أو بنقص تلك الهرمونات، فإنها فى كل تلك الحالات تسبب اضطرابا فى شخصية الإنسان، وتسبب له عاهة قد تكون مستديمة إن لم تعالج أو لم يمكن علاجها.

وهذا الأثر يتمثل فى أعراض كثيرة، منها على سبيل المثال:

القلق والتوتر النفسى المستمر، أو بطء النمو، مثل قصر القامة الشديد المؤثر أو ما يسمى بالقماءة، أو الطول المفرط الزائد عن الحد المناسب...

فمثلا الغدة الدرقية ذات صلة قوية ووثيقة بعمليات (الأيض) (التمثيل الغذائى) وهى العمليات التى يتم فيها التحول الغذائى داخل الجسم أو عمليات الهدم والبناء.

ولإفرازها الهرمونى حالتان، كلتاهما ضارة، ففى حالة زيادته تكون الغدة فى حالة حيوية ونشاط زائد، مما يتسبب للشخص فى حالة هيجان واضطراب عام وعدم استقرار، ويزداد التوتر العصبى والأرق والنحافة وارتعاش الأطراف وجحوظ العينين...

وهذا كله يؤثر على السلوك الشخصى للإنسان ويؤثر على إنتاجه وأدائه فى المجتمع وإبطال أو تعطيل الدور المنوط به..

أما فى حالة نقصان الإفراز فيصاب الإنسان بأمراض مزمنة، لا سيما إذا

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٣.

كان ذلك فى حالة الطفولة، حيث يتوقف النمو العادى، ويصاب الشخص بقصر القامة الشديد المخل، وإن كان كبيرا يصاب بأمراض منها مرض الاستسقاء، حيث يصاب المريض به بالوهن والتعب السريع والتخلف الذهنى والعزوف عن العمل. . .[1].

وكذا الحديث فى بقية الغدد الصماء التى سماها بعض العلماء بغدد الشخصية، نسبة لعلاقتها الوثيقة بسلوك الإنسان وتأثيرها فيه.

وليس مجالنا فى هذا الكتاب الحديث عنها بتوسع، ولا التعريف بخصائصها، وإنما القصد هنا، الإشارة إلى أثر العوامل الداخلية فى جسم الإنسان وأن لها أثرا على الشخصية بما تخلفه من أمراض أو عاهات أو أشكال خارجية تؤثر على نفسية الإنسان وسلوكه.

فإذا عرف الداعى أسباب دوافع بعض المدعوين التى تعوق العمل الدعوى أو تصدهم عن قبول الدعوة أو تحريض الآخرين وتنفيرهم منها، وعن طريق دراسته وملاحظاته الخاصة تَوَصَّل إلى أن هؤلاء الأشخاص مصابون بقصور فى بعض تلك الأجهزة، سوْاء كان طريق معرفته الملاحظة ثم العرض على الطبيب المختص أو كان التعرف عن طريق آخر استعان به فأرشده إلى ذلك، فالمهم هو أن يعرف أحوال مدعويه النفسية وسبب سلوكهم المعين والذى لا يرغب فيه، ثم يبدأ بالعلاج حسب ما يظهر له بعد التشخيص، وهذا بعض ما يمكن أن يستفيده الداعى من دراسة بعض هذه العلوم المتعلقة بشخصية المدعو، حيث إنه مطلوب ـ وبإلحاح ـ من الدعاة أن يكونوا على قدر كبير من العلم والدراية بكل ما يؤثر على عملهم الدعوى وما يمكن أن يشكل عقبة فى طريقه، وكذا التعرف على كل ما يمكن أن يعينهم ويساعدهم فيه،

---

(١) للتوسع انظر: أصول علم النفس، ص ٤٢٠، د/ احمد عزت، وعلم النفس الفسيولوجى ص ١٢٠، كاظم والى أغا.

لا سيما أن متطلبات عصرنا تغيرت كثيرا عن متطلبات الحقبة الماضية، حيث كانت الحياة سهلة وميسرة، والأمور ليس فيها تعقيد، والناس على قدر كبير من البساطة في كل أمورهم وحاجاتهم، من حيث المركب والملبس والعيش، أما الآن فقد اضطربت الأمور، واختلط بعضها ببعض، وتدخل بعض الناس فى بعضهم؛ بسبب سهولة المواصلات وسرعة الانتقال من بلد إلى آخر، مما جلب معه كثيرا من التعقيدات الحياتية، وأنواعا من الأفكار والمعتقدات، وكذا الأمراض المتنوعة المسببة للعقد النفسية؛ ولهذا نشط العلماء والباحثون فى أسباب ذلك، ومحاولاتهم مستمرة لاكتشاف سبل العلاج، ولهذا فقد تنوعت العلوم وتفرع بعضها عن بعض؛ لتكون متخصصة فى دقائق تلك الأمراض وعلاجها، وبالتالى فقد تيسرت المعرفة وسهل طريقها، فلزم الدعاة الاجتهاد فى الاطلاع على ما يخصهم بما يفيدهم فى الدعوة إلى الله، ومن أهم ذلك العلوم التى تعالج أحوال الناس، وتحاول تفسير سلوكهم، لِمَ يفعلون هذا؟ ولِمَ يتركون ذاك؟ مستعينا على ذلك كله بمصادر الإسلام الصحيحة.

ثانيا: العوامل الخارجية

هذا هو العامل الثانى المؤثر فى تكوين الشخصية وتعديلها، وهو عامل متشابك ومتداخل الأطراف المؤثرة على الشخصية، فهو مثل الشجرة المتكاملة الغذاء من حيث الرى وعناصر التربة الصالحة لنموها، فتنمو وتكبر وتتشابك أغصانها، وتورق، وتثمر ثمارها، ويلتف بعضها حول بعض...

هذا العامل الذى مثلنا له بالشجرة هو:

البيئة:

وهى عامل يدخل وينضوى تحته عدة عوامل متفرعة عنه، يجمعها اسم البيئة، وسنوجز الحديث عن تلك الأفرع فى تلخيص موجز للدلالة على أثره

فى تكوين الشخصية، ولكى يستفيد الدعاة من التعرف على أثر تلك العوامل المتشابكة المتشابهة على مدعويهم.

وهذه العوامل إجمالا:

أ ـ الأسرة.

ب ـ المحيط الثقافى الواسع فى البيئة، ويشمل:

١ ـ الجيران.

٢ ـ الأصدقاء.

٣ ـ المدرسة.

٤ ـ الثقافة المعرفية الأخرى، مثل:

ـ التلفاز.

ـ الإذاعة.

ـ السينما.

ـ الكتب.

ـ المجلات والجرائد.

جـ ـ العوامل المناخية، وتشمل:

١ ـ طبيعة البيئة من حيث التضاريس: سهول، جبال وصحراء.

٢ ـ طبيعة البيئة من حيث الطفس: حار، بارد، ممطر وجاف.

د ـ البيئة المهنية وتشمل:

١ ـ البيئة الصناعية وأثرها على الشخصية والنفس والسلوك.

٢ ـ البيئة الزراعية وأثرها على الشخصية والنفس والسلوك.

٣ ـ البيئة الرعوية وأثرها على الشخصية والنفس والسلوك.

١ ـ أثر المحيط الأسرى فى تكوين الشخصية:

الأسرة تتشكل من أربعة أفراد أو مجموعات، وهم:

الأب والأم والإخوان الذكور والأخوات الإناث.... وكل واحد من هؤلاء له أثر فى تكوين وتنمية الشخصية، وكل واحد يؤثر فى شخصية الآخر، وخاصة الإخوان فى مجموعهم، ذكورا وإناثا، وربما يكون الأثر جماعيا مثلما هو فردى.

وتعتبر الأسرة هى الجماعة الأولى التى يتصل بها الشخص، ويكتسب عن طريقها سلوكه ومعاييره الأخلاقية وقيمه الاجتماعية وفكره المستقبلى، بل وعقيدته الدينية...

ويتأثر الطفل ـ وهو أول الشخصية ـ بالحالة التى عليها الأسرة، والتى نجملها فى الأسئلة التالية، ثم نعقب عليها بإيجاز مستنتجين أثر كل حالة فى الأسرة على الشخصية:

١ ـ هل الأسرة عامية أو متعلمة؟ كلها أو بعضها؟

٢ ـ هل هى متدينة أو لا؟ وإذا كانت متدينة فهل هى متمسكة؟

٣ ـ هل لها تقاليد وأعراف تحافظ عليها وتعتز بها؟

٤ ـ هل تُعْنَى بالتربية أو تترك الطفل هو وشأنه؟

٥ ـ ما الحالة الاقتصادية للأسرة: أَغَنِيّة مترفة أم فقيرة معدمة؟

وفيما يتعلق بالنقطة الأولى، يتلخص أثرها على الشخصية فى أن الأسرة

المتعلمة تحاول أن تنمى فى أطفالها قِيَماً بعينها، خاصة القيم التى تؤمن بها، وتحاول غرسها فى مخيلته وتنشئته عليها، وتعليمه إياها، إضافة إلى عنايتها بتعليمه ومراعاة سلوكه خارج المنزل والاهتمام به (أكاديميا) وتربويا، ولو لمجرد المكسب المادى الذى يعود عليه وعلى الأسرة مستقبلا.

أما الأسرة العامية فإن عنايتها بالتربية ـ وكذا بالتعليم ـ ضعيفة أو معدومة نسبة لفقدها لذلك، حيث لا تستطيع أن تنظر فى ضعف الابن من الناحية التعليمية وربما اكتفوا بأن يحثوه على القراءة فقط دون التوجيه التعليمى الفعلى، وأنهم يفقدون إعطاءه القيم والمعايير التعليمية الإرشادية المكتوبة أو تصحيح أخطائه فى ذلك، وبهذا تفقد مثل هذه الأسرة مبادرة القيادة لشخصياتها، فتعتمد الشخصية على المحيط الخارجى مثل الأصدقاء...

أما النقطة الثانية، وهى تَدَيُّنُ الأسرة وعدمه. فإن لذلك الأثر الأكبر فى تكوين الشخصية فإن كانت الأسرة غير متدينة وهى متعلمة فإن أثرها على شخصية الناشئ يكون بابتعاده عن كل ما له صلة بالدين، وبهذا تتشكل شخصيته، إلا إذا وَجَدَ مؤثرا آخر فى الخارج، وكان أثره أقوى من أثر تلك الأسرة.

وبمثل هذه الأسرة يتأثر الطفل، فإذا كان الأب يدخن أو يشرب الخمر أو يقامر أو يتعاطى الحرام... فإن الأبناء يتأثرون به، ويحاولون أن يحذوا حذوه، حتى ولو كان ينهاهم عن ذلك أو عن تقليده فإن نهيه لا يفيد لاقتدائهم به عمليا، فالأطفال يتأثرون بالمحاكاة العملية ويميلون إليها أكثر من القول.

أما إذا كانت هذه الأسرة غير المتدينة غير متعلمة فإن أثرها على الطفل وفى تكوين شخصيته يكون أقل من الأولى؛ لعدم تركيزها على المفاهيم

والقيم المعيارية عن طريق التعليم، خاصة عندما يكبر الطفل فإن اكتسابه للمعارف يكون عن طريق المحيط الخارجى.

أما الأسرة ذات الدين فهى إما أن يكون تدينها فى نفسها وسلوكها، ولا تحاول غرسه فى أطفالها وحملهم عليه، أو أن تكون ذات مبادئ تسعى لبذرها فى ناشئتها وأخذهم بها، فإن كانت الأولى فإن شخصية الطفل تتأثر بها فى الصغر وربما انحرفت عن ذلك عند اتصالها بالمؤثرات الخارجية، كما أنها لا تقوى على مقاومة المؤثر الخارجى؛ لأنها لم تعلم وتمرن على تلك القيم الأسرية، إلا إذا كان المحيط الخارجى يتسم بالصلاح ففى هذه الحالة يكون الأثر له هو وليس للأسرة.

أما فى الحالة الثانية فإن الشخصية تستمر فى اكتساب قيمها من الأسرة، وتأخذ صفة الاستمرارية والمحافظة والمقاومة للمؤثرات الخارجية، ذلك لأثر التركيز القوى من الأسرة ومحاولتها المستمرة لغرس قيمها فى شخصيات أطفالها وتعهدها لهم شرحا ودرسا وتعليما وتربية، وهذا هو المطلوب من الدعاة دراسته والعناية به وتعميقه فى أذهان المدعوين.

ولما للأسرة من أهمية بالغة فى تكوين الشخصيات، فقد أولاها الإسلام العناية التى تستحقها، فأوصى الأب بأن يحسن اختيار الزوجة، ويتعهدها بالتربية والتعليم وتهذيب السلوك وأخذها إلى الحق وترغيبها فيما عند الله بالحسنى وجعلها تقف على ذلك بنفسها بإعطائها وتعليمها ما يعينها على ذلك؛ حتى تكون اللبنة التى يكتمل بها بنيان الأسرة، فقد قال، تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾[1]. وقال،

(١) سورة النور ـ من الآية (٣٢).

صلى الله عليه وسلم: (تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك)[1].

وقال حاثا على عدم رد الشخص الصالح من الزواج:

(إذا خطب من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض)[2].

ثم بعد ذلك أمر الآباء بحسن تربية الأبناء وأن يوصوهم ويبصروهم بطريق الخير وهداية الصراط المستقيم، ويهدوهم إلى السلوك القويم والمنهج السليم؛ ولهذا قص علينا القرآن وصية لقمان لابنه فى قوله، تعالى، على لسانه يوصى ابنه بإعلان التوحيد الخالص ونفى الشريك لربه الخالق: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

ثم علمه كيف يستنتج ويستدل على وجود خالقه من خلال النظر إلى مخلوقاته، ولَفَتَ نظره إلى دقائق علم الله: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[4].

(١) متفق عليه، البخارى: كتاب النكاح (١٥) باب الأكفاء فى الدين ـ الفتح ٩/ ١٣١، ومسلم: كتاب الرضاع حديث (٥٣)، والمسند ٢/ ٤٢٨، والترمذى كتاب النكاح باب (٤) ٣/ ٣٩٦، والدرامى: كتاب النكاح ـ باب تنكح المرأة لأربع ٢/ ١٣٣ ورواه بقية أصحاب السنن.

(٢) سبق تخريجه ـ انظر ص ١٠٠ من هذا الكتاب.

(٣) سورة لقمان ـ الآية (١٣).

(٤) سورة لقمان ـ الآيات (١٦ ـ ١٩).

هذه الآيات الموجزة تضمنت كل مجالات السلوك الحميد التى تجعل من المرء شخصية ذات اعتبار وقيمة ونهت عن كل سلوك مذموم يحط من قدر الإنسان ويجعله شخصية تزرى بالإنسان المكرم على كل المخلوقات، وتضمنت أسس وضوابط التربية المثلى للأبناء التى تجعلهم صالحين نافعين لمجتمعهم، كما أعطت إشارات للنفسية المهذبة الهادئة المطمئنة وشملت (سايكولوجية) النفس والسلوك على حد سواء.

والأسرة إذا كانت تعتز بتقاليدها وأعرافها، فإننا نجدها تعتنى بالتربية على أسس ومبادئ تلك الأعراف، وتحاول تنشئة أطفالها وفقا لها، فترتسم شخصيتها فى شخصية الأطفال، سواء أكانت تلك الأعراف حميدة أو غير ذلك.

وعلى العكس منها الأسرة الأخرى التى لا تهتم بالموروثات القديمة، فإنها تهمل تربية أبنائها، وتتركهم وشأنهم يشبون على أثر الشارع والمدرسة والوسط العام..

ولقد حرر الإسلام الناشئة من الأثر السيئ للوالدين، وبذر فيهم بذور قوة الشخصية، ولقنهم بالجرعات الواقية ضد عدوى الآباء إذا كانت شخصياتهم غير سوية ومنهجهم غير مستقيم، حتى ولو كانا يتمتعان بشخصية قوية ومؤثرة، وحاولا جهدهما صرفهم عن الجادة فقال، تعالى:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

(١) سورة لقمان ـ الآية (١٥).

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يوجه بنفس الطريقة ويعمم ذلك للفائدة القصوى:

(لا طاعة لمن لم يطع الله، عز وجل)[1].

أما الحالة الاقتصادية فهى بدورها ذات أثر بالغ الأهمية فى تكوين الشخصية منذ الصغر؛ ذلك لأن لكل من الغنى والفقر صوره المنعكسة على الأسرة، وبالتالى على تعاملها مع أبنائها، لنأخذ مثلا: حالة الأسرة الغنية لننظر ما ينتج عن ذلك.

إن الغنى تتبعه مظاهر وسلوكيات فى وسائل العيش وطريقته، تؤثر على الشخصية تأثيرا نفسيا وجسديا وسلوكيا.

فمنها الترف والبطر بالنعمة، وعدم الإحساس بآلام الآخرين وحرمانهم النفسى والجسدى، وهذا فى الغالب الأعم باستثناء الحالات الخاصة، وبالتالى فإن الطفل يشب وهو يجد كل ما يحتاج إليه أمامه سهلا وميسورا، لا يحتاج فى الحصول عليه إلى معاناة وكد، وهذا يسبب له الزهادة فى كثير من متع الحياة التى يستطيبها غيره ويستعذبها، ويصبح لذيذ الأشياء ومرها عنده سواء، وهذا بدوره ربما تسبب له فى معاناة نفسية أدت به إلى انحراف سلوكى، فنحن نرى أبناء كثير من المترفين يعملون أعمالاً لا تليق بالمجتمع السليم، بل وكثير منها فيه خطر على سلامة المجتمع، فتجد الواحد من هؤلاء إذا خرج بسيارته لا يسير بالطريقة المهذبة اللائقة، ولا يتبع أو يتقيد بضوابط حركة السير المتعارف عليها، بل ينزلق ويجنح هنا وهناك، ويزيد من السرعة فى المنعطفات وأماكن الازدحام التى لا يسمح فيها بالسرعة الزائدة...

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٣/٢١٣، وابن ماجه: كتاب الجهاد (٤٠، ٦٥).

والخلاصة أن الغنى لدرجة الترف والإسراف يصيب صاحبه بنوع من الرتابة المميتة للنفس، المسببة للقلق والاضطراب، وتبدو الحياة بأسرها عنده لا طعم لها ولا قيمة لها، فهو إن أكل أشهى المأكولات لا يذوق لها طعما، وإن شرب أفضل المشروبات تغص فى حلقه، وإن ركب أحسن مركب يرى كأنه يركب على خشبة جافة، وإن سكن أجمل المساكن لا ينعم لها بطيب هدوء نفسى، وإذا أثث بيته على أحسن الوجوه يكون ساكن الأكواخ أسعد منه. هذا إضافة إلى ما يصيبه من طغيان وكبر لا يرى مثله أحدا على وجه الأرض، فيزدرى الناس ويحقرهم.

وهذه حالات نفسية مرضية يلتمس علماء النفس لها علاجات كثيرة، ولكنهم فى كثير من الأحيان لا يظفرون بشىء حاسم، ولكن الإسلام عالج تلك الحالات النفسية ذات المظاهر السلوكية الاجتماعية بوسائل عديدة ومتنوعة، حسب كل حالة، وكل ما يعترى الشخص منها.

فهو من البداية يغرس فى النفس أن هذا المال لا يملكه الإنسان بالأصالة، وإنما بالنيابة والاستخلاف، وصاحبه أو مالكه الحقيقى هو رب المال ورب الشخص المستحوذ عليه، وقد وضع لِملكِهِ شروطا إن لم ينفذها المستخلف حدث له ما ذكرناه سابقا، وإن فعل سلم وكان أهلا لأن يتمتع بلذته، ولهذا فقد أمر بالإنفاق منه كشرط من تلك الشروط فقال، تعالى: ﴿ ... وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... ﴾(١).

وجعل عدم الإنفاق نوعا من أنواع الهلاك والإنفاق نوعا من الإحسان: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٢).

(١) سورة الحديد ـ من الآية (٧).

(٢) سورة البقرة ـ الآية (١٩٥).

وحث على توزيع المال بين مستحقيه، خاصة الزائد عن الحاجة؛ لكيلا يتركز فى أيدى أناس قليلين، ويظل باقى الناس فى حرمان وعوز، كيفما كان مصدر هذا المال يلزم منع تركزه فى جهة واحدة، كما تفعل الرأسمالية الطفيلية فى البلاد الغربية غير المسلمة، وفى البلاد المسلمة التى تنهج الطريق الغربى فى الجانب الاقتصادى..

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ... ﴾[(١)].

وجعل المال الزائد عن الحاجة حقا ثابتا للفقراء خاصة، ولجميع أوجه النفع للمجتمع عامة:

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[(٢)].

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴾[(٣)].

وصاحب المال الزائد عن الحاجة ـ كما ذكرنا ـ متكبر جبار وباغ:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[(٤)].

ومن المظاهر السيئة للترف أن الأطفال ينشئون فى حياة رخوة ناعمة، مما يجعلهم لا يقوون على أعباء الحياة، خاصة إذا أصابتهم شدة، وهذا ضار بالمجتمع فى كل نواحيه، حيث تكون الشخصية باهتة وغير فعالة..

أما الأسرة الفقيرة فلها محاسن ولها مساوئ على تكوين شخصية أبنائها،

---

(١) سورة الحشر ـ من الآية (٧).
(٢) سور المعارج ـ الآيتان (٢٤ و ٢٥).
(٣) سورة التوبة ـ من الآية (١٠٣).
(٤) سورة العلق ـ الآيتان (٦ و ٧).

فمن المحاسن أن الناشئة يشبون وعودهم أصلب، وعزمهم أقوى. وعندهم قدرة كبيرة على التحمل والتكيف مع كل الظروف، ولا تظهر عليهم علامات المترفين التى ذكرناها سابقا، وغالبا ما يتمتعون بحيوية ونشاط وفعالية.

ومع ذلك كله فإن حالات الفقر الشديدة تأتى بنتائج غير حميدة فى انعكاساتها على الشخصية، حيث الجرى واللهاث وراء كسب لقمة العيش تجعل الأسرة لا تعطى اهتماما لتربية أبنائها، ولا تعتنى بتعليمهم وتهذيبهم، وهذا ينتج عنه ضرر على الشخصية مستقبلا، كما نجد بعض المعوزين يكونون ناقمين وحاقدين على أصحاب الثراء، وربما حاولوا إيذاءهم..

والنموذج الأمثل لذلك هو التوسط، أى الحالة الاقتصادية المعتدلة المتوسطة، فهذه نتائجها فى التربية أفضل من السابقتين.

ففى الجوانب التربوية يرى بعض الباحثين (أن التنشئة الاجتماعية فى المستويات الاقتصادية الاجتماعية الدنيا تصطبغ بالطاعة التى يبالغ الأب فى فرضها على أبنائه... فيما نجد أن تلك التنشئة تصطبغ فى المستويات الاجتماعية المتوسطة بالمحافظة على العادات والتقاليد والقيم، وتعويد الأطفال على ضبط النفس...)[1].

والتقليل من الاستجابة لكل مطالب الأطفال المادية، وتعريفهم بأنه ليس كل شيء يمكن الحصول عليه، وأن الإسراف فى مثل هذه المطالب يضر بهم مستقبلا، مع تعريفهم بأن لهم إخوانا آخرين معدمين لا يجدون الضرورى من القوت واللباس، مع تعويدهم الاعتماد على أنفسهم فى كثير من حاجاتهم، وتعريفهم بأن هذا المال هو مال الله، وأن هناك من له الحق فيه معنا، وأننا نهينا عن الإسراف والتبذير مثلما نهينا عن التقتير... هذا كله لمن

---

(١) علم النفس الاجتماعى، د/ فؤاد البهى السيد، ص ١٩٠ طبع دار الفكر العربى بمصر (بدون تاريخ).

يعى منهم ويفهم، ولقد حاولت أن أطبق ذلك على أبنائى ابتداء من سن الثالثة فما فوق فوجدتهم يفهمون بعضا من ذلك، خاصة من بلغ سن الرابعة، ولكنهم يكثرون من الاستفسار حول تلك المفاهيم، ويبدو أن ذلك ناتج عن محاولتهم الفهم، فلو صبر الأب أو الأم أو المربى عليهم وأعطاهم جزءاً من وقته لاستطاع أن يجعل منهم شخصيات ذات اعتبار ومكانة مرموقة مستقبلا.

ومن جانب آخر فإن هذه الحالة الوسطية للأسرة - وهى حالة عدم الثراء الشديد أو الفقر الشديد - تجعل الأسرة فى حالة من الاستقرار، وتعطيها نوعا من الفراغ فى الوقت لكى تصرفه فى الاهتمام والعناية بالتنشئة، بخلاف الحالتين السابقتين، ذلك لأن الغنى مشغول بماله وحساباته الداخلة والخارجة... والفقير مشغول باللهاث وراء جمع ما يسد به رمقه، وربما ظل يعمل طول اليوم وجزءا من الليل ثم ينهض مبكرا... وبالتالى لا يجد وقتا للعناية بأطفاله، بل ربما أشرك معه الأطفال أنفسهم فى العمل، وبالتالى يفوت عليهم كثيرا مما يمكن أن يعينهم فى اكتساب ما ينمى شخصياتهم من المعارف والاستذكار...

وكيفما كانت أحوال الأسرة الاقتصادية، فإن مدارس علم النفس المختلفة وكذلك المدارس التربوية والاجتماعية ومدارس علم النفس الاقتصادى - كل تلك المدارس لم تجد العلاج القاطع لهذه المشاكل الناجمة عن تلك المستويات المعيشية، ولكن الإسلام أوجد لها الحل والعلاج النفسى الروحى الذى يكسبها الطمأنينة، وهى أفضل ما تدفع به ذلك الهوس والهلع النفسى القاتل، سواء أكان المتعلق بجمع الثروة وتكديسها أو الخوف من زوالها، أو ذلك الناتج عن حالة العدم المدقع، هذا الهوس الاقتصادى الذى جعل المنظمات التى تعنى بالسكان والنماء الاقتصادى تكثر من صيحاتها مطالبة

بتحديد النسل وتقليل السكان، وإنذارها بأن المخزون الغذائى فى تدن وعلى وشك النفاد، فى هذا الجو المتشائم طمأن الإسلام النفس بأن الرزق الحقيقى بيد الله، وأن الإنسان مطلوب منه السعى والحركة والتخطيط بقدر ما يستطيع . . .

﴿ ...وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾[1].

وقال، تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[2].

والهدوء النفسى والطمأنينة من أهم عناصر نماء الشخصية نماءً صحيحا سليما، ولهذا فى الآية الأولى توجه الخطاب القرآنى لرزق الآباء أنفسهم، مذكرا إياهم بأن الله الذى رزقهم هم من غير حول منهم ولا قوة، هو القادر على رزق أبنائهم، فلا حاجة بهم ـ إذن ـ إلي القلق والخوف من ذلك.

وفى الثانية بدأ بطمأنة الآباء بألا يخافوا على مستقبل الأبناء؛ لأن الذى خلقهم ضامن لرزقهم، وسيدبر لهم أمرهم، بل تزيد الطمأنينة عندما يعلمون أن ذلك الرزق يتعدىٰ أبناءهم هم ليصلْ إليهم هم أنفسهم، وتزيد الراحة والسكينة عندما يعلم الشخص أن الله الذى يرزق كل الدواب من الحشرة إلى البقرة، قادر على رزقهم، وأنهم خلق من جملة تلك الحيوانات، وبهذا يوفر الإسلام للبشرية هذا العامل النفسى من الجانب الاقتصادى؛ حتى يكون الأشخاص من ذوى الثبات واليقين الذى هو عمود رئيس فى الحياة الإنسانية الهادئة، يقول، تعالى:

---

(١) سور الأنعام ـ من الآية (١٥١).

(٢) سورة الإسراء ـ الآية (٣١).

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

وزيادة فى طمأنة النفس الإنسانية بوضع شيء محسوس ملموس أمامها، فى مجال اكتساب الرزق، يضع الله، تعالى، نموذجا مقارنا يعايشه الإنسان العاقل ليل نهار، ولا يستطيع إنكاره بحال، وهو يرزق ويطعم على مرأى ومسمع من بنى البشر، ولم يشك من ضيق فى العيش، ذلك النموذج هو كل ما دب على الأرض، وهو لم يزرع ولم يحصد ولم يدخر ولم يكد ويجد فى التخطيط طلبا للرزق، ومع ذلك يأتيه رزقه مثلما يأتى الإنسان رزقه، والفرق الوحيد هو أن الله جعل رزق الإنسان مقرونا بالسعى المصحوب بالتخطيط والتدبير والتفكير، وهو أمر مطلوب شرعا لابد منه، ولكن الهلع والجزع والفزع هو الممنوع، كما أن التدبير الشيطانى المنافى للتوحيد كذلك ممجوج وممقوت، ولا يليق بالإنسان المكرم بالعقل المسلح بالفكر، انظر معى، كيف يذكِّر القرآن الإنسان بأن الله الذى رزق تلك المخلوقات هو نفسه الذى رزق الإنسان، والمقارنة هنا ليطمئن الإنسان، وليعرف أن حقيقة الرزق الذى يأتيه ليس من محض اجتهاده، بل هو فى الأساس رزق من الله، ولكنه مقرون السبب بحركة الإنسان ومعاناته فى طلب ذلك، وكذلك تفعل تلك الحيوانات، فهى تسعى، تغدو وتروح، ولكن الفارق بينها وبين الإنسان هو أنها تفعل ذلك وهو متوكلة، كما فى الحديث الآتى، والإنسان يفعل ظنا أنه من جدِّه واجتهاده:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2].

ويقول الرسول، صلى الله عليه وسلم، داعيا الإنسان ليسعى طلبا للرزق

---

(١) سورة هود ـ الآية (٦).

(٢) سورة العنكبوت ـ الآية (٦٠).

مع تخطيط وتدبير لذلك واجتهاد، ولكن كل ذلك يجب أن يصحبه التوكل على الله، حتى لا يصاب المرء بالخوف والذعر فيطلب الرزق مشتطا وهو من الحرام، مذكراً إياه بأن خلق الله غير الإنسان، يسعى لرزقه، مع التوكل:

(لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا)[1].

ولقد أطلنا الحديث والتحليل حول المسألة الاقتصادية؛ لأن لها الأثر الأكبر فى تكوين الشخصية وفى التأثير عليها فى أطوار حياتها كلها، بل يؤثر الاقتصاد على شخصية الأمم والشعوب، مثلما يؤثر على شخصية الفرد؛ ولهذا فقد كثر ذلك فى القرآن الكريم، وكذا فى السنة النبوية؛ لِيُدَلِّلاَ على أن المشكلات الاقتصادية لا تؤثر على الشخصية المؤمنة إيماناً كاملاً تاماً لتوكلها على الله وطلب الرزق منه، ولأن الشخصية المسلمة تعرف:

﴿ ... أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ... ﴾[2].

ب ـ المحيط الثقافى:

المجال الثقافى الواسع فى البيئة التى تنشأ فيها الشخصية وتعيش وتشب فيها، له أثر بالغ وبيّن فى تكوين الشخصية.

ويشمل مجالات عديدة تتشابك وتتعاون كلها لتشكل الشخصية، ونفضل أن نلخص نتائجها بإيجاز وعموم فيما يلى:

١ ـ الجيران:

الجار هو أول من يفتح الشخص عينيه عليه، بعد الأسرة، وربما كان إلى

---

(١) رواه الترمذى: كتاب الزهد، باب (٣٣) فى التوكل على الله حديث رقم (٢٣٤٤) ٤/٤٩٥، ورواه الإمام أحمد فى مسنده ١/ ٣٠، وابن ماجه فى السنن، كتاب الزهد (١٤).

(٢) سورة الروم ـ من الآية (٣٧).

جانبها لملاصقته للأسرة والمداخلة الحاصلة بين الأسرة والجيران، فالطفل منذ الصغر يأخذ من الجيران عاداتهم وأفعالهم، من داخل بيوتهم وفى خاصتهم، وينقل كل ذلك إلى ذاكرته التى تختزنه وتستوعبه لمستقبل زمانها.

ولكى تنمو الشخصية نموا حسنا، لابد من تخير الجار قبل اختيار الدار، أو إذا لم يكن بد من جوار أىِّ جار، أو لم يكن للإنسان الاختيار - يلزم معالجة صلاح الجار ودفع شره بأمور أخرى، مثل الإحسان إليه، وتوثيق الصلات معه للتأثير فيه بالسلوك الحسن، أو تعليمه ما يمكن أن يُحَسِّنَ به سلوكه، حتى يعيش معه جاره فى مأمن.

ولقد عالج الإسلام موضوع الجار بأنواع جاذبة له ودافعة لشره ومعدلة لسلوكه، فأوصى به خيرا، وأمر بالإحسان إليه ورعايته وتفقد أحواله وسد حاجاته... وهذا أفضل ما يقرب الجار إلى جاره ويجعله يألفه ويأنس به؛ حتى يستطيع استمالته وتحسين وضعه الخلقى والسلوكى العام:

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[1].

وهناك نوع آخر له معنى من معانى الجوار، وهو الذى يكون بمعنى توفير الحماية والأمن للشخص، حيث يأوى هذا الشخص أو الجماعة إلى جهة ما تكون لها قوة تحمى بها وتدفع بها الأذى عن المستجير، سواء أكانت القوة معنوية أو حسية، والمستجير يأتى فى حالة خوف على نفسه أو ماله أو عرضه، ومعلوم أن الخوف أحد مسببات اهتزاز الشخصية، ودافع نفسى لعدم الاستقرار النفسى، فالإنسان الخائف تجده مضطرباً ومهزوز الشخصية، ولا

---

(١) سورة النساء - الآية (٣٦).

يستطيع أن يقرر شيئا من تلقاء نفسه لتملك الخوف تفكيره وشله، فإذا توافرت له الحماية والسكن وهدأ ـ عادت شخصية سوية.

كما أن المستجار يتأثر بمن يجيره ويأخذ من شخصيته وفكره، وربما تأثر به عقديا وسلوكيا؛ ولهذا جاء الجوار عاما ولو للمخالف فى الدين، حتى يكون ذلك داعيا له لمعرفة ما عند المجير من خير وفضل وعلم فيتم له الأمن، وكذا التعرف على شخصية المجير ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[١].

ولقد أوصى الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالجار والإحسان إليه وتأمينه من الجوانب الأمنية والمعيشية والاجتماعية، بل وتوعد من يُرَوِّعُ جاره بأشد أنواع الوعيد حيث قال: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه)[٢].

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم، قوله: (لا يشبع الرجل دون جاره)[٣].

وقال أبو ذر، رضى الله عنه: (أوصانى خليلى، صلى الله عليه وسلم، فقال: إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها)[٤].

٢ ـ الأصدقاء:

إن أثر الصديق على الشخصية من القوة والمتانة بحيث يمكننا القول بأنه لا

---

(١) سورة التوبة ـ الآية (٦).

(٢) متفق عليه، البخارى: كتاب الأدب، باب (٢٩) حديث رقم (٦٠١٦) الفتح ٤٤٣/١٠، ومسلم: كتاب الإيمان (٧٣).

(٣) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، ١/ ٥٥.

(٤) رواه الدارمى فى سننه: كتاب الأطعمة، باب فى إكثار الماء فى القدر، ١٠٨/٢، دار الكتب العلمية.

مزاحم له ولا مماثل، ودليل ذلك أن نفوس الأصدقاء وميولهم وعواطفهم - وربما ثقافتهم - تكون متشابهة ومتقاربة، وأراءهم وأهواءهم متداخلة، وناتج ذلك كله يبرز فى المظهر السلوكى والدافع النفسى، مما يجعلهم يؤثر بعضهم على بعض.

ولقد شاهدتُ أن شخصا صادق آخر، وكان أحدهما يملك شخصية أقوى، بما لديه من ثقافة، وتعليم وسلوك معين ومنهج خاص فى الحياة، وتلازما زمناً امتد إلى عامين، وكنتُ أعرف صاحب الشخصية القوية قبل الآخر عن قرب؛ وكانت له سلوكيات معينة يتميز بها تبرز فى حركاته، وبعد مرور حوالى عام ونصف تقريبا، لاحظت أن الصديق الأخير قد تأثر بسلوك الأول، وبدأت تظهر عليه نفس سلوكيات وتصرفات وحركات صاحبه ذى الشخصية الأقوى. مع العلم أن بعض تلك السلوكيات غير لائقة اجتماعيا، ولكن مع هذا كله فقد تقمصها الأخير، وأضحت تشكل جزءاً من ملامح شخصيته. .

ولما للصداقة من أثر فى الشخصية سلبا أو إيجابا، فقد حث الإسلام على تخير الأصدقاء وملازمة الصديق الصالح فقال، صلى الله عليه وسلم:

(إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة)[1].

وقبل ذلك قال الله، تعالى:

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

---

(١) متفق عليه، البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب البيوع باب (٣٨)، ٤/٣٢٣، ومسلم بشرح النووى، كتاب البر، ١٦/١٧٨، والمسند لأحمد ٤/٤٠٤، وهذا لفظ مسلم.

(٢) سورة الزخرف - الآية (٦٧).

وورد فى المثل المشهور من عاشر قوما أربعين يوما صار منهم.

وقديما قيل:

عن المرء لا تَسْأَلْ، وسَلْ عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

وعمل الدعاة هو حث الناس على مخاللة ومصادقة الأفاضل من الناس من ذوى العلم والفضل والخلق والمروءة؛ حتى يكتسبوا منهم قوة الشخصية فى الحق وسماحتها فى الخلق. وخلاصة القول، أن تحوير السلوك المكوِّن للشخصية فى البيئة يرجع إلى ما يسمى بالجماعة المرجعية الأولى (وهى الجماعة التى ينسب إليها الفرد سلوكه الاجتماعى ويقيمه فى إطار معاييرها وقيمها، واتجاهات وأنماط سلوكها المختلفة...)[1]. وتشمل الأسرة والجيران والأصدقاء وزملاء الدراسة، والأخيران يسميان بجماعة النظائر؛ حيث يكون التشابه فى العمر والسلوكيات، والتأثير هنا متبادل، حيث يؤثر كل فى الآخر، وربما طغى تأثير بعضهم على بعض إذا كان منهم من يمتلك شخصية أقوى.

٣ ـ دور المدرسة فى تنمية الشخصية:

كان فى السابق يعتمد دور نماء الشخصية بصفة كبيرة على الأسرة التى تتشكل من تقاليدها وأعرافها وعاداتها شخصية الناشئة، ثم يزاحمها فى ذلك المحيط القبلى التقليدى المحافظ.

ولكن بعد ظهور المدارس وانتشارها والتوسع فى التعليم مع مجانيته وإلزاميته ـ خاصة فى المراحل الأولى ـ أصبح دور الأسرة يزاحم مزاحمة قوية، إن لم نقل أصابه شىء من الاهتزاز، خاصة إذا كانت الأسرة أمية أو لم تعتن بالتربية.

(١) انظر: علم النفس الاجتماعى، ص ١٩٧، د/ فؤاد البهى السيد.

وأثر المدرسة يرجع لبرامجها التعليمية والثقافية، ولأنها تعطى الطفل المرجعية المعرفية التى يتطلع إليها، ويكتسب عن طريقها معلوماته الأولى فى التدرج المعرفى الثقافى، ويشعر بأن ما يجده فى المدرسة من معارف وعلوم لا يجده فى الأسرة.

فكما أن المدرسة تحقق له طموحه المعرفى الثقافى التعليمى، فهى تعده لتحقيق طموحاته الأخرى فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية، مثل أن يكون صاحب مكانة فى الدولة أو فى المجتمع عامة أو أن يجد له وظيفة مريحة تحسِّن له وضعه المعيشى.

وفى المدرسة تتكون شخصية الطفل بما يتلقاه من علوم ومعارف، حسب المنهج المتبع فى كل بلد، فإن كان المنهج سليما وصحيحا وفق المعيار الإسلامى، نشأ الطفل بشخصية إسلامية نظيفة سوية، وإن كان المنهج عكس ذلك فسوف تضطرب شخصيته وفق المنهج، وهذا ما يحدث، خاصة للطلاب الذين يدرسون فى خارج بلدانهم الإسلامية، سواء فى الدول الشيوعية سابقا، أو فى الدولة الغربية العلمانية، حيث تشكل المناهج التعليمية مع الثقافة العامة شخصية الدارس وفق تلك المناهج؛ ولهذا كان ـ ومازال ـ المخلصون ينادون بتنقية وتنقيح المناهج الدراسية مما شابها من الثقافة المستوردة حتى ينمو الشباب بشخصية إسلامية سوية.

٤ ـ الثقافة المعرفية الأخرى:

نعنى بها الثقافة العامة المتنوعة، التى يكتسبها الفرد من مصادر عديدة مثل الكتب والمجلات والجرائد، وكذلك مشاهداته مثل السينما والتلفاز والإذاعة المسموعة...

وأخطر ما فى تلك الوسائل هو التلفاز والسينما والفيديو. فقد دلت

الأبحاث والدراسات التى أجريت على الأطفال حول تأثير التلفاز والسينما والفيديو - أن لها الأثر الفعال على شخصية الطفل، ولقد تفنن المخرجون فى هذه الأجهزة فى وسائل جذب المشاهد حيث الصور الملونة بألوان جذابة تخطف البصر وحركات الكاميرا لا تسمح للعقل بالتركيز أو التفكير حيث تتعاقب على بصره المشاهد العديدة السريعة، فلا تدع مجالا للنقد: بل تجذب عاطفته وتأسر لبه، وهذا مكمن الخطر حيث يسلب من المرء فكره وعقله الذى يزن به الصالح من الطالح.

ولقد دل كثير من الأبحاث على أن الأطفال يقلدون ما يشاهدون من عنف وعدوان، مثل القتل والضرب، وكذلك وسائل السرقة وطرائقها التى تعرض فى الأفلام بحجة علاجها، كما أن المناظر التى تصاحب ذلك مثل الحركات التى يفعلها أولئك الممثلون لتزيل عنهم التوتر والقلق، مثل تناولهم الدخان بكثرة وشربهم الخمر واحتسائها بشراهة شديدة أو إدمانهم للمخدرات أو قيامهم بحركات هستيرية جنونية تدل على اضطراب الشخصية، يصاحب ذلك قلق وتوتر نفسى مستمر - كل ذلك يدخل فى مخيلة المشاهد ويختزنه فى بؤرة اللاشعور، حيث يخرج ويظهر عند مثير مشابه.

وإننا نرى بأعيننا أن الذين يشاهدون السينما أو التلفاز أو الفيديو وبه مسلسل يعرض قصة بعينها، يتأثرون بما يقوم به الممثل، فإذا بكى الممثل بكى المشاهد، وإذا شهق فعل ذلك المشاهد، وإذا غضب أو حزن أو أصابه اكتئاب من جراء موقف معين أصاب المشاهد نفس الشيء، وإذا بات حزينا ظل المشاهد ليلته فى أرق وحزن، ثم يصبح الناس يحكون تلك القصص بألم وحرقة لما حدث لها . . .

تلك مؤثرات قوية على الشخصية وأثرها يلمسه الجميع، وما لم يتدارك الأمر فإن الشخصية الإسلامية تكون فى خطر، خاصة بعد أن يطبق نظامَ

البث الإعلامى المباشر، حيث يدير المشاهد جهازه ليلتقط أى برنامج يريد ومن أى بلد كان لا حاجز ولا معترض، عندها سوف تدمر الخطوط الرئيسة للشخصية الإسلامية، لا سمح الله.

ومن الخبراء الذين تحدثوا عن أثر تلك الوسائل على الشخصية وأنها سبب فى انحرافها. الدكتور (ستيفن بانا) الأستاذ بجامعة كولومبيا حيث قال: (إذا كان السجن هو جامعة الجريمة، فإن التلفزيون هو المدرسة الإعدادية للانحراف)[1].

ويقول تقرير صدر عن (اليونسكو): (إن إدخال وسائل إعلام جديدة، وخاصة التلفزيون فى المجتمعات التقليدية، أدى إلى زعزعة عادات ترجع إلى مئات السنين وممارسات حضارية كرسها الزمن)[2].

إذَنْ هذه الأجهزة والوسائل تستطيع تحوير الشخصية حسب ما يغلب عليها من معتقدات وثقافات وبيئات أو أقل ما تفعله اهتزاز الشخصية وأرجحتها، وهذا وحده خطر على الشخصية الإسلامية.

ثالثا: العوامل المناخية:

والعوامل المناخية ـ سواء أكانت من حيث التضاريس الطبيعية أو من حيث عوامل الطقس من حرارة وبرودة ـ تؤثر على الشخصية تأثيرا نفسيا.

وهى من هذه الجوانب، إما أن تكون أرضا جبلية وعرة، أو أن تكون أرضا سهلة منبسطة، وهذه وتلك إما أن تكون صحراوية قاحلة أو خصبة ندية ذات أمطار وفيرة.

---

(١) انظر: البث المباشر، ص ٥١ و ٦٥، د/ ناصر سليمان العمر ط ٢، نشر دار الوطن الرياض ـ السعودية (١٤١٢ هـ).

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

والشخص الذى يعيش فى بيئة ما يتأثر بأحوالها سلبا وإيجابا، تبعا لوسائل العيش عليها من حيث السهولة والصعوبة وطرق كسبه.

فسكان الأراضى الصحراوية القاحلة الجرداء نجدهم يكثرون من التجوال والترحال؛ طلبا لوسائل العيش مثل الماء والعشب لحيواناتهم، ويسود حياتهم الاجتماعية عدم الاستقرار، كما تقل العلاقات الاجتماعية والتواصل، ويقل التعليم، وتكاد وسائل الثقافة تنعدم بسبب عدم الاستقرار، وتكون الروابط فى تجمعات صغيرة جدا لا تتعدى أفراد الأسرة أو بعض الجيران الذين تكون مساكنهم فى العادة متناثرة ومتباعدة بعضها عن بعض.

والصحراء تكون شديدة الحرارة صيفا، شديدة البرودة شتاء، فشدة الحر المستمر فى الصيف وزمهرير الشتاء القارس - كل ذلك يجعل أهل البلاد فى معاناة دائمة، فهم فى الحر يقاسون ويعانون، وفى البرد يقاسون ويعانون، مما يقض مضجعهم ويقلل من نشاطهم، ومما يجعل مزاجهم حادا مضطربا لا يقر لهم قرار ولا يهدأ لهم بال، فغليان الحر فى أدمغتهم يسبب غليان مزاجهم وشدة انزعاجهم، كما يجعل نقصا فى مواردهم نسبة لقلة الأمطار والرى فى الصحراء، مما يجعلهم فى شغل شاغل ولهاث مستمر...

وكذلك يفعل زمهرير الشتاء فهم يضطرون للبقاء فى منازلهم مدة أطول للتدفئة، وهذا يقلل دخلهم اليومى...[1].

يضاف إلى ذلك كله طبيعة الصحراء وجفافها وقساوتها وشدة العيش فيها التى تتطلب شدة فى المعاملة، وبالتالى يتلون مزاج الإنسان وتتقلب شخصيته ليتلاءم ذلك مع شدة وغلظة الصحراء وليتكيف معها وضعه كله جسديا ونفسيا..

---

(١) انظر: فن نشر الدعوة، ص ٢٦ / للمؤلف نشر دار العاصمة الرياض السعودية ط ١ (١٤٠٩هـ).

وهذا كله يؤثر فى علاقات الناس بعضهم ببعض مثلما يؤثر فى شخصياتهم.

وكذلك إذا كانت طبيعة البلد جبلية والناس يعيشون فى ربا الجبال الشواهق محصورين بين الحجارة الصم، فلا يتحصلون منها على قوتهم إلا بشق الأنفس، فإن زرعوا فعلى سفوحها ومنحدراتها فى مساحات ضيقة لا يكاد ما تنتجه يسد الرمق، فهم فى معاناة دائمة تصلبت أقدامهم من كثرة الصعود والنزول، العلائق بينهم منبتة، والروابط الاجتماعية تكاد تنحصر فى أقرب الأقربين، لصعوبة المواصلات فى شعاب الجبال ووديانها، فتتشكل الشخصية الجامدة كجمود جلمود الصخر المقطبة الجبين فى غضب ساكن هادئ هدوء الجبل الأشم.

فشخصية كهذه تحتاج إلى علاج خاص من الدعاة، علاج يحرك الجبل، ويدحرج الصخر حتى يفجره من داخله؛ ليستخلص من باطنه الذهب والجواهر والكنوز.

وإن أناساً تكونت نفوسهم وجبلت طبائعهم بمثل ذلك، لمحتاجون إلى داعية يتسربل بالحكمة، ويتمنطق بالحنكة والدربة؛ حتى يسوس تلك النفوس باللين وطول النفس؛ لكى يخرج منهم الشخصية الإسلامية ذات الخلق القويم.

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يعامل العرب الذين بعث فيهم، وبيئتهم قريبة مما ذكرنا، كان يعاملهم بكل لطف وسهولة.

وعندما ذهب للطائف يدعو ثقيفا إلى الحق وليحموه ليبلغ عن ربه، لم يجد منهم إلا كل قسوة وشدة وفظاظة، بل وأغروا سفاءهم وعبيدهم فرموه بالحجارة وسفهوه... ومع ذلك لم ينتقم منهم ولم يحنق عليهم، بل عاملهم

بعكس ما وجد منهم، وعندما ناداه ملك الجبال للانتقام له رفض ذلك، راجيا الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ويحمل دعوته.

أما فى المناطق ذات المناخ المعتدل ـ حيث لا حر شديد ولا برد كذلك ـ فتجد الناس هادئى البال، مرتاحى الضمير، يزنون الأمور ويعالجونها بِتَرَوٍّ وَتَأَنٍّ وَتُؤَدَة، فتجدهم يميلون للنقاش الهادئ والحوار المنطقى والتفكير السليم. هذا فى غالب أحوالهم، وتكون الشخصية متزنة مرنة لا شطط ولا غلو، فى العموم، بالمقارنة مع أولئك المذكورين سابقا.

والخلاصة أن البيئة بكل ما فيها، من مناخ وعلاقات، تُحَوِّر وتغير فى الشخصية والأخلاق والسلوك، وتؤثر على الفطرة سلبا وإيجاباً؛ ولهذا قلنا: لابد للداعى من مراعاة ذلك وأخذه فى حسبانه عند ممارسته للدعوة للحكم على الناس، فالناس أبناء بيئاتهم تركّب منها شخصياتهم، وتقوم على أساسها سلوكياتهم وتعاملهم مع غيرهم ومع بعضهم البعض.

رابعا: البيئة المهنية:

المهنة السائدة فى المجتمع تؤثر على شخصياته سلوكيا ونفسياً سواء على أصحاب المهن أنفسهم أو من يعيشون فى مجتمع تسوده أو تغلب عليه مهنة أو مهن بعينها، فمثلا:

البيئة التى تسودها الصناعة ـ سواء أكانت صناعات ثقيلة أم خفيفة ـ نجد الشخصية فيها لها خصائصها وسماتها التى تميزها عن غيرها من المجتمعات، وغالبا ما تكون المجتمعات الصناعية ذات ثراء وترف فى العيش، وتكثر به المشاكل الناجمة عن الصناعة ومشاكل الترف المادى، كما هو حادث فى المجتمعات الغربية الحالية، حيث تتسم الشخصية فيه بالتفكك الأسرى والتفسخ الخلقى وانحلال عُرَا الروابط الاجتماعية عامة.

أما فى المجتمع الزراعى، فنجد الشخصية غير تلك؛ حيث تميل إلى الهدوء والطمأنينة والتجمع التعاونى للعمل وللأنس، وللخضرة أثر فى تكوين المزاج والعاطفة.

فإذا نزلنا إلى المجتمع الرعوى تقابلنا الشخصية التى تتسم بعدم الاستقرار؛ حيث الناس ينتقلون مع المرعى حيثما وجد، فسمات الشخصية هنا هى السمات الفردية الاستقلالية التى تحب التنقل والترحال، قليلة الحظ من التعليم والثقافة، ولكن مع ذلك لا نلاحظ عليهم القلق والاضطراب الذى نجده فى البيئة الصناعية، غير أنها - كما قلنا - هى شخصية آحادية خلوية ربما كان فيها شىء من الجفاف والجفاء والغلظة فى المعاملة، وهذا يرجع كثيرا إلى الطبيعة المناخية آنفة الذكر من حيث الخصوبة والتصحر، وكذا من حيث التضاريس: سهولها وجبالها.

المبحث الثاني
تنوع الشخصية

لم يخلق الله الناس سواء، بل جعلهم أخلاطا وأنواعا مختلفة، وكل ميسر لما خلق له:

فمن الناس من تجده يخالط الناس ويخالطونه، ولا يجد أدنى حرج فى الدخول مع أية فئة منهم، وآخر عكسه تماما، يحب الانفراد بقدر ما يستطيع، ويقلل من اختلاطه بالناس ما استطاع، ولا يتواصل معهم إلا بقدر الحاجة الملحة.

كما نجد آخر همه الأكبر من الناس أن يقودهم لما يرى أنه حق وخير، ويفضل أن يتصدر رأيه آراء الآخرين. . .

وإن الداعى الذى يحب للناس كل خير، يود أن يعرف كل تلك الشخصيات وأحوالها؛ حتى يستطيع أن يوجهها لما يفيدها فى دنياها وأخراها؛ ولهذا سوف نحاول أن نبحث باختصار فى تنوع الشخصية الإنسانية وفق ما ذكرنا من الأنواع الثلاثة؛ لنقف ـ بقدر المستطاع ـ على الخصائص المميزة لكل شخصية.

المطلب الأول: سمات الشخصية الفردية:

الصفة الآحادية الانغزالية ليست من صفات الحيوان، فضلا عن الإنسان، هكذا حكمة الله فى خلقه أن خلق كونه فى تزواج وتعاون، من الجماد إلى المتحرك، الحجارة والحصى والتراب... تتجاور وتتعاضد، ويسند بعضها بعضا، ولولا تجاور ذرات التربة وتكاتف وتساند حبيباتها، لما تمكن الإنسان من الحياة على ظهرها... ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ... ﴾[1]، هى سنة الله فى خلقه.

ولهذا فإن كلامنا عن الشخصية الآحادية إنما هو كلام نسبى فى حدود المعقول الممكن من تلك العزلة، وفى ضوء هذا المفهوم نعالج الشخصية الانفرادية، مستصحبين المقولة الشهيرة: الإنسان مدنى بطبعه، والتمدن يعنى التوطن، والتوطن يعنى نوعا من أنواع التجمع والأنس مع الآخرين...

ولكن مع ذلك كله نلاحظ فى حياتنا الاجتماعية أناسا يجنحون إلى الانفراد ولو فى حدود، ولكنه واقع على كل حال، فهل لذلك من أسباب؟ وهل من سمات محددة لمثل تلك الشخصية؟ وهل من علاج؟ وقبل ذلك هل من مضار تنجم عن الانفراد أو من محاسن؟

من العادات أن ترتبط الظواهر بمسبباتها، حيث لا يمكن لأى شىء أن ينشأ من دون سبب، سواء عرف هذا السبب أم لم يعرف، وهذه سنة الله فى كونه، والشخص ـ كما هو معروف ـ أول ما نشأ وجد أمامه أسرته، سواء كبرت أم صغرت[2]، وكما هو معلوم فإن للأسرة أثرا فى بناء الشخصية الاجتماعية أو الانعزالية، فإذا كانت علاقات الأسرة مع الجيران والأهل قوية والصلات طيبة وودية، فإن ذلك يؤثر على شخصية الطفل ويكون اجتماعيا، والعكس صحيح إذا كانت علاقة الأسرة بالآخرين فاترة أو فى حدود قليلة فلربما أثر ذلك فى شخصية بعض أفرادها وناشئتها، فيأتى

(١) سورة الذاريات ـ من الآية (٤٩).

(٢) انظر: علم النفس، ص ٣٦٧، د/ عبدالعزيز القوصى.

أحدهم يحب الانفراد، وأنا أعرف شخصا كان ينعزل بداره، وينأى بها عن الناس مبتعدا بثروته الحيوانية عنهم، فنشأ بعض أفراد عائلته بنفس الطريقة، وأصبحت دورهم تبتعد عن دور الآخرين، حتى إذا أراد أحد آن يقترب من جوارهم رفضوا ذلك.

إذن العادة والتنشئة لها دور فى تكوين الشخصية بالانعزال وعدمه.

ولعل من الأسباب فى ذلك البيئة الكبرى ومدى قيامها على العلاقات بين أفراد مجتمعها، فإذا كانت العلاقات الاجتماعية فى البيئة تقوم على التواصل والتراحم والتعاون كما هو فى البيئات الإسلامية ـ فإن الشخصية فى الغالب تكون مقتربة من الآخرين، أما إذا كان العكس، كما هو الحال فى البلاد الغربية أو غير الإسلامية عامة، فإن الأفراد ينشئون على حياة الانفراد والاعتزال، فالغربيون تجدهم فى البيت الواحد والأسرة الواحدة ـ ولو كانت صغيرة ـ يأكلون فرادى، كل واحد بصحفته أمامه، على انفراد، وكذا فى وسائل كسب العيش فإن من لا يعمل لا يعيش حتى الزوجة لابد لها أن تعمل لتؤمِّن قوتها، والعجوز لايجد من أبنائه من يقوم على رعايته ومآله دور العجزة... وهكذا كل إنسان يعيش بنفسه لنفسه، حتى إن كثيرين منهم يموتون فى مساكنهم ولا يعرفهم أحد حتى تخرج رائحة النتن!! وهذا خروج عن الفطرة التى تميل إلى الحياة الاجتماعية.

وهناك بعض الأسباب ترجع إلى بعض المشاكل التى يصادفها المرء فى حياته، فتؤدى به إلى اعتزال حياة الاجتماع والميل إلى الانفراد، ومثل هذه الحوادث التى تصادف الإنسان لا يمكن حصرها أو إعطاء نموذج لها؛ لأنها غير محددة ولا معروفة بالتعيين مع الإيمان بوجودها ووقوعها، فتؤدى بالإنسان إلى الانكماش والانطواء على نفسه.

والبعض يرى أن للعامل الوراثى أثره فى ذلك[1]، ولكن هذا أمر نستبعد القطع به وإن بقى الاحتمال.

بعض ملامح الشخصية الانفرادية:

لا يمكن حصر تلك الصفات أو السمات أو القطع بها على وجه جازم، ولكنها قرائن استنتاجية تقوم على الملاحظة والتتبع، وبعض الباحثين يسمون الشخصية الميالة للانفراد والعزلة، بالنمط الانطوائى[2] من الشخصية، أو الشخصية الانطوائية، ويذكرون لها بعض الصفات والملامح مثل:

١ ـ الحساسية المفرطة تجاه القضايا الاجتماعية والانفعال السريع مع الأحداث وعدم التثبت.

٢ ـ الالتفاف حول الذات والانكفاء عليها والتمحور حولها، بحيث يسارع هذا النوع لقضاء حاجاته أولاً أو لا يعير اهتماما لقضايا الآخرين بقدر حاجاته هو.

٣ ـ النظرة التشاؤمية غير الموضوعية للعالم من حوله، فلا يرى إلا نذر الشر والخطر والمستقبل القاتم المظلم.

٤ ـ كثير الاعتزاز بنفسه دائم الحديث عنها والتأمل الذاتى ورؤية الناس من خلال ذاته فقط.

٥ ـ صعب الاندماج مع الآخرين.

٦ ـ قليل المخالطة قليل الأصدقاء، كثير التنقل من شخص لآخر، يرتابه الشك الكثير متردد فى قضاء حاجاته هياب، وربما كان كتوما لا يفصح عما فى كنانته قليل التعاون.

---

(١) انظر: السلوك الإنسانى، ص ٣٠٣، د/ انتصار يونس.

(٢) انظر: أصول علم النفس، ص ٤٠٩، د/ أحمد عزت راجح.

وقد دمجنا بعض الصفات فى بعضها لتقاربها وتشابهها، وهذه الأمور المذكورة لتحديد الشخصية الفردية ليست نهائية، وليس بالضرورى أن تتوافر كلها لتحدد الشخصية، بل يصدق ذلك ببعضها، كما أن تحديد شخصية ما بأنها آحادية ليس كله نسخة واحدة فى كل الأشخاص بل الأمر يتفاوت من شخص لآخر.

وما من شك أن الشخصية الانعزالية تضر نفسها، وتضر المجتمع، ذلك لانقطاع التعاون بين الناس ومنع الفرد من خير المجتمع وخبرته، ومنع نفسه من فوائد الاختلاط بالمجتمع، فالعلم والحكمة والتعاون والعادات الحسنة وتبادل الخبرات ومعرفة الخير والشر... كلها لا تأتى إلا عن طريق المخالطة للناس، خاصة الخيرين منهم.

العلاج:

لم يدع الإسلام شيئا إلا وضع له علاجا، وهذه ميزة انفرد بها عن سواه من النظم والقوانين الآخرى، ومدارس علم النفس لم تعالج الحالة التى نحن بصددها، إلا إذا أصبحت حالة مرضية، فعندئذ تحاول علاجها، الذى لم ينجح إلا قليلا؛ لأنه علاج بدنى حسى، ثم إنه علاج بعد وقوع المرض، لكن الإسلام يضع العلاج قبل حدوث المرض، حيث يكون العلاج وقائيا، حتى إذا حدث المرض كان خفيفا، كما أنه علاج مزدوج، لتناوله النفس والجسد معا، مع تركيزه على النفس؛ لأنها أساس الجسد وهو تابع لها.

ولعلاج مثل حالة الشخصية الفردية، فقد رغب الإسلام فى الجماعة، وحث على التعاون والتعاضد، ونهى عن العزلة والعمل الفردى، كما فعل ذلك الرسول، صلى الله عليه وسلم، عمليا وحث عليه، وحبب للإنسان أن يأكل فى جماعة، وأن يمشى فى جماعة، وأن يضع يده فى يدهم:

﴿ ... وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ... ﴾[1].

ودعا للوحدة والاتحاد، ونهى عن التفرق كيفما كان:

(الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب)[2].

وقال، صلى الله عليه وسلم: (... عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن)[3].

(فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية)[4].

فإذا رغب الإنسان فى الاجتماع بمثل ذلك واتضحت له فوائده، وفى الجانب المقابل عرف مضار الاعتزال ـ تجنب العزلة، وحَسُنَتْ حاله، ورجع إلى وضع الناس الطبيعيين.

وعلى الداعى أن يحاول علاج هذا النوع من الشخصيات بمثل تلك الطرق وألا يدخر جهدا فى كل وسيلة أو أسلوب يمكنه من تحسين حالته وضمه إلى المجتمع، وأن يكرر معه المحاولة تلو الأخرى ولا ييأس من روح الله.

وأن يقدم له من الأعمال المحبب إليه، ويجعله على رأسه وتحت مسئوليته المباشرة؛ لأن ذلك يُشعِره بقيمته، ويُعيد له شخصيته الاعتبارية، ويحاول في

(١) سورة المائدة ـ من الآية (٢).

(٢) رواه الترمذى فى كتاب الجهاد باب (٤) ٤/١٦٥، وأبو داود كتاب الجهاد، ٣/٣٦ والمسند للإمام أحمد ٢/١٨٦.

(٣) رواه الترمذى فى كتاب الفتن باب (٧) ما جاء فى لزوم الجماعة (٢١٦٥) ٤/٤٠٤، والمسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/٤٤٦.

(٤) رواه أبو داود فى كتاب الصلاة باب التشديد فى ترك الجماعة رقم (٥٤٧) ١/١٥٠ والإمام أحمد فى مسنده، ٥/١٩٦.

علاجه التركيز علي أكثر الخصال التى تسبب له الاعتزال، فيحاول إزالتها بالأسلوب الحسن والطريقة المثلى، فأهم شىء هو أن يفهم الداعى الشخصية، ويفهم مرادها، فإن فعل ذلك سهل عليه العلاج، وكان علاجه ذا فائدة وصادفه النجاح.

المطلب الثانى: الشخصية الجماهيرية:

سمات هذه الشخصية تختلف عن سابقتها اختلافا بينا، حيث يمكننا أن نأخذ صفات الشخصية الأولى ونعكسها فنحصل على صفات الشخصية الجماهيرية... وصفوة القول: أن هذا الشخص نجده منفتحاً على الناس، يحب الجلوس إليهم والتخاطب معهم، وهو منبسط ومستبشر يفضل العمل الجماعى والاختلاط بالناس، وهو واقعى فى نظرته وتفكيره، غير تشاؤمى النظرة، ولا آحادى التفكير، كثير الاستشارة لغيره، متعاون، ليس بأنانى ذاتى، بل تفكيره وعقليته تعمل فى خضم الجماهير، ولا يميل إلى التفكير الفردى.

ومثل هذه الشخصية فى الغالب تكون محببة إلى الناس؛ لأن الناس ميالون إلى من يتعاطف معهم ومن يشعر بشعورهم، وعلى الداعى أن يعرف ما تصلح له هذه الشخصية من عمل، فيسلمه له، وأفضل الأعمال له ما كان له صلة بالجمهور، وما لا يحتاج إلى قرارات حاسمة وصارمة؛ لأن لهذا الشخص عقلية جماهيرية، والعقل الجماهيرى سريع التأثر بغيره، ويصلح للعمل الجماهيرى والتحميسى العاطفى الذى يراد منه حشد الناس حول فكرة معينة أو للقيام بعمل جماعى كبير يحتاج إلى حشد الناس وتجميعهم، ولا يصلح مثل هذا أن يوضع فى عمل على انفراد؛ لأن شخصيته لم تتهيأ لذلك ولا تتقبل مثل هذا العمل، بل سيفشل فيه، وهذا الشخص لا يصلح ـ كما قلنا ـ للقيادة؛ ذلك لأنه شخصية استهوائية، أى ميالة للاستهواء، حيث نجده يتأثر برأى غيره سريعا ويتقبله دون تكليف نفسه عناء فحصه إن كان مناسبا أم

لا، فقد تدخل عليه كثير من الآراء والأفكار الضارة أو غير المناسبة فى هذا المكان. . .

المطلب الثالث: الشخصية القيادية:

من الصعب ضبط ملامح محددة وثابتة للشخصية القائدة، وإن حاولت بعض مدارس علم النفس التماس ذلك، ولكنها تظل فى طور الفرضيات والنظريات الاجتماعية؛ لأن الواقع لا يسمح لنا بأن نجزم بتلك الصفات الثابتة، حيث نرى تنوعا كبيرا فى تكوين الشخصيات القيادية.

فبعض النظريات ركزت على الصفات الشخصية للقائد، وجعلتها هى الأساس، وبنت عليها نظرياتها حول صفات القائد[1].

والبعض الآخر نظر إلى نوع العمل القيادى الذى يقوم به القائد، وبنوا عليه دراساتهم حول الشخصية القيادية.

وبعض أصحاب نظريات علم النفس، ركز على دراسة شخصية القائد باعتبار نوعية الجماعة المقودة.

والبعض الآخر قال بصفات ومميزات وراثية وجسدية وعقلية ينالها القائد من أسلافه، تؤهله للقيادة.

ولكن لعل النظرة السليمة هى القول بالمزج بين تلك الاستنتاجات كلها؛ حيث لا مجال لترجيح واحدة على الأخريات؛ لأننا لا يمكن أن نهمل الاستعداد الفطرى الجبلى ولا الموهبة التى تصقلها التجارب والممارسة والتدرب منذ الصغر على القيادة، هذا كله مع المؤهل الثقافى التعليمى والبيئى وكذا التنشئة الأسرية لها مكانتها فى تكوين الشخصية القيادية، كما أن من كان آباؤه المباشرين أو غير المباشرين من ذوى التأهيل القيادى، فإنه

---

(١) انظر: السلوك الإنسانى، ص ٢٣٥ وما بعدها، د/ انتصار يونس.

ربما حاول أن يأخذ بزمام المبادرة؛ لكى يكون هو زعيما أيضا، سواء نجح أم لا.

كما أن لطبيعة العمل القيادى ولنوعية الجماعة المقودة أثراً فى تكوين شخصية القائد ونوع قيادته.

ولقد ذُكِرَتْ صفات عديدة للقائد، نجمل منها:

أن تكون شخصية متميزة عن الآخرين، وأن تكون لديه القدرة الى التخطيط والاستيعاب لمشكلات الجماعة المقودة، وأن يمثل الزعيم جماعته أو أمته خير تمثيل فى كل شئونها، وأن تكون مصلحة الجماعة أو الأمة فوق مصلحته الشخصية، وأن يكون قوى الإرادة، نافذ العزيمة[1].

إلى غير ذلك من الصفات القيادية الفذة التى يبعد أن تتوافر كلها فى بشر خلا الأنبياء.

أنواع القيادة:

يمكن أن نجمل أنواع القيادة وريادة المجتمعات التى تدل على شخصية القائد فى ثلاثة أنواع هى:

أولا: أنواع الزعامة من ناحية خصائص الزعيم وسبب اختياره:

وهذه تتمثل فى النقاط التالية:

١ ـ القائد الذى يُختار ويُنتخب بواسطة الجمهور انتخاباً حُرّاً مباشرا، وهذا النوع من القيادات ربما كان أفضلها، خاصة إذا كان الذين انتخبوه من ذوى الكفاية والعلم والنزاهة؛ وذلك لأننا نفترض أنهم ما اختاروه إلا لما رأوا فيه من خلال صفات حميدة وأهلية لم تتوافر كلها فى غيره، وراموا فيه

(١) انظر: علم النفس، أسسه وتطبيقاته التربوية، ص ٣٨٠، د/ عبدالعزيز القوصى.

الصفات التى تؤهله لقيادتهم من الكفاءة والمقدرة العقلية والعلمية والأمانة والشرف والحرص على مصالح الناس والتفانى فى خدمتهم، وهذه جملة الصفات التى يرغب الناس فيها.

والمثال الواقعى على ذلك اختيار قريش ورضاهم للرسول، صلى الله عليه وسلم، عندما وقع عليه التحكيم بأن يحكم بينهم فى شأن رفع الحجر الأسود فى الكعبة عندما جددوا بناءها، فلقد ارتاحوا جميعا عندما وقع الاختيار عليه، وقالوا مجمعين: هذا الأمين رضينا به[1].

٢ ـ النوع الثانى من أنواع القيادة بحسب خصائصه القيادية، ذلك النوع الذى يأتى للقيادة عن طريقه الخاص، وأعنى به، من يقود الناس رغم أنوفهم، مثل أصحاب الانقلابات العسكرية، وهؤلاء يعتبرون من أقل القواد نفعا للناس، ولا يعنى هذا أنه لا خير فيهم جملة، ولكننا نتحدث عن العموم، وربما كانوا أقل القواد كفاءة وخبرة؛ ولهذا نجد استمرارهم فى القيادة لا يطول بالمقارنة مع غيرهم، إلا من ظهر منهم صلاحه لها وإصلاحه للمجتمع، وهذا الحكم هو فى غير القائد المسلم الذى لا يحكم بهواه بل يحكم المقودين بكتاب الله وسنة نبيهم، وهذا ـ كيفما كان نوعه ومجيئه للحكم ـ أهل لذلك؛ والسبب أنه لا يقود الجماهير حسب هواه، بل بقيادة الإسلام لهم، وهى بداهة أفضل قيادة.

٣ ـ القائد بالوراثة، وهذا النوع من القياديين، لا نستطيع أن نحكم عليه حكما عاما نسوقه كقانون، لصعوبة إمكان ضبطه؛ لأنه ربما توافرت فيه كل الصفات الحميدة للقيادة إن كان رجلا صالحا، وربما انعدمت تماما، وربما كان وسطا؛ ولهذا فإن الحكم عليه يكون فرديا عند المعاينة؛ لأن الملوك غالبا ما يعتنون بتربية أبنائهم وتأهيلهم وإعدادهم لتحمل القيادة من بعدهم.

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١/ ١٤٢.

٤ ـ ربما كان القائد أتى إلى القيادة بحسب السلم الوظيفى والترقى المتدرج، وهذا النوع من حيث الأهلية ربما كان مؤهلا بحسب خبرته القديمة، أما من حيث الصلاح فأمره توقيفى حسب الشخص وتوجهاته.

٥ ـ بحكم السن، توجد بعض القيادات تتولى أمر القيادة بحسب العمر والسن، حيث تكون عادة الجماعة المقودة أن تولى أكبرها سنا، وهذا مثل سابقه ربما يكون صالحا أو غير صالح، وربما يكون كفئا أو غير كفء، والتجربة وحدها هى التى تحكم عليه، وكذا تقبل الجماهير له بعد توليه.

وهناك نوعيات أخرى من الزعامات، مثل توليه بحكم الثراء أو بحكم المكانة الاجتماعية. وكلها لا حكم عليها إلا بعد تجربتها.

ثانيا: القيادة من حيث نوعية الجمهور:

لنوعية الجمهور أثر بالغ فى نوعية الشخصية القيادية؛ ذلك لأن الذى يقود أناسا من ذوى العلم والكفاءة، ليس مثل الذى يقود مجموعة من العوام، كما أن الذى يقود أمة ليس مثل الذى يرأس فريقا صغيرا أو مجموعة عمل محدودة، ونستطيع أن نقول: إن نوع القيادة يعرف من خلال جمهوره؛ لأن الجمهور يؤثر فى القيادة مثلما تؤثر هى فيه، فهو منهم وإليهم.

ثالثا: نوع الشخصية القيادية حسب نوع العمل:

لطبيعة العمل الذى يؤديه القائد والدور المنوط به فى الجماعة أو الجمهور، أثر بالغ على شخصيته.

ولهذا نجد أن أهمية القيادة تعلو وتهبط بحسب مهام القائد الموكولة إليه، فكلما عظم دور عمله سمت شخصيته وعلا شأنه وارتفع فى المجد سهمه والعكس بالعكس.

إذن نوع العمل وطبيعته لهما دخل بارز فى الحكم على الشخصية، أو كما قال المتنبى:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم — وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها — وتصغر فى عين العظيم العظائم[1]

(١) انظر ـ ديوان أبى الطيب المتنبى ص ١٣٨، نشر دار الكتب ا لعلمية ـ بيروت.

المبحث الثالث
شخصية الداعي

إن الحديث عن شخصية الداعى لا يخرج ـ فى عمومه ـ عن الشخصية الإنسانية فى عمومها، ولكن لتميزها وتميز العمل الذى تقوم به الشخصية الدعوية ـ أفردنا لها الحديث، مع الأخذ فى الاعتبار عدم تكرار ما ذكرناه عن عموم الشخصية مما هو محل الاشتراك البشرى، حيث إن الخصائص البشرية العامة مشتركة؛ ولهذا فكلما التقى الحديث عن شخصية الداعى مع الشخصية العمومية، سوف نحيل على ما سبق كيلا نكرر أنفسنا، فالوقت يضيق عن ذلك ولا يتسع له.

المطلب الأول: عوامل تكوين الشخصية الدعوية وما يؤثر فيها:

انطلاقا مما ذكرناه سابقا ـ من أننا لن نكرر الحديث الذى تقدم، إذا لم تكن ثمة زيادة ـ فإننا نحيل القارئ على ما سبق ذكره باستفاضة حول عوامل تكوين الشخصية فى الفصل الثانى[1]؛ لأن العوامل المؤثرة فى تكوين الشخصية مشتركة ومتطابقة، والداعى هو فى الأساس شخص ينتمى إلى الجنس البشرى، ويؤثر فيه ما يؤثر فيهم، ويجرى عليه ما يجرى عليهم. هذا

(١) انظر: صفحة: ٩٨.

كله فى الأساس البنيوى المشترك، وما خلا ذلك من الخصائص المكتسبة، فسوف نعالجه على انفراد فيما يلى.

المطلب الثاني: عوامل بناء وتنمية الشخصية الدعوية:

الشخصية الدعوية، إن تركت لعوامل التكوين العامة المذكورة سابقا، فإنها سوف تتعثر كثيرا، ولن تؤتى الثمار المرجوة منها؛ ولهذا لابد أن تفرد لها عناية خاصة ورعاية شاملة من كل الجهات التى تقوم على أمرها وتشرف على شئونها، ابتداء من الأسرة، وانتهاء بأعلى جهة من تلك الجهات؛ حتى تكون ناهضة بالمهام التى تقوم بها، وهى الدعوة إلى الله، وتكون على مستوى المهمة المنوطة بها، ولقد ذهب الوقت الذى تعطى فيه الدعوة البقايا والفتات والفضلات، وليعلم الجميع أن الله، تعالى، اصطفى لها أفضل البشر وتعهدهم بالرعاية والصياغة والتنمية الشاملة منذ الصغر حتى غدوا أهلا لما يلقى عليهم من إصلاح حال البشرية، وهذا ما صرح به خاتمهم وأفضلهم محمد، صلى الله عليه وسلم، بقوله:

(أدبنى ربى فأحسن تأديبى)[1].

ومن أهم ما تُبنى به الشخصية الدعوية، أن تكون قوية مؤثرة ذات إرادة وعزيمة ومضاء؛ حتى تكون شخصية قيادية، وهذا المفهوم الأخير هو حجر الزاوية؛ حيث إن الداعية لابد أن تكون فيه الصفة القيادية ما استطاع ذلك، وهذا كله يمكن أن يكتسب بالمران والدربة.

إن من أكثر ما يقوى الشخصية وينمى فيها العزة والعزم، كسر الحاجز

(١) انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس، للعجلونى ١/ ٧٢، والفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة، ص ٣٢٧، وتذكرة الموضوعات للفتّنى، ص ٨٧، برقم ٣١٨٩٥. وكنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال. وذكره ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة، ص ٧٢. والحديث ضعيف حسب سنده، ولكن معناه صحيح.

النفسى الذى يفرضه العدو القوى؛ ليحبط به نفسية الداعى، ويجعل شخصيته مهزوزة وخوَّارة لا تقدم على قرار ناجز وفاعل ومؤثر، وهو أشبه بما يسمى بالحرب النفسية فى أيام الحروب، لاسيما فى عصرنا الحاضر، عصر الإعلام الذى يمارس ذلك من أوسع أبوابه، خاصة الإعلام المعادى للإسلام؛ حيث يملك قوة الانتشار وقوة الإسماع بما لديه من وسائل تقنية تعينه على ذلك، فقوة شخصية الداعى تعينه على نقل فكرته إلى غيره وتوصيلها بصورة جذابة وقوية وذات تأثير، ولكن قبل ذلك لابد أن يمتلك هو ذلك؛ حتى يستطيع نقله لغيره، بأن تغرس فيه هذه القوة وتنمى تنمية مستديمة حتى يشعر بها وبعزتها.

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتعهد أصحابه بذلك يُسَدِّد ويتمم: كلما رأى خللا سده، وكلما رأى ضعفا قواه، حتى غدوا أقوى ما تكون الشخصية وأثبت، فحملوا الدعوة شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، وطافوا بها أرجاء المعمورة لا يركعون إلا لله، ولا يخافون إلا من الله، ولا يذلون إلا لله، ولا يرهبون إلا الله... ولنأخذ نماذج من ذلك التعهد الإنمائى لتقوية الشخصية:

كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، بعد الحادثة التى عاتبه فيها الله، تعالى، مع ابن أم مكتوم، عندما جاءه ومعه أكابر قريش يدعوهم إلى الله، كان بعد ذلك العتاب التربوى من الله لرسوله، يقرِّب ابن أم مكتوم إليه ويدينه من مجالسه؛ لأن الله أراد ألا تكون شخصية المؤمن ضعيفة أمام الأعداء وألا يكون المسلم فى استكانة وامتهان، وعدوه فى عزة ومنعة، وقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم يصرح ويعلن أمام ابن أم مكتوم (مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى...)[1]؛ لكى يرفع من معنوياته، ويقوى

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٩/ ٢١٣.

شخصيته التى ربما يكون مسها شيء بسبب انصرافه عنه، لذلك العمل الجماعى الدعوى، الذى لم يرد الله أن يكون على حساب الشخصية الإسلامية مهما كبر حجمه؛ لأن قوتها تجلب الكثير الكثير للدعوة، فتعاهده الرسول، صلى الله عليه وسلم، حتى بلغ به أن استخلفه مرتين على المدينة، إماما ومصليا بالناس.

ولقد زوج النبى، صلى الله عليه وسلم، بنت خالته زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة، وكان هذا أمرا عظيما عند العرب أن يتزوج مولى من سيدة من بنات السادة، ولكن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أراد كسر هذا الحاجز الجدارى الجاهلى؛ تقوية للشخصية الإسلامية الدعوية.

بل قد يرى شخصية صغيرة فى السن، ولكن يروم فيها كبر المعنى ورجاحة العقل، فيعمل على تنميتها ورعايتها حتى تغدو ذات شأن، وهذا ما فعله مع أسامة بن زيد عندما ولاه قيادة الجيش لفتح بلاد الروم، مع وجود كبار الصحابة مثل أبى بكر وعمر، وما أدراك ما هما؟

وعندما تململ بعض الناس من إمارته؛ نظرا لصغر سنه الذى ربما جعله أقل كفاءة فى نظرهم لقيادة جيش يحارب واحدة من القوى الكبرى فى ذاك الوقت ـ قال لهم الرسول، صلى الله عليه وسلم:

(إن تطعنوا فى إمارته، فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه قبلُ، وَايْمُ الله إِنْ كان لَخليقاً للإمارة، وإِنْ كان لَمن أحب الناس إلىَّ، وإن هذا لَمن أحب الناس إلىَّ بعده)[1].

ولقد فعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذلك أمامه ليقوى شخصيته

(١) متفق عليه: البخارى ـ كتاب فضائل الصحابة، باب (١٧) مناقب زيد بن حارثة، حديث رقم (٣٧٣٠) الفتح ٧/ ٨٦، ومسلم كتاب فضائل الصحابة (٦٣ ـ ٦٤)، والمسند ٢/ ٢٠، والترمذى كتاب المناقب باب (٤٠) مناقب زيد بن حارثة، حديث رقم (٣٨١٦) ٥/ ٦٣٥.

ويعتد بإسلامه، وليعرف الآخرون أن الشخصية الإسلامية لا تقاس بالأعمار، ولا بالأجسام، ولا بالأحجام، بل بقوتها الإسلامية وعزتها بإيمانها وإسلامها، وهذا ما ظهر فى شخصية ربعى بن عامر عندما قال لقائد الروم، وهامته تعلو فى الثريا:

(الله ابتعثنا لنخرج عباده من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)[1].

ومنهج تنمية الشخصية هو الذى ربى عليه الرسول، صلى الله عليه وسلم، أصحابه ـ كما قلت ـ وتعاهدهم به، فهاهو عندما هفا أبو ذر الغفارى هفوة كانت مجرد زلة لسان عابرة، فى ساعة غضب، ،مُعَيِّراً رجلا بأمه، فغضب الرسول، صلى الله عليه وسلم، واشتد غضبه أن يذل مسلم مسلما، وأن يكسر مسلم شوكة أخيه فألقاها فى وجه أبى ذر دون أن يسمح للزمن أن يمر فتتغلغل فى أعماق النفس غائرة تاركة ندوبا قد لا تندمل بيسر، وقد تسرى للأجيال:

(يا أبا ذر، طف الصاع! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل...) ووبخه بزيادة قوله: (يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية!!)[2].

وسرعان ما غَلَتْ الكلمة النبوية فى دماغ أبى ذر، وضاقت بها نفسه، فأقسم على بلال ألا يدعه حتى يطأ برجله على خده الذى رمى به على الأرض!!

وبمثل هذا الدفع القوى تدفع الشخصية الإسلامية للقوة والمضاء الأَحَدِّ من

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٧/٣٩، نشر مكتبة المعارف بيروت.

(٢) البخارى، كتاب الإيمان، باب (٢٢) المعاصى من أمر الجاهلية، حديث رقم (٣٠) الفتح ١/٨٤ وأول الحديث رواه ابن المبارك فى البر والصلة.

شفرة الحسام المهند. وتمضى عجلة التاريخ ويتولى أبو بكر الخلافة، فكان أول عمل خارجى يقوم به هو إنفاذ بعثة أسامة واستكمال إمرته، ويخرج الخليفة مع القائد الشاب المصعَّد، وهو راكب والخليفة إلى جانبه يمشى، فيستحى الشاب القائد من ذلك، فيلح عليه بأن يركب، قائلا له: يا خليفة رسول الله، لتركبن أو لأَنْزِلَنَّ، ولكن الخليفة المربى يقسم قائلا: والله لاتنزل، ووالله لاأركب، وما عَلَىَّ أن أُغَبِّر قدمى فى سبيل الله ساعة؟[1].

المطلب الثالث: الاستقلال والتحرر الفكرى:

الداعى المسلم ما ينبغى له أن يكون إِمَّعَةً ينعق مع كل ناعق، ولا ذيلا يُجَرُّ فى كل اتجاه، بل هو شخصية قائمة بذاتها، متحررة كن كل تبعية بأى نوع كان.

هذه الاستقلالية موجودة ومتأصلة فى النظام الإسلامى، فهو أبدا لم يكن يوما من الأيام ضعيفا يحتاج إلى من يقويه ويسنده؛ لأن الله جعله خلاصة الأديان وثمرتها، مثلما جعله منهج كل الشعوب وكل العصور، إن دينا بهذه الميزة لا يمكن أن يحتاج إلى زيادة أو ترقيع.

وما أصاب المسلمين من تدن وانحطاط فببعدهم عن هذا المنهج الربانى، وتجافيهم عن خصائصه التى تَفَرَّدَ بها، فَقَصَوا عنه فافترستهم الذئاب: (وإنما يأكل الذئب القاصية)[2].

ولقد عاب الإسلام على الذيليين العالة على غيرهم فى الفكر والمنهج والأسلوب، وسخر منهم ومن أطروحاتهم القائلة:

﴿ ... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[3].

(١) انظر: فى ظلال القرآن، ٦/ ٣٨٢٩.
(٢) سبق تخريجه، انظر ص ١٣٦، من هذا الكتاب.
(٣) سورة الزخرف - من الآية (٢٢).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[1].

ولقد حرر الإسلام الشخصية الإسلامية من عقدة (الكبار) والتبعية لهم حذو القذة بالقذة، ولم يكبر لدى المسلم سوى الله، سبحانه، وهذا هو المنهج الإسلامى الذى جعله شعارا عباديا للمسلم فى الصلاة التى تكرر خمس مرات فى اليوم، يتكرر التكبير لله فى كل حركة منها من خفض ورفع، ولا توجد حركة فى الصلاة إلا وفيها تكبير لله، عز وجل، حتى يصل عدد التكبير للصلوات المفروضة فقط غير السنن والنوافل إلى أربع وتسعين تكبيرة، ويزداد العدد تصاعديا بعدد السنن الرواتب والنوافل.

ومن المعلوم أن للتكرار أثرا بالغا على الشخصية، فإذا كان التكرار لشىء محمود ومن الفضائل، فإنه يقوى الشخصية ويزيدها نصاعة وعزما، والعكس إن كان التكرار فى شىء ردىء، (فالإعلان الذى يتكرر فى أوقات مختلفة غير متباعدة نجده يترك أَثَراً قويا فى نفوس المشاهدين)[2]، ويظهر هذا الأثر جليا فى الإعلان الدعائى لترويج السلع التجارية والكتب والأفلام، حيث يقبل الناس على السؤال عن تلك المنتجات لشرائها أو تلك الأفلام لاقتنائها أو مشاهدتها فى مكان عرضها..

إذَنْ الشخصية الإسلامية الحقة لا تعرف التبعية أو الانهزامية النفسية التابعة لغيرها ولا تتعامل برد الفعل والتداعى الفكرى التراكمى والتعقيبات على هوامش الآخرين، بل هى ذات فكر مبدع مستقل وعقل متحرر من قيود الزمان والمكان ومنطلق من ظرفيتها ومحدوديتها.

---

(١) سورة البقرة ـ الآية (١٧٠).

(٢) انظر. علم النفس، أسسه وتطبيقاته التربوية، ص ١٧٤، د/ عبدالعزيز القوصى.

يقول، صلى الله عليه وسلم:

(لا يكون أحدكم إِمَّعَةً، يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم)[1].

والشخصية الدعوية محررة من قيود التبعية النفسية التى تهزم النفس وتجعلها مستسلمة لغيرها، لاهثة وراء فكرة مزدردة لإنتاجه من غير فحص، ملقية كل ما يحصل لها من مشاكل وعقبات على الآخرين أصحاب الفكر الطاغى، وهذه العلة تظهر عند المتخلفين عن ركب الإيمان أصحاب الغلالة الرقيقة من الدين الممتطين صهوة جواد غيرهم ممن يسمونهم (بالكبار) الذين صغروا فى العين الإسلامية، وكبروا لدى الانهزاميين.

لقد أبعد الإسلام الشخصية الإسلامية من كل تبعية تخل بها، سواء أكانت تربوية تعليمية، أو ثقافية عامة؛ حتى تنمو الشخصية على استقلاليتها وتفردها بخصائصها المتميزة.

ولهذا عندما رأى الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوراة نهاه قائلا:

(امتهوكون فيها يابن الخطاب، والله لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى). ونهى عن تقليد ومحاكاة اليهود والنصارى فى كثير من الأمور التى لها أثر فى اختلال الشخصية الإسلامية، مثل الألبسة الخاصة بديانتهم، والأكل بالشمال، والسلام بالتحية الخاصة بهم ذات الطقوس الدينية، وكل ما يخل بالمظهر الشكلى للمسلم؛ حتى لا تنطمس معالم الشخصية الإسلامية وتنمحى هويتها، وتذوب فى الأمم الأخرى.

---

(١) سنن الترمذى، كتاب البر، باب (٦٣).

ومن ملامح الشخصية الدعوية، القدرة على الجذب والاستمالة واستهواء الآخرين، ومن وسائله لذلك سعة اطلاعه وغزارة علمه، وخصوبة ذهنه، ودماثة خلقه ولين عريكته وأريحيته. ولقد كانت هذه الصفات وأكثر منها تتوافر فى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وورثها عنه صحابته وكثير من الدعاة من بعده، وكانت تمر به مواقف كثيرة كان يتخلص منها بمثل تلك الخلال، من ذلك موقف بعض الأنصار معه بشأن تقسيم الغنائم عندما لم يبق منها شىء لهم، وكان أكثر من أخذ منها من المهاجرين، فخاف أن يؤثر ذلك على الأنصار، فيؤثر بدوره على مسيرة الدعوة وعلى منهج الإسلام القائم على التسوية بين الناس وعدم المحاباة والتفريق بسبب العصبية والقرابة أو الجوار أو المصالح المشتركة، كما يحدث فى الأنظمة غير الإسلامية، فتدارك الرسول، صلى الله عليه وسلم، الموقف وابتدرهم بحديثه النافذ إلى القلوب، المقنع للعقول، كما حدَّث به أبو سعيد الخدرى قائلا:

(اجتمع أناس من الأنصار، فقالوا: آثر علينا غيرنا!! فبلغ ذلك النبى، صلى الله عليه وسلم، فجمعهم ثم خطبهم، فقال: يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله؟! قالوا: صدق الله ورسوله: قال: ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله؟! قالوا: صدق الله ورسوله: قال: ألم تكونوا فقراء فأغناكم الله؟! قالوا: صدق الله ورسوله: قال: ألا تجيبوننى؟! ألا تقولون: أتيتنا طريدا فآويناك!! وأتيتنا خائفا فأمناك؟! ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبقران - يعنى البقر - وتذهبون برسول الله، صلى الله عليه وسلم، فتدخلونه بيوتكم؟ لو أن الناس سلكوا واديا أو شعبة وسلكتم واديا أو شعبة، سلكت واديكم وشعبكم، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، وإنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض)[1].

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده، ٣/ ٥٧.

وبهذا الأسلوب الفذ استمالهم وجذبهم إليه راضين مسرورين. وهكذا ينبغى أن تكون شخصية الداعى، يدرس نفسيات المدعوين وسلوكهم ويعطيهم ما يصلح حالهم.

المبحث الرابع
أحوال الشخصية

الإنسان بشر مخلوق من تراب ومن نفخة روحانية صافية؛ ولهذا الازدواج فهو لا يثبت على وتيرة واحدة، بل أحواله دائمة التقلب والتحول، من وقت لآخر، ومن مكان لآخر، ومن طور إلى طور، ومن صحة إلى مرض، ومن ضعف إلى قوة، ومن تقلب فى الأخلاق والأمزجة... حسب ما يمر عليه من عوامل تؤثر فى ذلك كله.

ولهذا فقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يدعو باستمرار ويقول:

(يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك)[1].

وكان يقول معللا ومفسرا ذلك التحول الذى أشرنا إليه:

(ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع رب العالمين.إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه)[2].

نجمل تلك الأحوال فى المطالب الآتية:

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٤/١٨٢ وسنن الترمذى، كتاب الدعوات باب (٩٠) حديث (٣٥٢٢) ٥/٥٠٣.

(٢) نفس المرجعين السابقين بنفس الصفحات والأبواب والكتب.

المطلب الأول: عوامل تغيير الشخصية:

هناك أمور عديدة - ربما لا يستطيع باحث أن يحصيها - تؤثر على الشخصية وتجعلها تتغير من حال إلى حال، وهو أمر يلزم الداعى مراعاته لدى المدعوين؛ كى لا يأخذ الناس فى كل وقت ومكان بما كانوا عليه وبما ألفهم عليه، فلابد أن يلاحظ ما يطرأ على الناس من تغيير. وهذه بعض الملاحظات على عوامل تغيير الشخصية نلخصها فى النقاط التالية:

١ - عامل السن:

هذا العامل يمكن أن يلاحظه حتى الإنسان العادى؛ ذلك لأن الإنسان يتغير فيه كل شىء بحكم السن، فشخصية الصبى غير شخصية الشاب، وهذه تختلف عن شخصية الكهل التى هى بدورها تباين الشخص عندما يصل إلى مرحلة الشيخوخة، وتبعا لذلك يتغير السلوك العام بما فيه التعامل مع الناس، ومع النفس، حيث يتغير اللباس والمركب والتوجه العام وتركيب الجسم، طوله وعرضه... ويتبع ذلك النفس والروح والمزاج، ويختلف التفكير، والطموح، فتفكير الصبى وطموحاته غير تفكير الشاب وما بعد تلك السن...

والله، سبحانه، بين ذلك أفضل تبيين فى كتابه الذى حوى كل شىء عن الإنسان والكون، وهو خالق النفس وبارئها، حيث أشار إلى تلك التغيرات التى تطرأ على شخصية الإنسان من حين لآخر حتى يتوفاه الله، فى إجمال معجز مبين، فبعد أن ذكر أطوار خلقه فى بطن أمه، قال فيه عند خروجه.

﴿... ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا...﴾[1].

(١) سورة الحج - من الآية (٥).

ثم ذكر بعض تفاصيل تلك الأحوال فى تغير الشخصية فى آية أخرى حيث نص على فترة من فترات التغير العمرى لم تذكر صراحة فى الآية السابقة، وهكذا يفصل القرآن فى مكان ما يجمله فى مكان آخر؛ لتتكامل الصورة التركيبية للحدث فى ذهن القارئ؛ تقريبا لمفهوماتها له، وهذا من معجزات التكرار فى القرآن، حيث كل مكرر لابد له من فائدة وميزة، أدركنا ذلك أم لم ندركه. . .

يذكر الله، تعالى، أطوار خلق الإنسان منذ آدم وفى بطن أمه، ثم يقول عنه بعد الخروج إلى عالم الشهود:

﴿ ... ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

ويشير القرآن فى تفصيل آخر للتغيرات التى تطرأ على الشخصية، ذاكرا لها من جانب آخر، وبألفاظ آخرى تتناول جانبا حيويا فيها وعنصرا فعالا لا تقوم الشخصية ولا تعرف إلا به، وهو جانب القوة والضعف فى الشخص، فيقول، تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[2].

٢ ـ التعليم والثقافة:

العامل التعليمى والثقافى من أهم العوامل التى تؤثر فى تغيير الشخصية، وكلما زادت ثقافة الإنسان عملت تلك الزيادة عملها فى تغيير الشخصية، بل

---

(١) سورة غافر ـ من الآية (٦٧).

(٢) سورة الروم ـ الآية (٥٤).

نوعية الثقافة وكميتها تغير الشخصية بكل مقوماتها السلوكية وتُحَدِّد معالمها البارزة، فأنت أول ما ترى الشخص من على بعد ومن خلال مظهره الخارجى تعرف إن كان متعلما أو عاميا، فى الغالب، أما عندما يحادثك ويجالسك فإنك تستطيع أن تحكم عليه من منطقه إن كان عاميا أو متعلما، وإن طالت مجالستك أو مناقشتك له عرفت عنه أكثر من مجرد التعليم؛ لأنك حينئذ تحدد مدى ما يحمل من ثقافة ومعارف، علاوة على الشكل والهندام فى عمومه.

والله، سبحانه، زود الإنسان بآلات ووسائل اكتساب المعارف، مما جعله مؤهلا لذلك، ولكنها تتدرج خطوة بخطوة مع نموه العضوى والجسدى، حتى إذا وصل إلى مراحل الصبا والشباب وما بعدها أصبح قادرا على التلقى الكامل، فى الوقت الذى خرج فيه لهذا الوجود وهو لم يكن معه من شىء سوى امتلاكه لتلك الآلات، ومن العجيب المعجز أن هذه الأدوات توجد عند الحيوان، وتتشابه مع أدوات الإنسان فى عمومها، خاصة عند صغره، ولكن الفارق المعجز هو أنها عند الإنسان تنمو نموا معرفيا، لا نموا عضويا فحسب، ولكنها عند الحيوان، من حيث النمو المعرفى نجدها تراوح مكانها مهما تقدمت سنه، فسبحان الله، الذى جعلها للإنسان مدركة وللحيوان مُصْمَتَةً مغلقة، ولهذه الميزة فقد امتن الله على الإنسان مذكرا إياه بفائدتها:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

فالتعليم والثقافة من ملامح تحديد الشخصية، فما على الدعاة إلا مراعاتها وملاحظتها للاستفادة منها عند تقديم الدعوة، حتى يحددوا لكل شخصية ما يناسبها.

---

(١) سورة النحل ـ الآية (٧٨).

٣ ـ المركز الاجتماعى أو السياسى:

تتغير شخصية الإنسان تبعا للمكانة التى ينالها فى المجتمع، فإذا كان فى بادئ الأمر من عامة الناس وجملتهم، ثم أصبح قائدا ورائدا فيهم، أو اعتلى منصبا سياسيا فإنه يتغير سلوكه كله تبعا لذلك الوضع الوظيفى الجديد، فقد يكون فى أيامه الأولى يأتى بعض الأفعال أو الأقوال، ولكن بعد توليه ذلك المنصب لا يسعه أن يفعل أو يقوم بذلك أو كان يرتاد أمكنة بعينها فلا يمكنه ارتيادها بعد المنصب، أو كانت له علاقات وارتباطات من قبل ربما تنقطع من بعد ذلك، وكذا يقال فى المسكن والمركب وطريقة المعيشة... الخ، وهذا تحول ظاهر بيّن فى الشخصية، بل ربما منعه ذلك من أمور ومصالح مفيدة كالتعليم أو الثقافة التى تتطلب الانتقال لمكان معين أو التلمذة والدراسة... ولهذا ورد عن عمر، رضى الله عنه: (تفقهوا قبل أن تسودوا)[١].

ومن هنا لزم الدعاة أخذ ذلك التحول فى الحسبان وإعداد العدة لما يناسبه وحاله الجديد؛ لأن دعوة هؤلاء ليست كدعوة غيرهم، ودعوة الخاصة تفارق دعوة العامة، والوسائل والأساليب المستعملة لهؤلاء قد تختلف عن تلك المستعملة لغيرهم[٢]، كما أنه تبعا لتغير المكانة والوضع تتغير النفس، فتحتاج فى التعامل معها إلى ما يواكب ذلك التغير.

٤ ـ بعض الأحوال التى تطرأ على الشخص مثل:

انتقال الفرد من حالة عدم التدين إلى حالة التمسك بأسس الدين والاعتناء بآدابه والتخلق بأخلاقه ونهج سلوكه، فتتغير الشخصية هنا تغيرا أساسيا، كما أن العكس هو كذلك فى تغير الشخصية، أى الانتقال من حالة

---

(١) رواه الدارمى فى سننه فى المقدمة، باب، فى ذهاب العلم، ١/ ٧٩.

(٢) للتوسع فى دعوة الزعماء ووسائلها وأساليبها وفوائدها... انظر المنهج العلمى للدعوة للمؤلف ص ٢٩٠.

التمسك بتعاليم الدين إلى التحرر الكامل منها، حيث يتبع ذلك تغير فى سلوك الشخصية يلزم أخذه فى التعامل معه.

المطلب الثانى: طرق معرفة التغيُّر فى الشخصية:

يوجد كثير من الطرق التى يمكن عن طريقها أن نعرف تغير الشخصية، وإن كانت غير قاطعة كلها، ولكنها تصدق فى كثير من مضامينها؛ وذلك لأنها تعتمد على الملاحظة والتدقيق، وهذه وسائل تختلف باختلاف الباحثين، نذكر من تلك الطرق:

١ ـ يمكن أن نتعرف على تغير الشخصية من ملامح سلوكها الخارجى، مثل تغيير اللباس الذى كان يظهر به الشخص ويواظب عليه، وما دلالة هذا اللباس الجديد على سلوكه؟ وهل التغير إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟ ولماذا غيّر من هذا إلى ذاك؟ وهل لضغوط عليه من الخارج أم باختياره المحض؟

وكذلك عن طريق تعامله مع الناس مقارنة بتعامله السابق والوسائل التى كان يستخدمها سابقا بالتى يستعملها فى الوقت الحاضر... كل هذه الظواهر السلوكية الخارجية تدلنا على مدى التغير الذى حدث للشخصية.

٢ ـ يمكننا أن نتعرف على تغير الشخصية عن طريق التقويم الفكرى للشخص وما حدث فى فكره من تغير، وذلك عن طريق فحص إنتاجه العلمى، مثل الكتب التى أصدرها حديثا واتجاهاته فى الكتابة والموضوعات التى يدور اهتمامه حولها، وكذلك كتاباته السيارة اليومية للمجلات والصحف، مع فحص نوعيتها مقارنة بما سبق له من كتابات مماثلة...

وكذلك إن كانت له مذكرات شخصية تشرح منهجه أو التغير الذى حدث له، فى أطوار حياته المختلفة.

٣ ـ وثمة وسيلة أخرى يمكن أن نستقى عن طريقها التعرف على التغير فى الشخصية، وذلك عن طريق متابعة وفحص ما يكتبه عنه الآخرون ونقدهم له وتقويمهم له... كل ذلك يمكن أن يكون طريقا لمعرفة تغير الشخصية.

ومع ذلك نقول بصعوبة التوغل فى الدراسة النفسية للشخص، وبالتالى لا يمكن القطع بتلك الوسائل، ولكنها مؤثرات قد تصدق على بعض الصور، ولا تصدق فى غيرها...

المطلب الثالث: ملامح الشخصية:

نعنى بملامح الشخصية هنا، تلك الظواهر والدلالات التى يمكن من خلالها التعرف على الشخصية من حيث صلاحها وعدمه، أو بمعنى آخر، التعرف على الشخصية السوية والأخرى المرضية المضطربة؛ لأن التعرف مهم جدا للدعاة فى التعامل مع الناس حسب أحوالهم ليمكنهم من الإفادة لهم بما يصلح أحوالهم فى الدنيا والآخرة، وهذا هو المقصد الأساسى للدعاة، ولنبدأ بالتعرف على بعض تلك الملامح بإيجاز فيما يلى:

أولا: الشخصية السوية:

المقصود بالشخصية السوية، تلك التى تنظر إلى ما حولها نظرة موضوعية معتدلة متفائلة، راضية بما قسمه الله لها، بعد السعى والاجتهاد المطلوب من البشر، وهى التى توازن بين ما لها وما عليها ولا يجرمنها بعد ذلك شنآن الناس من حولها، وهى التى تسعى لإصلاح ما أفسده الناس على بعضهم بعضا.

هذا فى مجملها، أما علماء النفس فإنهم لم يتفقوا على ماهيتها وانضباطها وتحديد مفهومها، وذلك حسب نظرة كل مدرسة من مدارس علم النفس[1]، وأعدلها يرى أن (السلوك السوى يختلف عن غير السوى بمقدار ما يحققه للفرد من توافق وتكيف، ويعينه على خفض وتحمل الإحباط...)[2]، ويرون أنه ليس هناك حدود فاصلة بين الشخصيتين، السوية وغير السوية، كما أن السلوك يرجع إلى أعراف المجتمعات، حيث يكون السلوك السوى فى بلد هو غير السوى فى بلد آخر... وهكذا تختلف المعايير عندهم، حيث لا ضابط يقاس به غير العادات والتقاليد!!

أما عندنا، معشر المسلمين، فإن معاييرنا منضبطة متزنة؛ وذلك لاتحاد المصدر الذى يؤثر على الشخصية من حيث الحكم على استوائها وعدمه، ولعلنا نلتمس ذلك من القرآن والسنة، وهما المعيار الثابت للشخصية السوية وغيرها، فمن تلك الملامح البارزة للشخصية السوية ما يلى:

١ ـ الإيمان الكامل واليقين المطلق بالله، تعالى، وأنه واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وأنه متفرد بالصفات والأسماء والعبادة، وأنه مدبر هذا الكون والقائم على أمره: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ... ﴾[3].

وإن هذا الايمان يقود الشخصية السوية إلى معان أخرى أكمل وأجمل وأفضل، حيث الطمأنينة والسكينة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ... ﴾[4].

(١) انظر: مدخل إلى الطب النفسى، ص ٤٧٢، د/ الزين عباس عمارة.
(٢) انظر: السلوك الإنسانى، ص ٣٦٨، د/ انتصار يونس.
(٣) سورة الأنبياء ـ من الآية (٢٢).
(٤) سورة فصلت ـ الآية (٣٠) وصدر الآية (٣١).

ومن ملامح الشخصية السوية الاهتداء إلى معالى الأمور والابتعاد عن أسافلها، والسير على المنهج القويم والصراط المستقيم، وهى التى وصفها الله بقوله:

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾[1].

وهى المذكورة فى الجزء الثانى من الآية وهو الذى يمشى سويا، كناية عن الاعتدال والاستقامة، وهو الذى يمشى سويا فى طريق ينظر الناظر إليه فلا يرى فيه عوجا ولا أمْتاً..

(إن الحال الأولى هى حال الشقى المنكود الضال عن طريق الله، المحروم من هداه، الذى يصطدم بنواميسه ومخلوقاته؛ لأنه يعترضها فى سيره، ويتخذ له مسارا غير مسارها، وطريقا غير طريقها، فهو أبداً فى تعثر، وأبداً فى عناء، وأبداً فى ضلال.

والحال الثانية هى حال السعيد المجدود[2] المهتدى، المتمع بهداه، الذى يسير وفق نواميسه فى الطريق اللاحب[3] المعمور، الذى يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد، وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء.. إن حياة الإيمان هى اليسر والاستقامة والقصد..)[4].

٢ ـ إن الشخصية السوية وَسَطٌ فى أحوالها كلها، فلا ترى فيها شَطَطاً ولا غُلُواًّ، ولا جفاء وجفوة، ولا غلظة، ولا رخاوة، ولا تراخيا يقعدها ويفتر

(١) سورة الملك ـ الآية (٢٢).

(٢) المجدود: أى المحظوظ.

(٣) الطريق اللاحب: أى الواضح البين.

(٤) فى ظلال القرآن، ٦/ ٣٦٤٤، سيد قطب.

بها عن العمل الصالح، ولا تكبُّراً ولا تجبُّراً ولا علوا فى الأرض، بل هى شخصية عباد الله المخلصين، عباد الرحمن الخاشعين المخبتين لربهم، ولا نجد لهم وصفا أكمل وأجمل من وصف القرآن لهم: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[1].

وأصحاب الشخصية السوية هم الذين حسن خلقهم، وكمل تعاملهم مع غيرهم، فلا يظلمون الناس، وبالتالى لا يسمحون لأحد بأن يظلمهم، فهم فى عون الناس، والناس يحبونهم ويألفونهم لتواضعهم ولين جانبهم، الذين وصفهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله الجامع: (إن أحبكم إلَىَّ وأقربكم منى فى الآخرة محاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلَىَّ وأبعدكم منى فى الآخرة مساوئكم أخلاقا، الثرثارون المتفيهقون المتشدقون)[2].

والأمة الإسلامية، فى جملتها، شخصيتها سوية بالنسبة لبقية الأمم لسيرها على المنهج الحق الذى لم تطله يد بشر بالتحريف، ولأن منهجها الإسلامى وَسَطٌ، ولقد شهد لها خالقها بذلك:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[3].

٣ ـ والخلاصة، أن الشخصية السوية هى الجامعة لخصال الخير بقدر

(١) سورة الفرقان ـ الآيات (٦٣ ـ ٦٧).

(٢) مسند الإمام أحمد ١٩٣/٤ .

(٣) سورة البقرة ـ من الآية (١٤٣).

استطاعتها، أو الساعية لها المحبة لها، هى التى تأتى أوامر ربها، وتجتنب نواهيه ومحرماته، وهى المؤمنة بقضاء الله وقدره، ذات التكيف السريع مع كل وضع وحال، رضاء بذلك القضاء الربانى، وهى الرجاعة عن المعاصى الأوابة المخبتة لربها..

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

ثانيا: الشخصية غير السوية:

نقصد بها الشخصية المريضة المنحرفة عن السلوك السوى المتعارف عليه عند العقلاء الراشدين، وهذا المرض أنواع شتى منه ما هو عقلى مثل الذهان بأنواعه، وآخر نفسى وعقلى مثل العصاب بأنواعه أيضا[2].

وقد تحدث علماء النفس عن الشخصية المرضية بأنواعها مثل الشخصية العصابية والشخصية الذهانية، والشخصية اللاأخلاقية وغير المتوازنة...

ونحن هنا يهمنا بصفة أساسية المرض النفسى للشخصية بالدرجة الأولى؛ وذلك لأن الآخر يمكن التماس العلاج له بواسطة الطب البدنى؛ لأنه ناشئ عن مرض عضوى.

وسوف نقتصر على عدد يسير من ملامح الشخصية المريضة.

١ - الشخصية الشهوانية:

هذه الشخصية من ملامحها البارزة التقلب فى أهوائها من حال إلى حال، فهى لا تثبت على حال بعينه، وشخصيتها متذبذبة متنقلة طوافة، كما

(١) سورة آل عمران - الآية (١٣٥).

(٢) انظر: من علم النفس القرآنى، ص ١١٣، د/ عدنان الشريف.

تتسم بالأنانية وحب الذات والجشع الزائد فى جميع ما تقع عليه عينها أو تناله يدها، فهى شرهة نهمة ذات مطامع عريضة وبخيلة بما تحت يدها، كنوز ومقترة، وتتميز بسرعة الانفعال والهور، ويسميها علماء النفس بالشخصية (السيكوباتية)[1].

ومن معالمها الخروج المستمر على التقاليد والعادات والأعراف المألوفة فى البيئة، كما تتميز بالكذب والخداع وتدبير الحيل الماكرة، ولا ينقصها الذكاء، وبالجملة، فهى مخادعة مراوغة انتهازية.

وهذه الشخصية فى حقيقة أمرها ينطوى داخلها على عدد من الشخصيات؛ لأن بعض تلك الأوصاف تتوافر فى عدد ليس بالقليل من الناس، كما نجد لها أوصافا عديدة فى القرآن منها:

وصف القرآن للشخصية المتمردة على القيم والأخلاق الإسلامية وكل ما أنزل الله مما يفيد الإنسان ويهذب سلوكه ـ وصفه بأقبح الأوصاف وأخس النعوت، بالكلب اللاهث الذى يندلق لسانه ولا يكاد يخفيه، ويعلل القرآن أحد أسباب ذلك أنه جعل هواه قدوة له وأسوة يتأسى به، فغدت حاله كما وصفها القرآن فيما يلى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

---

(١) انظر: السلك الإنسانى، د/ انتصار يونس.

(٢) سورة الأعراف ـ الآيتان (١٧٥ و ١٧٦).

وقد نهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن الشره فى الطعام والنهم فيه تسكينا للنفس وتحسينا لصورة الشخصية المسلمة.

(طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفى الأربعة. .)[1].

وجاء فى بعض الروايات بالتضعيف زيادة فى بث الطمانينة وكف النفس عن الجشع والشره، هكذا.

(طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، وطعام الأربعة يكفى الثمانية. . .)[2].

وجاء فى الأثر لأصحاب العيون الزائغة، والأيدى الطائشة، والنفس التى لا تشبع، والظمأ الذى لا يطفأ، اللاهثين وراء السراب ـ جاءت لهم هذه السكينة والوصفة الدوائية التى لا يستطيعون ردها، ولا يقدرون على إنكارها:

(إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله). وفى رواية: (إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله)[3].

٢ ـ الشخصية المنافقة:

ومن علامات مرض الشخصية النفاق، وهو أخبثها وأسوؤها وأفتكها بالمجتمع قبل صاحبه؛ ذلك لأن المنافق شره مدفون وعمله السيئ خفى مثل

(١ و ٢) متفق عليه، البخارى، كتاب الأطعمة (١١) طعام الواحد يكفى الاثنين، الفتح ٩/ ٥٣٥ ومسلم: كتاب الأشربة حديث (٣٣) والترمذى: كتاب الأطعمة باب (٢) ٤/ ٢٣٦ والمسند ٢/ ٤٠٧ والدارمى ٢/ ١٠٠ باب طعام الواحد يكفى الاثنين، وكذا بقية كتب السنن.

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه وصححه، برقم ١٠٠٨٧، طبع السلفية بالقاهرة، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٤/ ٧٢.. ومشكاة المصابيح للتبريزى ٥٣٠٢، والترغيب والترهيب للمنذرى ٢/ ٥٣٥، وذكره أبو نعيم الأصبهانى فى حلية الأولياء ٦/ ٨٦ طبع مطبعة الخانجى بالقاهرة. ورواه ابن أبى عاصم فى السنة ١/ ١٣ طبع المكتب الإسلامى بدمشق.

السوس فى الحطب أو العظم ينخر من الداخل حتى يقضى على فريسته من غير أن يُرى فَيُتَّقَى شَرُّه، وهو بالتعبير الطبى أشبه بمرض الأورام الخبيثة (السرطان) الذى قل أن ينجو منه مريضه، وهو قاتل للمناعة التحصينية عن الشر مثلما يقتل فيروس مرض نقص المناعة (الإيدز)، صاحبه، فهو يقتل مناعة الخير ويفسح المجال واسعا لميكروب الشر بأشكاله وألوانه؛ ولهذا فقد حذر الله رسوله، صلى الله عليه وسلم، منه أشد تحذير، ونعته له أوضح نعت، ووصف المنافقين بأشنع الأوصاف، فوصفهم بالكسل والخمول فى أعمال البر، وبالتذبذب والتردد وعدم الإقدام، كما جعلهم فى قاع جهنم جزاء نكالاتهم؛ لأن من صفته وديدنه الخداع والغش، فذلك جزاؤه.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[1].

وقال، تعالى، فى مصيرهم وجزائهم القانونى العقابى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[2].

ولقد أشار القرآن إلى وصفهم وصفتهم السلوكية (والسايكولوجية) ونعتهم (فيسيولوجيا) أيضا، فلم يترك لهم ظاهرا ولا باطنا إلا وصفه ليتضح أمرهم، وتنجلى غشاوتهم، وتذهب عنهم سحابة الصيف التى تستر ما بداخلهم؛ حتى يكونوا فى العراء يعرفهم الناس ولا ينخدعون بظواهرهم الخاوية على عروش الكبرياء والجبروت!

(١) سوة النساء ـ الآيتان (١٤٢ و ١٤٣).

(٢) سورة النساء ـ الآية (١٤٥).

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[1].

فهم دائما فى هلع ووجل وخور، لا يعرفون الطمأنينة، وأَنَّى لهم ذلك، وشخصياتهم بداخلها المرض العضال الذى لا شفاء له إلا التوبة النصوح والتوجه الخالص.

وكل تلك الأمراض النفسية، وحتى العقلية والعصابية منها، وضع لها القرآن علاجا بل إن قراءة القرآن وتلاوته والمداومة عليها، بتدبر وخشوع وإنابة تشفى النفس من عللها، ولقد دلت التجارب قديما وحديثا على جاذبية القرآن لقلوب وأسماع مستمعيه، ولأذكر حادثتين على ذلك إحداهما قديمة فى بدايات نزول القرآن، والأخرى معاصرة:

قال ابن هشام: وحدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلى من الليل فى بيته، فأخذ كل رجل مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا[2].

لقد حذب سماع القرآن هؤلاء النفر حتى إنهم لم يستطيعوا أن يوفوا بوعودهم على عدم العودة مرة أخرى بالرغم من تحذيرهم بعضهم لبعض بأن ذلك يضر بمصداقيتهم الاجتماعية بين قومهم، وهم القادة والسادة والرءوس، هذا إذا علمنا أن من شيمهم ألا يخلفوا ما وعدوا به، ولكن شَدّ القرآن لهم

---

(١) سورة المنافقون ـ الآية (٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ١/ ٢١٨، طبع دار التوفيقية بالقاهرة (بدون تاريخ).

كان أقوى من كل شيء جاذب آخر، وإن الذى شد الفكر وجذب العقل لقادر على جذب النفوس وإصلاح عطبها وترميم خللها: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ... ﴾[1].

والنموذج الثانى للتأثير القرآنى على النفس عبارة عن تجربة أجريت فى الغرب لمعرفة وقياس القوة الروحية للقرآن الكريم فى مدينة (بنماستى) بولاية فلوريدا الأمريكية وكانت الدراسة تهدف إلى:

١ ـ إثبات ما إذا كان للقرآن الكريم أى أثر على وظائف أعضاء الجسد.

٢ ـ قياس هذا الأثر (إن وجد) بالتغيرات (الفيسيولوجية) الناتجة عنه.

وكانت هذه التجارب قد أجريت على بعض المتطوعين الأمريكان، ذكورا وإناثا من غير المسلمين وغير الناطفين باللغة العربية الذين تترواح أعمارهم بين (١٧ ـ ٤٠) سنة عن طريق جلسات علاجية بلغ عددها (٤٢) جلسة، وعدد التجارب فى كل جلسة (٥) تجارب فيكون مجموع عدد التجارب (٢١٠) تجربة (إكلينيكية) أشارت نتائجها إلى أن لتلاوة القرآن الكريم فى حد ذاتها ـ بغض النظر عما إذا كانت مفهومة المعنى عند السامع أم لا ـ لها أثر (فيسيولوجى) مهدئ للتوتر فى الجسم البشرى، وكانت النتائج إيجابية بنسبة (٦٥٪)[1].

ونحن إذ نسوق هذا، لا نحاكم القرآن لتجارب البشر، ولكن نحاكم تجاربهم للقرآن، ونصححها به، وعليه، فإن وافقته فَبِهَا ونعمت، وإلا فهى مردودة، ولكن يبقى مجال مدى فهمنا نحن للقرآن، مع إعجازه المستمر على مدى الدهور وشتى الحقب ومعجزاته التى ما برحت تظهر تباعا مع كل مكتشف حقيقى ثابت؟

---

(١) سورة الإسراء ـ من الآية (٩).

(٢) جريدة (المسلمون) العدد (٣٨٢) الجمعة ٢٧ من ذى القعدة (١٤١٢ هـ ـ ٢٩/ ٥/ ١٩٩٢ م).

الدوافع السلوكية

توطئة

إن مما زود الله به الإنسان (وكذا الحيوان) الدوافع السلوكية التى تحفزه لما يحتاج إليه من مهام فى حياته اليومية، وهذا عام فى الإنسان الحيوان، ويختص الإنسان بالدوافع التى تحضه على العمل الأخروى؛ لأنه مطلوب منه أن يعمل لكليهما معا.

والدوافع نعمة من الله، تعالى إن استغلها الإنسان الاستغلال الحسن ووظفها فيما خلقت لأجله، ولم ينحرف بها عن تلك الجادة، حيث تؤدى به إلى المهالك فى الحالة الأخيرة.

وليست الدوافع كلها للدنيا فقط، كما زعم بعض الباحثين من أنها لحب البقاء فحسب[1]، بل هى تتعدى ذلك إلى دوافع تدفع الإنسان لعمل الخير؛ رغبة فى ثواب الله فى الآخرة، وهى تدفع الإنسان ـ أحيانا إذا قوى إيمانه ـ لترك الدنيا، وليس حب البقاء فيها، كما يحدث كثيرا عند حب المجاهد للشهادة فى سبيل الله، كما حدث هذا فعليا، فى حادثة عمير بن الحمام عندما ألقى بالتمرات من يده ودخل يجاهد، وذلك عندما سمع النبى، صلى الله عليه وسلم، يحض المسلمين على القتال قائلا:

(والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فَيُقْتَلُ صابرا محتسبا،

(١) انظر: دراسات فى النفس الإنسانية، ص ١٦٢، محمد قطب.

مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، فقال عمير بن الحمام - وفي يده تمرات يأكلهن - بخ بخ!! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه يقاتل القوم حتى قتل)(١).

فما الدافع الذى دفع عميراً؟ هل يقال دفعه حب البقاء والتنعم بزينة الدنيا وزخرفها؟ كلا. إن دافعه هو حب لقاء الله ودخول الجنة.

وشاهد آخر على أنه ليس كل الدوافع لأجل حب البقاء فى الدنيا، حادث عوف بن الحارث بن عفراء، حيث قال:

(يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: غمسه يده فى العدو حاسراً، فنزع درعا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل)(٢).

وتنقسم الدوافع إلي قسمين رئيسين:

دوافع فطرية جِبِلِّية مغروسة فى غريزة الإنسان كما هى فى الحيوان، وأخرى مكتسبة يتعلمها الإنسان ويكتسبها من البيئة والمحيط الثقافى، وكلها يتداخل بعضها فى بعض فى كثير من الأحيان.

وسوف تدور دراستنا للقسمين بما يتلاءم مع هدف الكتاب، وهو ما يتعلق بكل ما يعين الدعاة على فهم المدعو والتعرف على سلوكياته بما يمكنه من دعوته إلى الحق على ضوء فهمه له، وفهم سنن الله فيه، ولن نخوض فى تفصيلات وتفسيرات علماء النفس وتفريعاتهم، بل وتهويماتهم حول الدوافع الإنسانية، ذلك الامتناع من قبلنا لأمرين:

الأول: أن معظم أو بعض تلك التفسيرات والتحليلات، عموميات نظرية

---

(١) و (٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/ ١٤٠.

لم تصل إلى حقيقة يعتد بها، كما أنها بعيدة فى مجملها عن المفهوم الإسلامى لدوافع النفس البشرية، وهى نتائج دراسات وأبحاث وتجارب قامت على غير المسلمين وفى بلاد لا يسودها الإسلام بتعاليمه وثقافته.

والثانى: أن منهجنا فى هذا الكتاب هو ـ كما ذكرنا ـ ما يعين الدعاة على الفهم العام للنفس البشرية لخدمة الدعوة، وليس المقصود التخصص الدقيق المستوعب، وعلى هذا المنهج قام علاج الكتاب لكل الموضوعات السابقة.

وسوف نبدأ بعرض مجمل للنوع الأول من الدوافع، عارضين معالجتها من خلال النصوص الإسلامية والمقصد العام للدين الإسلامى، غير متجاهلين للصالح من تجارب البشر فى هذا المجال.

المبحث الأول
الدوافع الجِبِلِّية

الدوافع الفطرية كثيرة ومتعددة ومتشعبة، ولكنا سوف نقتصر على المشهور منها لنذكِّر بفوائده ومضاره على الإنسان، وليتعرف الدعاة على كيفية الاستفادة من تلك الدوافع.

المطلب الأول: الدوافع لطلب الرزق والعيش فى الحياة:

وهذا الدافع يعتبر دافعا رئيسا ومتأصلا فى جِبِلَّةِ الإنسان، كما هو متأصل فى فطرة الحيوان وغريزته، وهو تلك الطاقة الكامنة فى المخلوق التى تحركه لكى يسعى فى الأرض؛ ليؤمن ما تبقى به حياته، ويسميه بعض علماء النفس، دافع حب البقاء أو حب الحياة، والحقيقة أن كل مخلوق لا يحب الموت، فى حالاته العادية، ولكن هل هو فعلا أقوى الدوافع على الإطلاق، كما فهم بعض علماء النفس؟ لعله من النظرة الأولى، إن لم تكن الْعَجْلَى، أن نقول: نعم، ولكن بعد التحقيق والتدقيق لا نجده هو أقواها البتة؛ ذلك لأن الدافع الأقوى على الإطلاق لا نجد له منافساً ولا يمكن أن يسبقه أو يغلبه دافع آخر؛ لأن قوته تدفع وتجذب كل دافع غيره، ويظل وحده منفردا، ولا يمكن أن يزاح أو يزاحم... هذا هو الدافع الأقوى، ولكن فى حالة دافع حب الحياة، نجد أن هذه القاعدة تنخرق وتنخرم، وذلك فى حالة

تقديم الموت على الحياة، كما مثَّلنا له من قبل فى مثال الشهداء فى الإسلام حين يفضل المجاهد الشهادة فى سبيل الله على الحياة الدنيا، يقدم على ذلك وهو فى حالة شعورية سوية وقوية[1]؛ ولذلك نقول: إن دافع الإيمان بالله ودافع حب الله عندما يتمكن من القلب يكون هو الأكبر والأقوى، وهو الذى لا يُنَافَسُ.

ولهذا نجد دائما أن أعداء الإسلام فى الحروب يخافون من المؤمنين الصادقين، وما إن يروا علاماتهم حتى يُوَلُّوا الأدبار، ومن علاماتهم التكبير والتهليل، والإقدام وحب لقاء العدو، وتمنى الموت طلباً للشهادة.

وقد يقول قائل: إن الذى يدفع الإنسان للموت ليس هو حب الشهادة وحده، بل فى حالات المنتحرين هروبا من الحياة عندما تضيق بهم أو تحدث لهم انفعالات شعورية قوية يقدمون فيها على التخلص من الحياة، ونقول: إن هذه حالة غير عادية، وصاحبها ليس بالإنسان السوى، وبالتالى فهى لا تصلح كقاعدة، وإنما هى حالات شعورية شاذة، ولا تحدث إلا فى حالات المرض واختلال العقل وفقدان التوازن النفسى، بدليل أن المؤمن الذى يقدم على الاستشهاد فى سبيل الله وهو صاحب الإيمان القوى، والسلوك السوى، لا يفعل ذلك أبدا، وكلما كان إيمان المرء قويا، كان أبعد عن الانتحار؛ لأن الإسلام نهى عنه نهيا قاطعا، فهو دافع عرضى ومرضى.

إن الإسلام قد وجه الدافع الغريزى لحب البقاء أفضل توجيه، حيث جعل الإنسان المسلم يعرف أن بقاءه ليس لمجرد أن يعيش ويأكل ويشرب فحسب، كالحيوانات العجماوات، وإنما يعى لبقائه هدفا وغاية، فهدفه هو تعمير الأرض بالخير كله، بما يفيده ويفيد البشرية جمعاء، تعميرها لكى تعبد البشرية ربها الذى فطرها ورزقها، وتعلى كلمته، وتسبح بحمده، وتقدس

(١) انظر: ص ٧٣، من هذا الكتاب.

له، يعرف المسلم أن فى بقائه خلافة الأرض، ويعرف أن هذه الخلافة هى دين جاء به المرسلون كلهم.

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ... ﴾(1).

وهو يعرف هذه الخلافة منذ أن نادى الله الملائكة وأعلمهم بها:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾(2).

(إن النظرة القرآنية تجعل هذا الإنسان بخلافته فى الأرض، عاملا مهما فى نظام الكون، ملحوظا فى هذا النظام، فخلافته فى الأرض تتعلق بارتباطات شتى، مع السموات ومع الرياح ومع الأمطار، ومع الشمس والكواكب... وكلها ملحوظ فى تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة. فأين هذا المكان الملحوظ من ذلك الدور الذليل الصغير الذى تخصصه له المذاهب المادية ولا تسمح له أن يتعداه؟!)(3).

إذن الهدف تعمير هذه الأرض حتى تعبد الله وتوحده كلها، وهذا منهج إسلامى جلى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾(4).

إن هذه العبادة ملحوظة فى توجه المسلم كله، وفى عمله كله، فى حركاته كلها، فى سكونه كله، فهو عابد لربه فى كل لمحة ونفس وحركة وخطوة، فهو يتقن عمله عبادة لله، وهو يخلص فيه عبادة لله، وهو يروّح عن نفسه

(1) سورة ص ـ من الآية (26).

(2) سورة البقرة ـ من الآية (30).

(3) فى ظلال القرآن، سيد قطب، 1/ 60.

(4) سورة الذاريات ـ الآيات (56 ـ 58).

وأهله وعياله عبادة لله.. وهو يقيم العدل بين الناس، ولو على نفسه وخاصته، عبادة لله، وهو يزرع ويحصد ويكدح ويجد، عبادة لله.. والمحصلة أنه كله لله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

أما الغاية فهى رضا الله والفوز بالجنة والنجاة من النار: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾[2].

إن غريزة ودافع حب البقاء فى الإسلام ليست مطلقة، وليس الدافع له لذاته، بل حب البقاء فى الإسلام لهدف وغاية، على نحو ما ذكرنا، من معانى الخلافة فى الأرض وتعميرها، ومتطلبات التعمير، فالمسلم يعرف لماذا يريد أن يبقى فى هذه الدنيا، ويعرف لماذا يحب الدار الآخرة، ويعرف أن الإسلام نهى عن التشبث بالدنيا وحب البقاء فيها فى حالات معينة، ونهى عن تمنى الموت فى حالات معينة: (لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه، فإن كان لابد فاعلا، فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى)[3].

وهذا أحد الصحابة يفلح الأرض ويعمرها على الرغم من زهده فى متاعها من جانبه الشخصى، ولكن معرفته بمقاصد الإسلام دفعته لهذه العمارة؛ ليبذر الخير، وليغرس الفضيلة لغيره، وليكون قدوة عملية تحتذى،

---

(١) سورة الأنعام ـ الآيتان (١٦٢ و ١٦٣).

(٢) سورة الكهف ـ الآيتان (١٠٧ و ١٠٨).

(٣) متفق عليه، البخارى كتاب المرضى، باب (١٩)، ومسلم كتاب الذكر، حديث (١٠) والترمذى كتاب الجنائز (٣) والنسائى كتاب السهو (٦٢) والمسند ٣/ ١٠١.

وليعرف العالم كله أن للمسلم هدفا يسعى لتحقيقه، ويعمل من أجله لا يسير من غير هدى ولا بصيرة.

يقول قيس بن أبى حازم: دخلنا على خباب نعوده ـ وقد اكتوى سبع كيات ـ فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولـم تنقصهم الدنيا، وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعا إلا التراب، ولولا أن النبى، صلى الله عليه وسلم، نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به، ثم أتيناه مرة أخرى وهو يبنى حائطا له، فقال: إن المسلم ليؤجر فى كل شىء ينفقه إلا شيئا يجعله فى التراب[1].

هذا على مستوى المعنى الفردى، بالنسبة لدوافع حب البقاء، أما على المستوى الجماعى فقد قال، صلى الله عليه وسلم: (إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم وأموركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها)[2].

هكذا تكون الدوافع فى الإسلام، مقننة ومبرمجة ومنظمة، وعلى هذا المعيار فإن الدافع عند المسلم ليس بلا هدف ولا غاية، وليس هو لحب البقاء فى حد ذاته، وليس المسلم تائها لا يلوى على شىء، وليس المسلم يندفع وراء الشهوات وهى تقوده إلى السقوط... ولكن دوافعه تضبط بضوابط صارمة تكبح جماحها وتعدل مسيرها.

أما غير المسلم فدوافعه شهوانية شيطانية، فى عمومها، إلا ما بقى منها على الفطرة؛ ولهذا عندما يتحدث علماء النفس، فى علم النفس العام،

(١) البخارى كتاب المرضى باب (١٩) تمنى المريض الموت، الفتح ١٠/١٢٧.
(٢) رواه الترمذى، كتاب الفتن، باب (٧٨) حديث رقم (٢٢٦٦) ٤/٤٥٩.

فإنهم يعالجون الدوافع الإنسانية من هذا المنطلق، ويسيرون على هذا المفهوم، وبهذا المنهج غير الناهج، وهذا السبيل غير السالك، إلا من رحم ربى منهم.

هذا ما يَسَّرَه الله حول الدافع الأول من الدوافع الفطرية الجِبِلِّيَّة، وهو دافع رأسى، وأساس فى جملة الدوافع الأخرى، بل كلها تبع له، وهو مؤثر فيها؛ ولهذا سوف نمر على بعضها لمجرد التنويه بذكرها، ولا نقف عندها طويلا لانضوائها فى الدافع الأول المذكور أعلاه.

المطلب الثانى: الدافع للطعام والشراب:

جعل الله الإحساس بالجوع والعطش لدفع الإنسان والحيوان ليقوم بالبحث المبكر عن الطعام لسد تلك الحاجة الدافعة الحافزة، وهذه نعمة من نعم الله، فلولا هذا الإحساس الدافع لهلك المخلوق، ولما بقى منه شىء على وجه الأرض، ولخلت من الإنسان والدواب؛ لأن حاجة المخلوق إلى سد تلك الدوافع هى حاجة فيسيولوجية تتعلق بالحياة والبقاء على الحياة، هذا الإحساس بالجوع والعطش لم يعرف العلماء كنهه وسره، مثله مثل الأشياء الكثيرة فى هذا الكون التى لا يعرفون سرها، وإن اكتشفوا ظواهرها، وعرفوا مؤثراتها، وتعلموا استخداماتها، مثل الكهرباء وغيرها...

لقد أجريت عدة تجارب على الحيوانات استؤصلت فيها المعدة فوجدوا أن الإحساس بالجوع ما يزال موجودا، ثم أجريت تجربة أخرى قطع فيها العصب الحسى الذى ينقل الإحساس إلى الدماغ والعكس، فوجدوا الإحساس بالجوع والعطش لم يتأثر أيضا[1].

(١) انظر: أصول علم النفس ص ٧٦، د/ أحمد عزت راجح.

بل وجدوا الذى تستأصل معدته وأمعاؤه يجوع أسرع من صاحب المعدة السليمة، ولم يعرفوا السر بعد!!

ودوافع الطعام والشراب وغيرها، قد توقع صاحبها فى مهالك يهلك بها نفسه ومجتمعه إذا لم تهذب وتشذب فى الإنسان، فهى مثلها مثل دوافع الحيوان، الذى إذا لم يجد ما يسد به تلك الحاجات اندفع لسدها ولو دمرت وأهلكت غيره من المخلوقات.

ولكن الإسلام اعتنى بتلك الحاجات فى الإنسان وعمل على تلافى الجانب الضار فيها بعوامل كثيرة ومعالجات شتى، من أهمها بث الطمأنينة لدى الإنسان، وتذكيره بأن الرزق من عند الله، وأن الإنسان عليه السعى المشروع له، فحثه على الضرب فى الأرض والاجتهاد فى طلب الرزق الحلال، وأن الله يسهل له ذلك كله مادام يسعى له سعيا مشروعا، فقال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

ومن الأسس والضوابط للطمأنينة لجلب الرزق التى تكبح جماح الدوافع الناشزة لطلب الرزق بالطرق غير المشروعة ـ مراقبة الله وتقواه، فهى مصدر من مصادر الطمأنينة للرزق: ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[2].

وقد قال، صلى الله عليه وسلم: (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)[3].

---

(١) سورة العنكبوت ـ الآية (٦٠).

(٢) سورة الطلاق ـ آخر الآية (٢) ثم كل الآية (٣).

(٣) رواه الترمذى فى كتاب الزهد باب (٣٣) فى التوكل على الله حديث رقم (٤٤٢٣) ٤/ ٤٩٥؛ ورواه الإمام أحمد فى مسنده ١/ ٣٠. كما أورده ابن ماجه فى سننه كتاب الزهد برقم (١٤).

كما أن الإسلام عالج دوافع الجوع - بالإضافة إلى ما سبق - بمعالجات عملية ترويضية هى بمثابة الضوابط والكوابح التى تحول دون جنوح هذه الدوافع، وتحد من غلوائها، ذلك هو الصوم الذى يستمر إلزاما كل عام لمدة شهر كامل متواليا دون انقطاع إلا لعذر، ثم حث على صوم التطوع فى فترات متقاربة ومتباعدة، منها ما هو فى الأسبوع مرتين، كصوم يومى الاثنين والخميس، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر (صوم الأيام البيض) وصوم تاسوعاء وعاشوراء، وصوم يوم عرفة لغير الحاج... كل ذلك إضافة إلى صوم النذور والكفارات... كلها تعمل على تهذيب دافع الجوع ووضعه فى مساره الصحيح السليم الذى يفيد الإنسان فى حفظ جسده بما يحفظ عليه حياته ويجعله شخصا سويا فاعلا فى مجتمعه، هذا كله إضافة إلى حث الإسلام على التقليل من كميات الطعام التى يأكلها الإنسان، وأن يكون أكله معتدلا، لا إسراف فيه، كما وصفه له النبى، صلى الله عليه وسلم، فى الوصفة الطبية التالية:

(ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لِنَفَسِه)[1].

المطلب الثالث: الدافع لجمع المال:

وما قيل فى الدافع للطعام يقال فى الدافع لجمع المال؛ لأن المال لأجل جلب الطعام وما يقوم به الإنسان، حيث جعل الإسلام فيه من الأمور ما تحول بين تكديس الإنسان له وتقلل من شرهه نحوه وإفراطه فى حبه، ففرض فيه حقا معلوما، وجعل عليه ثوابا، وحقا مندوبا إخراجه، ووعد عليه بحوافز تدفع الإنسان لأن يجعله فيما وضع له، بل وجعل الإسلام المال فى

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب الزهد باب (٤٧) ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ٤٠/ ٥١٠ ورواه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة باب (٥٠).

أصله وأساسه ملكاً لله، تعالى، والإنسان مستخلفاً فيه، قال، تعالى: ﴿ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[1].

فالإنسان عندما يعرف ويوقن أن المال لله، وهو مستخلف فيه وقائم على تنميته، وله نصيب منه يتقوم به على الحياة ويستعين به، وعليه حق فيه لغيره من خلق الله - عندما يعرف ذلك، فإن الدافع لجمعه وتكديسه، بل وتقديسه يقل عنده ويضعه فى أماكنه المخصصة له، ويجمعه من طرقه المشروعة، ويؤدى فيه حقه المشروع، وهذا ما لم يصل إليه علم النفس العام، ولن يستطيع ذلك نظام ولا قانون غير نظام الإسلام الربانى.

ولقد سأل الرسول، صلى الله عليه وسلم، يوما سؤالا اختياريا قصد به طمأنتهم وتسكين نفوسهم والحد من الدافع لجمع الثروة من غير طرقها المشروعة، ومعالجة للأمر قبل أن يقع، فقال لهم:

(أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟! قالوا يارسول الله، مامنا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر)[2].

المطلب الرابع: الدافع الجنسى:

الميل الذى يدفع الإنسان إلى قضاء وطره من الجنس الآخر هو دافع غريزى فى كل المخلوقات جعله الله كذلك لحفظ النوع من تلك المخلوقات، وهو فى الإنسان منضبط بضوابط أخلاقية وتحكمه أعراف وتقاليد تحد من انطلاقه وتقلل من هيجانه، حتى لا ينحرف بالسلوك الإنسانى إلى السلوك الحيوانى.

---

(١) سورة الحديد - الآية (٧).

(٢) رواه البخارى كتاب الرقاق، باب (١٢) ما قدم من ماله فهو له، ١١/ ٢٦٠، والمسند، ١/ ٣٨٢.

ومع ذلك فهذا الدافع يجمح ويجنح فى كثير من الأحيان خارج نطاق الضوابط البشرية الخاصة بالإنسان، وهو كثير الجنوح فى البلدان التى يقل فيها القيد والدافع والوازع الدينى، وهذا ظاهر فى بلدان أوروبا وعامة بلاد الغرب النصرانى أو الشرق الذى كان يتخذ من الشيوعية (أيديولوجية) منهجية يسير عليها، ويؤطر نظمه الأخلاقية بأطرها. والسبب كله البعد عن تعاليم الدين والتفريط فى التمسك بها، فإنها على تحريفها نجد فيها فى هذه الجوانب بعض بقايا الخلق السليم، وإن كساه ضباب كثيف، وغشيه غبار معتم.

والمدارس النفسية الغربية وغيرها، التى عالجت موضوع الدافع الشهوانى الجنسى لم تستطع أن تصل إلى شىء يمكن أن يسير به إلى الأفضل، بل زادت الطين بِلَّة، خاصة المدرسة الفرويدية، التى أطلقت العنان وفتحت الباب على مصراعيه للدافع الجنسى، وجعلته مفتاح كنوز النفس البشرية، كما جعلت كل مصائب النفس الإنسانية يمكن أن تعالج بإشباع هذه الغريزة، وعاملت الإنسان معاملة الحيوان فى إرواء شهواته ونزواته دون قيود ولا ضوابط من الأخلاق، حتى تساوى عندها الإنسان والحيوان.

ولقد جاء فرويد بمبدأ النمو الحر للطاقة الجنسية..[1].

وطفق يفسر كل التداخلات (السايكولوجية) الإنسانية تفسيرا مرتبطا بالجنس، وزعم أن السلوك البشرى لا يستقيم حتى تكتفى هذه الغريزة وتشبع نهمها من الآخر!! وهو مخطئ فى تفسيره هذا غاية الخطأ؛ إذ حط من قيمة الإنسان، وألغى الفارق بينه وبين الحيوان، وشطب دور العقل، وأوقف عمل الفكر الإنسانى جملة، فكان من المخطئين خطأ مبينا، دحضه الذين عاصروه، وخاصة من جاء بعده ممن هم على مثل تخصصه وأفضل.

---

(١) انظر: دراسات فى النفس الإنسانية ص ١٧٤، محمد قطب.

أما أمر هذا الدافع فى الإسلام فهو شيء آخر، حيث اعترف بوجوده وتأصله فى فطرة الإنسان، بل هو جزء من كيانه، ولا يمكن بأى نوع من أنواع الضغط الخارجى إيجاد إنسان سوى لا يحس بهذا الدافع الجنسى، ولكن الإحساس لا يعنى التنفيذ، خاصة فى غير المحل اللائق، حيث إن هذا الإحساس يهذب فيتسامى ويرتفع[1]، حتى يكون الفارق بين غريزة الإنسان وغريزة الحيوان فى الشهوة الجنسية.

لقد أوجد الإسلام طرقا وأساليب عديدة لضبط وتعديل وتهذيب هذا الدافع القوى فى الإنسان، إنه قوى حقا حيث يأتى بعد دافع الجوع والعطش مباشرة، أوجد له الإسلام سبلا تجعله يسير فى الطريق الصحيح له، لإيجاد الروابط والعلائق بين الطرف الآخر؛ لتستقر حال البشر، وليستفيدوا من حياتهم، وليحفظوا نوعهم وسلالاتهم، وليجدوا الطمأنينة والسكينة، التى لا تصلح الحياة السوية بدونها، فكان إعلان الإسلام:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

وذكر هدفا آخر من أهداف هذا الدافع الجنسى، وهو ما ذكرناه من السكينة والطمأنينة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

وكما أن من أهداف قضاء الشهوة الجنسية هذه المودة والسكن والهدوء

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ١٧٥.

(٢) سورة النساء ـ الآية (١).

(٣) سورة الروم ـ الآية (٢١).

الذى يذهب كدر النفس ويجلب صفاءها، فإنه كذلك من أهدافها النسل والذرية التى تتلوها ـذرية أخرى، حتى يكون لهذا الإنسان ذكر بعد ذكر ما استمرت سلسلة التناسل ومضت دورته التى لا تنقطع حتى يوم البعث والنشور، فهذا دافع قوى وحافز جيد، وله معنى فى الحياة:

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾[1].

إن الدافع للشهوة الجنسية قوى وجامع وشامل فى جل البشر، ولو ترك وشأنه لدفع بالإنسان إلى خارج نطاق الإنسانية؛ ولهذا فقد جعل له الإسلام حواجز وضوابط عديدة تحول بينه وبين الطغيان، منها ما ذكرنا، ومنها أنه أمر أتْبَاعَه باستعمال وسائل وأساليب تفيدهم فى هذا الصدد، مثل أمره بِغَضٍّ البصر وعدم إتباع النظرة الأخرى؛ حتى لا تثور كوامن الشهوة فتدفع صاحبها قسرا، فأوصى الله رسوله بقوله:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾[2].

هذا عام فى الرجال والنساء؛ لأن كل واحد إذا أتبع النظرة النظرة فإن ذلك كفيل بتحريك دافع الشهوة وزاد النساء بعدم إظهار الزينة وعدم التبرج بأنواعه فى اللباس أو الحركات؛ خشية أن يدفع ذلك السلوك من المرأة حماس

(١) سورة النحل ـ الآية (٧٢).

(٢) سورة النور ـ الآية (٣٠) وصدر الآية (٣١).

الرجال فيؤذوهن. ولقد حدث كثير من حوادث الاعتداء على النساء بسبب التبرج، ووسائل الأعلام طافحة بهذا، بل منها ما شهدناه بأنفسنا، من اعتداء على النساء فى الحدائق العامة والطرقات الجامعة... كل ذلك بسبب إظهار المرأة لمفاتنها وأماكن الإثارة منها، فلا يقوى الرجل - وخاصة الشاب - على رد اندفاع شهوته وكبح جماحها، فَأَمْرُ الإسلام بحجاب المرأة، وغض البصر للطرفين - يساعد على دفع شَرِّه.

ومن الضوابط التى وضعها الإسلام لتلك الدوافع منع الاختلاط بين الرجال والنساء، وخاصة فى الأماكن التى يقل فيها الوازع الدينى والضميرى وتطغى فيها العقلية الجماهرية الغوغائية، مثل أماكن اللهو والاحتفالات والطرب، وأماكن العمل التى تختلط فيها الأجناس والمدن الكبيرة...

وكذلك منع الإسلام أن يخلو الرجل بالمرأة وليس معها أحد، وحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من ذلك بقوله:

(لا يخلو رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان)[1].

وقال، صلى الله عليه وسلم، فى النهى عن الدخول على النساء والخلوة بهن وما يمكن أن ينتج عن ذلك من فساد ودمار للأسر والمجتمع، على حد سواء، لا سيما ممن يتساهل الناس فى دخولهم على النساء مثل أقارب الزوجين، حيث تكون الشبهة بعيدة، فينتهز ذلك أصحاب القلوب المريضة والنفوس الخسيسة مع حيل الشيطان وإغوائه المستمر لبنى آدم، فقال، صلى الله عليه وسلم، محذرا ومنذرا:

(١) رواه الترمذى فى كتاب الرضاع، باب (١٦) ما جاء فى كراهية الدخول على المغيبات ٣/ ٤٧٤. ورواه الإمام أحمد فى مسنده ١/ ٢٢٢.

(إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت)[1].

ومن تلك المعالجات لضبط الدافع الجنسى الشهوانى، أن الإسلام حث الشباب على الزواج المبكر؛ تحصينا لهم وحفظا وتعديلا وتهذيبا لدافع تلك الغريزة قبل أن تشب عن الطوق ويصعب السيطرة عليها، فقال، رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

(يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء)[2].

والصوم من أفضل ضوابط تلك الدوافع الكاسر لعنفوانها الذى يتولد فى أساسه من كثرة الأكل والشرب، فإذا قل الأكل قل الدافع للشهوة الجنسية، إضافة إلى ما فى الصوم من معانى مراقبة الله وغرس التقوى فى القلب وصرفه عن التفكر فى تلك الأمور المحرمة.

تلك الضوابط التى ذكرناها، وغيرها، كثير لا نجده لدى علماء علم النفس العام؛ حيث تخلو كتبهم حتى من أى ذكر لله فيها، شأنها شأن كل العلوم الأخرى التى أبعدت عن الله تماما بسبب رد فعل الكنيسة قديما، فنشأت تلك العلوم والمعارف بمعزل عن الدين ورقابته وتحصينه؛ فلذلك جاءت جافة خالية من السمو الروحى الذى هو أساس كبح جماح تلك الدوافع وصدها عن الانحراف.

---

(١) البخارى: كتاب النكاح باب (١١١)، لا يَخْلُوَنَّ رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المغيبة، الفتح ٩/ ٣٣٠. والترمذى: كتاب الرضاع باب (١٦) ما جاء فى كراهية الدخول على المغيبات ٣/ ٤٧٤.

(٢) متفق عليه، البخارى: كتاب النكاح باب (٢) قول النبى، صلى الله عليه وسلم: من استطاع الباءة فليتزوج، الفتح ١٠٦/٩، ومسلم: كتاب النكاح باب (١ و ٢) والمسند للإمام أحمد ٣٧٨/١، وكذا رواه بقية أصحاب السنن.

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يعالج مثل هذا النوع من الدوافع الشهوانية الجامحة معالجة لم ترق إليها علوم النفس حديثها وقديمها؛ لأن معالجاته كانت تصيب موطنها تمام الإصابة؛ ذلك لأنها نابعة من أصول الإسلام دين خالق النفس وما حوت، يظهر ذلك فى قصة الشاب الذى جاءه مندفعا بحماسة وشهوة الشباب يطلب منه أن يسمح له بالزنى، فلم يعنفه، صلى الله عليه وسلم، ولم ينهره ولم يغلظ عليه، أو يحبسه أو يوبخه... كل ذلك كان يمكن أن يحدث من غيره، ولكن حاوره حواراً هادئا صادقا لم يلبث أن رجع الشاب بعده إلى رشده، وتوارى دافعه الشهوانى، فدار بينهما الحوار الموضوعى التالى:

عن أبى أمامة أن فتى شابا أتى النبى، صلى الله عليه وسلم،

فقال: يارسول الله، ائذن لى بالزنى!! فأقبل القوم عليه فزجروه.

وقالوا: مه، مه!!

فقال: ادنه، فدنا منه قريبا، قال، فجلس.

قال: أتحبه لابنتك؟!

قال: لا، جعلنى الله فداءك.

قال: والناس لا يحبونه لبناتهم!

قال: أفتحبه لأختك؟!

قال: لا والله، جعلنى الله فداءك!

قال: والناس لا يحبونه لأخواتهم!

قال: أفتحبه لعمتك؟!

قال: لا والله، جعلنى الله فداءك!

قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم!

قال: أفتحبه لخالتك؟!

قال: لا والله، جعلنى الله فداءك!

قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم!

قال: فوضع يده عليه،

وقال: اللهم اغفر ذنبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء)[1].

وهكذا يعالج الطبيب النفسانى الداعية المسلم، يعالج دوافع المدعوين بكل ما يمكن أن يزيل عنهم الخلجات والخلخلات التى تدفعهم لما يدمر أنفسهم ومجتمعهم.

وهكذا منهج النبوة الذى هو منهج الدعاة إلى الله على بصيرة، فى الحوار والإرشاد والتوجيه، حجةومنطقا ممزوجا بكل ما يمكن أن يثير فيه النخوة والهمة والشهامة، ويبعث كوامن الإيمان، ويبذر فيه العفة...

تلك كانت بعض ضوابط الإسلام لهذه الدوافع، وهى التى لا نجد لها مثيلا ولا شبيها فى علم النفس العام، يضارع قوتها أو يضاهى دقتها فى وضع تلك الدوافع فى موضعها الصحيح.

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل، فى مسنده، ٥/٢٥٦.

المبحث الثاني
الدوافع المكتسبة

هذا العنوان الذى صدرنا به هذا المبحث، وهو الدوافع المكتسبة، ليس على إطلاقه من كل النواحى؛ إذ ليس ثَمَّ دوافع مكتسبة اكتسابا مستقلا تماما، وإنما نجد كثيرا منها ـ إن لم تكن كلها ـ تختلط وتتأثر بالدوافع الغريزية، ذلك مرده إلى أن الإنسان ـ كما ذكرنا ـ وحدة واحدة تتأثر أحواله ببعضها البعض؛ ولهذا فلا نجد دوافع فطرية خالصة، ولا دوافع مكتسبة من البيئة خالصة، حيث كل واحدة تؤثر فى الأخرى سلبا وإيجابا.

وهذه حكمة الله فى هذا المخلوق المتفرد ـ الإنسان ـ حيث كل شىء فيه ينم عن الازدواج حتى خلقه الأول مزدوج من الطين، أى التراب، ومن نفخة الله، تعالى. وهذه الدوافع إما أن تكون مكتسبة من البيئة بكل أنواعها، البيئة العملية أو الأسرية أو التعليمية أو بيئة المحيط الثقافى الاطلاعى أو التخصصى، أو أن يكون الدافع فى فطرة الإنسان ثم يُنَمَّى ويُحَوَّر حسب مكتسبات البيئة بأنواعها، وسوف نتعرض لبعض تلك الأنواع من الدوافع بشىء من الشرح والتحليل من الوجهة الإسلامية خاصة.

المطلب الأول: دوافع حب الظهور:

المقصود بهذه الدوافع المركبة هو ذلك الدافع الذى يقوم على الحسد

والمنافسة والرغبة فى الصعود على كل سلم، ولو لم يكن فى استطاعته أو مقدرته، ولو لم يوهب له هذا النوع، ومع ذلك نجد هذا النوع من الناس متشبثا به عالقا برباه، وهذا - فى الحقيقة - نوع من المرض النفسى ربما كان الدافع وراءه عدة أسباب لم تكن ظاهرة، بل ربما لم تكن ظاهرة أو مفهومة حتى للشخص نفسه، وهذه تكون من الدوافع الكامنة فى اللاشعور الإنسانى، ولكنها تظهر عند مثير معين، فيجد الإنسان نفسه يندفع نحو شىء بعينه أو رأى أو فكر أو عقيدة بعينها، يندفع للمعارضة من غير روية أو سبب وجيه، ويظل يحاجج ويلح فى الخصومة حتى إذا سئل: لماذا تعارض هذا أو ذاك - خار ولم يستطع أن يقول شيئا، ذلك لأنه لم يكن له هدف، ولم يخطط للمعارضة، ولكن بدافع مستكن فى أعماق النفس غائر فى أزمنتها، مثل البركان الخامد من سنين عددا، ولكنه يغلى من داخل الأرض، حتى إذا وجد متنفسا فى الأرض ثار وخرج يلقى بحممه يقذف بها على من جاوره!!

هذا النوع من الدوافع يمكن للداعية معالجته وطبه لو أنه استطاع أن يجعله ساكنا، حتى إذا توالى سكونه إلى أمد ربما ينتهى تماما، ولعل علاجه يحتاج إلى طول نفس، وطول زمن، وذلك لتأصله وعدم وضوحه.

والسبب الرئيس لهذا الدافع هو المنافسة على منصب أو مكانة اجتماعية أو سياسية يرى الشخص أن الداعية أخذها منه، ولو بطريق غير مباشر، فينشأ عند المدعو عقدة تؤدى إلى الحقد والضغينة على الداعى، فيبدأ الطرف الآخر بهذا الدافع الذى ربما كان وهميا أو حقيقيا، يبدأ يكيد للداعى، ويدس له الدسائس، ويلفق حوله الأكاذيب لكى يوقعه فى حرج مع المدعوين، ويتصيد السقطات والهفوات، ويكبِّر الصغائر، ويحرِّم المباحات. . . كل ذلك لأجل النيل من الداعى، الذى يرى أنه سلبه حقا كان له.

مثال هذا النوع ما حدث لعبد الله بن أبى بن سلول رأس النفاق، الذى

كان يرجو أن يكون ملكا على أهل يثرب قبل هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليها، وعندما عرف الناس نور الإسلام، وخالطت بشاشته قلوبهم تحولوا عن ابن سلول إلى الإسلام، فنقم من ذلك وغار، ولما لم يجد مسوغا للمعارضة العلنية دلف إلى النفاق، فأخفى معارضته وجعلها فى داخل سراديب نفسه المظلمة، وأعلن تأييده للدعوة والداعى، ولكن دوافعه الداخلية كانت تفلت وتظهر إلى السطح من حين لآخر، إضافة إلى كشف القرآن له وفضحه..

يقول سعد بن عبادة، معللا معارضة ابن سلول للدعوة، وملطفا على رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

(يا رسول الله، والله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لِنُتَوِّجَهُ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا)[1].

وقد يشتد الدافع ويقوى حتى يتحول إلى كره شديد للداعى، فيغدو صاحبه لا يتحمل رؤية الداعى، ولا يطيق نجاحاته فى عمله ودعوته، ويسوؤه ذلك، فيندفع للمعارضة الكلامية والكيدية.

ولقد كان زعماء قريش يتبعون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو يطوف بالبلدان وموارد المياه وتجمعات القبائل يدعوهم إلى الله ويخبرهم ببعثته، يتبعونه محذرين ومنذرين ومكذبين دعوته، وكذا كان يفعل عبدالله بن أبى بن سلول، حيث كان لا يتحمل أن يسمع كلام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيقاطعه مسببا له الإحراج، حسب زعمه وظنه، وفاته أن الداعى لا يتحرج ولا يستحى من القيام بالدعوة؛ لأنه لم يدع لباطل يستحق الاستحياء، وهو يحمل مشاعل الهدى ومصابيح الدجا التى تنير الدياجير الحالكة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/١١٦.

جاء فى حديث أسامة بن زيد ـ رضى الله عنه ـ عندما كان يردفه الرسول، صلى الله عليه وسلم، خلفه على حمار له؛ ليزور سعد بن عبادة، فكان أن مر بعبد الله بن أبى بن سلول، وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله، صلى الله عليه وسلم تذمم[1] من أن يجازوه حتى ينزل، فنزل فسلم، ثم جلس قليلا، فتلا القرآن ودعا إلى الله، عز وجل، وذكر بالله وحذر، وبشر وأنذر، قال: وهو زام[2] لا يتكلم، حتى إذا فرغ الرسول، صلى الله عليه وسلم، من مقالته، قال: يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان حقا فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لا يأتك فلا تغته[3] به، ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه، قال: فقال عبدالله بن رواحة ـ فى رجال كانوا عنده من المسلمين ـ بلى، فاغشنا به وَأْتِنَا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو ـ والله ـ مما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له...[4].

فقال ابن أبى بن سلول، متحسرا ومتأسفا ومتندما، على مكانته التى يرى أنها سلبت منه، وعلى تحول قومه عنه إلى دين الله الحق، الإسلام، قال شعرا:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل ... تذل ويصرعك الذين تصارع

وهل ينهض البازى بغير جناحه ... وإن جُذَّ يوما ريشه فهو واقع[5]

وهناك دافع الحسد والغيرة الذى يشابه الأول فى أهدافه ونتائجه على الدعوة والداعى، وفى دفعه صاحبه إلى مناكفة ومناهضة الداعى، ولكن هذا

---

(١) تذمم: استحيا.

(٢) زام: رافعا أنفه تكبرا.

(٣) لاتغته: لا تثقل عليه.

(٤) و (٥) المرجع السابق، ص ١١٥.

الدافع ربما كان صاحبه ليس أهلا للمكانة التى يصبو إليها، أو ربما لم تكن له مكانة يسعى لتحقيقها، ولكن لتمكن داء الحسد والغيرة من نفسه، فهو يعارض ويلح فى المعارضة، أو ربما كان مدفوعا من قومه وعشيرته أو حتى بعاداتهم وأعرافهم، يذوذ عنها متشبثا بها متعلقا بخيوطها الواهنة، راغبا فى عدم تبديلها، ولو كانت معيبة مهينة، وهذا يظهر جليا فى معارضة قريش ـ فى جملتها ـ للدعوة الإسلامية فى بدايتها، وهو أشبه بمعارضة أصحاب الملل المنحرفة الباطلة للإسلام حتى اليوم، أو أصحاب المذاهب العلمانية والإلحادية للإسلام مهما كان الداعى له، فهم يطعنون فيه ويعيبونه، ويلفقون له التهم كذبا وزورا؛ ليصدوا عن سبيل الله، ويختلقون له الأوصاف المنفرة أو ينعتونه بأوصاف معينة، ثم يلبسونها بأوصاف ذميمة، كما فى إلباسهم الإسلام فى الوقت الراهن بمصطلح (الأصولية) الذى يعنى ـ فى مفهومهم الغربى كل ما هو ذميم ومتخلف يذكرهم بعهود الكنيسة حيث احتكار المعرفة والحجر الفكرى والتسلط على ذلك كله باسم كنيسة الرب!!

يفسر هذا المضمون ما قاله أبو جهل للأخنس بن شريق عندما ذهب إليه يسأله فيما سمعاه من القرآن، فقال له الأخنس:

يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال ـ أبو جهل:

ماذا سمعت!! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كَفَرَسَيْ رهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء!! فمتى ندرك مثل هذا؟! والله، لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه..)[1].

فواضح الدافع للمعارضة من هذا النص، الذى يخلو من الحجة المقنعة أو

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١/ ٢١٩.

الرأى الصائب، واضح منه دافع الحسد على هذا الخير الذى جاء لبنى عبد مناف بالشرف والفضل؛ حيث بعث الله منهم نبيا، وكلام أبى جهل هذا بأنهم لن يدركوا هذا الذى جاء، وهو النبوة هو حق، وإن أريد به باطل؛ ذلك لأنه لا نبى بعد محمد، صلى الله عليه وسلم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن الحسد يعمى عن الحق ويصد عن اتباعه، وهو ما نَوَّهَ به القرآن الكريم عن معرفتهم ويقينهم بصدق محمد ونبوته، بل وبختمه للرسالات، بدليل نص كلام أبى جهل (فمتى ندرك مثل هذه) وهو يقصد مثل هذه المكانة التى هى شرف الوحى السماوى، ولكن دافع الحسد يجعلهم يكذبون الحق الأبلج الواضح الذى لا يستطيعون إنكاره فى داخل أنفسهم:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[1].

ودائما يجحد هؤلاء بالآيات البينات والحجج القاطعات الدامغات، على الرغم من وضوحها وجلائها، وعلى الرغم من إقرارهم بها فى داخل أنفسهم، ولكنه الحقد الدفين الأعمى، يمنعهم من قول الحق وإظهاره لأنه ثقيل عليهم، وهكذا يفعل أعداء الإسلام فى كل وقت وزمان ومكان، يوقنون بالحق فى أنفسهم ويغطونه بزبد أكاذيبهم وتضليل إعلامهم:

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2].

فعلى الداعى أن يتخطى هؤلاء كما تخطاهم القرآن، وأن يدحض أكاذيبهم بالحق العملى الذى ينبلج كفلق الصبح، فيغطى ليلهم، ويستر

---

(١) سورة الأنعام ـ الآية (٣٣).

(٢) سورة النمل ـ الآيتان (١٣ و ١٤).

باطلهم عن أعين المدعوين، فلا يرون إلا بياض نهار الحق وسطوعه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[1]، ولا يوهن عزمه كثرة باطلهم، فإنه غثاء سوف يحرقه تيار الحق، ولن يصمد أمامه، ولا يسكته ضجيج وضوضاء إعلامهم الذى ينعق بالخرافات والأباطيل، وليمض على الحق ولا يخاف إلا الله الذى هو ناصره ومعينه.

المطلب الثانى: الدافع الفكرى (الأيديولوجى):

ومن تلك الدوافع الدافع الفكرى (الأيديولوجى)، فقد يكون المعارض يرى أنه يحمل فكرا أفضل مما عند الداعى، ويريد أن يقنع الناس به، ويسبب له الداعى ربكة وتذبذبا فى هذا الفكر، بالحق الذى معه، وبإقبال الناس عليه أو بتعرية فكر هذا المعارض، فيدفعه ذلك إلى المعارضة، وكان هذا يحدث كثيرا أيام عنفوان (الأيديولوجية) الشيوعية ووميض برقها الكاذب الذى لا يعقبه مطر ولا يأتى بخير، حتى انكشف أمرها، وافتضح كذبها، فهوت على عروشها، وانخلعت من جذورها، فكانوا فى كثير من الأحيان يتحاشون سب الشعارات الإسلامية علانية، حتى اضطروا فى بعض الأحيان أن يزعموا أن الشيوعية لا تعارض الإسلام، وإنما هى منهج اقتصادى، وأن التدين فطرة فى الإنسان، وكان كثير منهم، وخاصة فى البلاد الإسلامية، يقول إنه مسلم، وربما تظاهر بالصلاة أمام الناس حتى يوهمهم بأنه مسلم وأن الشيوعية لا تتعارض مع الإسلام.

ومنذ حوالى منتصف القرن العشرين بدأ تيار الفكر الإسلامى يقوى، وغدا الشباب ينخرطون فى التنظيمات الشبابية الإسلامية، حتى نما هذا التيار الإسلامى فى الجامعات والمدارس الثانوية، ثم بدأ ينتشر فى الأماكن التى كانت تُعَدُّ من معاقل وأعشاش الأيديولوجية الشيوعية، مثل التنظيمات

---

(١) سورة الأنبياء ـ من الآية (١٨).

العمالية والمهنية، وقطاعات الطبقات المثقفة خاصة، والمتعلمة عامة... ثم تمدد هذا المولود الشرعى حتى عم جميع قطاعات الشعوب الإسلامية، خاصة بعد خروج المستعمر من البلاد الإسلامية، وما إن أهلت تباشير العقد الماضى حتى انتظمت شعارات الصحوة الإسلامية كافة قطاعات المجتمعات الإسلامية، حتى فى البلاد التى تجذر فيها النبت الشيطانى الشيوعى مثل بلاد آسيا الوسطى وأوربا الشرقية، بالرغم من الحجر الكامل التام على كل ما يتصل بالدين عامة، والدين الإسلامى على وجه الخصوص، فمارس الناس شعائر وتعاليم دينهم الإسلامى تحت السراديب المظلمة والغرف المغلقة، نذكر شاهدا على ذلك من أهلها، وهو إمام جامع (انديجان) الواقعة فى جمهورية أزبكستان التى كانت تحت الاحتلال السوفيتى، وقد أجرت معه صحيفة (المسلمون) مقابلة، والشيخ اسمه عبد الولى عاشور، نقتطف أجزاء من تلك المقابلة شاهداً على مجاهدات رجال الصحوة الإسلامية التى أسهمت فى زعزعة أركان الشيوعية. يسأله موفد (المسلمون) قائلاً:

كيف استطعت أنت ورفاقك الإبقاء على الشخصية الإسلامية فى ظل الكابوس الشيوعى؟ فيجيب: (إننا درسنا وتعلمنا فيما يسمى بالحجرات، حيث خصص بعض الغيورين على الإسلام جزءاً من سكنه لتدريس أبناء المسلمين، وكان الشيخ يحضر لهذا المنزل سرا، ويعلم الطلاب لمدة ست سنوات، يبقى خلالها الطلاب، فى تلك الغرف الخالية من النوافذ ثلاثة أشهر لا يخرجون؛ لكيلا يعلم بهم أحد... ويتم التدريس ليلا، بعد صلاة العشاء، ويستمر حتى صلاة الفجر...).

ويسأله موفد (المسلمون): كيف حصلتم على الكتب؟ فيقول:

(الحقيقة أغلب الكتب انتهى بها الحال، إما حرقا أو غرقا فى عهد الشيوعية، وبعض المخلصين احتفظ بكتبه داخل الجدران!! حيث كان يبنى

عليها حتى انتهت الظروف العصيبة أيام حكم ستالين، ثم ورث أبناؤهم هذه الكتب، ثم تداولها بعض العلماء فطبعت، بفضل الله، فى المطابع الشيوعية بطريقة معينة، وبعض الكتب نسخ بخط اليد، وبعضها صور وهكذا. . .).

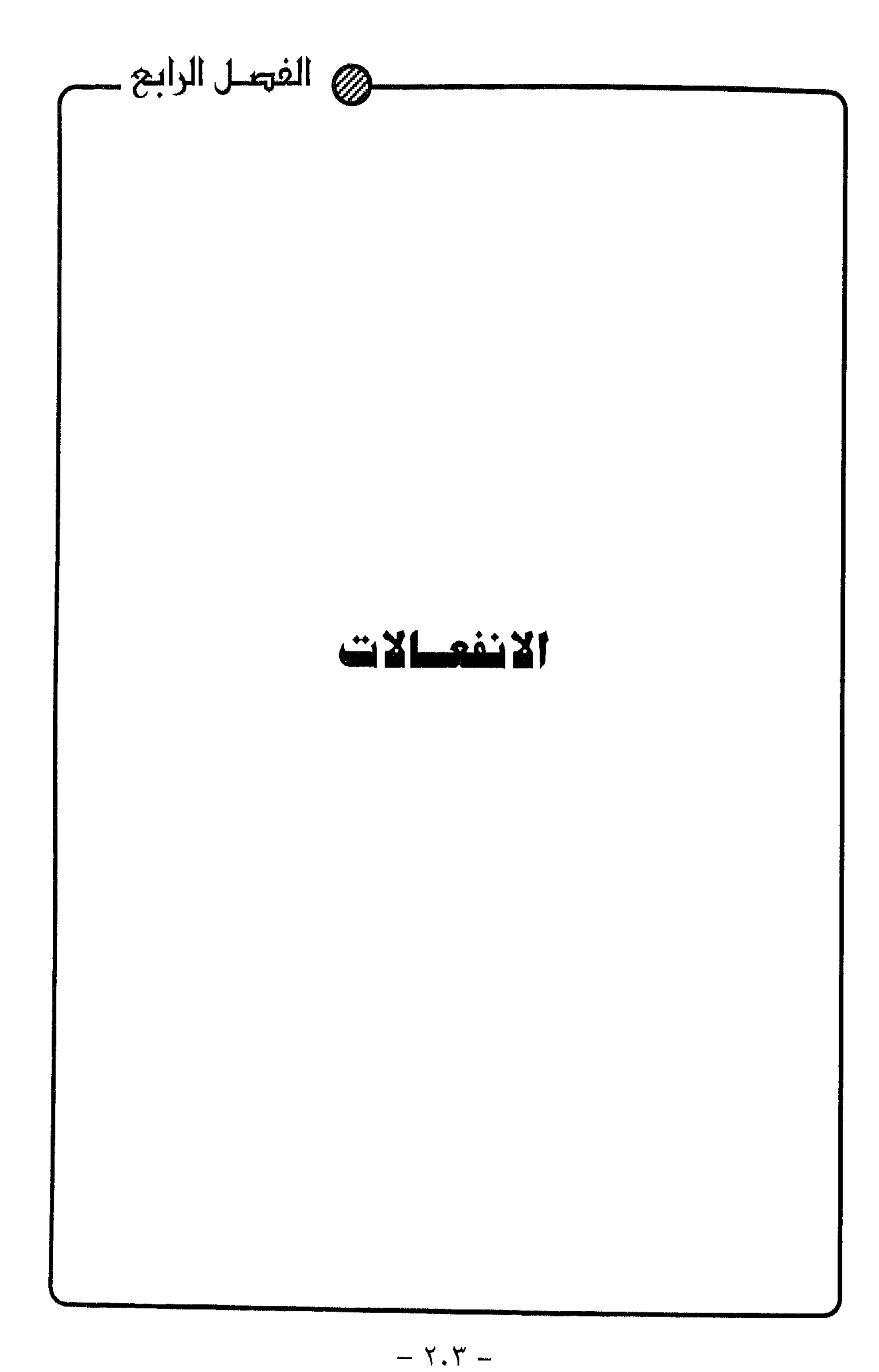
وبعض الكتب تسربت إليهم بعد الصحوة الإسلامية وانتشارها فى العالم الإسلامى، يقول الشيخ عاشور، عندما سئل: هل جاءتهم كتب من الخارج؟

(بدأ تسريب الكتب منذ عشرين عاما عن طريق بعض الشباب العرب، فدرست لطلابى كتاب الإيمان للشيخ عبدالمجيد الزندانى، ولاقى هذا الكتاب قبولا، والحمد لله. . .)[1].

وهكذا يصمد الحق أمام الباطل حتى يقضى عليه، بإذن الله، تعالى، مهما كانت قوة اندفاعه.

وهناك من الدوافع ما هو أقل من تلك، وهو دافع الاختلاف على المقاصد العامة والوصول إلى الأهداف، والاختلاف فى الطرق والوسائل والأساليب التى ينبغى اتخاذها والسبل التى يلزم انتهاجها. وهذه الدوافع من هذا النوع ليست من الخطورة بمكان حيث لا يمكن احتواؤها، بل العكس تماما إذا وجدت الداعى الحصين الذى يصبر عليها ويطول نفسه فى معالجتها؛ ذلك لأن الدافع الخلافى هنا ليس فكريا ولا عقديا، وإنما هو فى الطريقة والكيفية التى تصل بها الدعوة إلى الناس، وهذا شأن معظم الجماعات الإسلامية الموجودة على الساحة الإسلامية حاليا. . .)[2].

(١) جريدة (المسلمون) العدد (٣٩١) ٢ من صفر ١٤١٣ هـ ـ ٣١/ ٧/ ١٩٩٢ م.
(٢) لمزيد من التفصيل انظر كتابنا: منهج تقديم الدعوة.



الانفعالات

المبحث الأول
علامات وأنواع الانفعالات

إن طبيعة الإنسان التى خلقه الله عليها، المتمثلة فى تركيبه المزدوج من التراب ومن النفخة الربانية، تجعله يتميز عن بقية المخلوقات، فى أنه تظهر عليه علامات الانفعال بوضوح ويعبر عنها فى كثير من الأحيان، إما بالنطق أو علامات الوجه المتميزة أو بقية الحواس.

وهذا لا ينفى أن بقية المخلوقات لا تظهر عليها أى علامات، بل تظهر عليها، ولكنها فى الإنسان أوضح وأبرز ومميزة، لأن الإنسان يتأثر بمحيطه وبمنغصات الحياة أكثر من غيره، ولقدرته على التحليل والتفكير والاستنتاج والتعبير عن حاجاته، كما أنه له القدرة على كبت كثير من تلك الحاجات، مما يزيد فى حالات أو مسببات الانفعال وآثاره، بعكس المخلوقات غيره، حيث لا تستطيع كبت حاجاتها، كما أنها لا تقدر على الإفصاح عنها بوضوح، كما هو الحال لدى الإنسان؛ لهذا قلنا: إن الإنسان يتأثر بالانفعالات أكثر من غيره، لتلك العوامل الخلْقية التى ذكرناها وغيرها. . .

والانفعال حالة تعترى الإنسان جسميا ونفسيا بسبب شىء يهمه جدا ولا يمكنه القدرة على تنفيذه أو دفعه عنه أو جلبه إليه، سواءِ أكان ضارا أو نافعا محزنا أو مفرحا. . .

ويتأثر الإنسان بالانفعال تأثرا كاملا، جسميا ونفسيا ـ كما ذكرنا ـ ولكن التأثير يختلف من الشدة إلى الخفة، حسب نوع الانفعال وأهمية الشيء المسبب له.

المطلب الأول: علامات الانفعال وظهوره:

أ ـ علامات الانفعال:

للانفعال علامات يعرف بها، تظهر على الإنسان خارجيا منها:

١ ـ **علامات الغضب:** ومن مظاهرها، عبوس الوجه، وتقطيب الجبين، واحمرار الوجه، وانتفاخ الأوداج، وارتفاع الصوت الغاضب، والتلفظ بألفاظ غير سارة، وربما صحب ذلك تعد بالضرب أو الركل، وعامة الاهتياج..

٢ ـ **علامات الفرح:** مثل الضحك والانشراح، وبسط الوجه، والمرح والنشاط والحيوية، وخفة المزاج.

٣ ـ **علامات الخوف:** مثل الاضطراب العام، وشحوب الوجه، وامتقاع اللون، واصفرار الوجه، أو الهروب من الشيء الذى سبب الخوف أو الصراخ فى بعض الأحيان أو الخور وانهيار الأعصاب..[١].

ب ـ ظهور الانفعال:

تظهر الانفعالات عندما يحول حائل بين الإنسان وهدفه الذى يسعى لتحقيقه أو للوصول إليه، فعندما تكبت رغبة المرء ويصد عن بلوغ هدفه ومرامه، فإنه عندئذ يثور لتنفيذ ذلك، ويعبر عن غضبه أو عدم رضاه بالانفعال.

---

(١) سوف نتوسع فى هذه الأمور لاحِقاً، إن شاء الله، تعالى.

فإحباط الدوافع أو السلوك الغريزى ـ كما يرى بعض الباحثين ـ[1] يسبب الانفعال، كما أن الإرضاء الفجائى هو كذلك من مسببات الانفعال، وإن اختلف فى درجته ونوعيته عن انفعال المنع، فالإنسان إذا أخبر بشىء يسره ولم يكن يتوقعه، وإنما فاجأه ـ فإنه ينفعل، وربما بكى فرحا من شدة الانفعال، وهو ما حدث لأبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ عندما أبلغه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بصحبته فى الهجرة، كما حدثت عائشة، أم المؤمنين، رضى الله عنها ـ فجاء الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى بيت أبى بكر فى غير الوقت الذى اعتاد أن يأتى فيه، وهو منتصف النهار، فدخل على أبى بكر وقال:

(إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة، فقال أبو بكر، والصحبة يا رسول الله، قال الصحبة. قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح!! حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ..)[2].

إن أبا بكر كان يرجو ويرغب فى أن يصحب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى الهجرة، وهو لا يود أن يفارقه لحظة واحدة، ويخشى ألا يأذن له بالهجرة معه لأى سبب، أو يأتيه أمر من ربه بالهجرة منفردا؛ ولهذا عندما أخبره الرسول، صلى الله عليه وسلم، بأن الله أذن له فى الهجرة، بادره بقوله: والصحبة يا رسول الله! فكانت إجابة الرسول له بالإيجاب، دافعا لانفعال الفرح الذى أبكاه.

جـ ـ ظواهر أخرى للانفعال:

وهناك جوانب أخرى لمظاهر الانفعال تنقسم إلى ثلاثة أقسام[3]:

---

(١) انظر: أصول علم النفس ص ١٢٤ د/ أحمد عزت راجح.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٣.

(٣) انظر: أصول علم النفس ١٢٥.

قسم ظاهر وبارز للعيان نستطيع عن طريق ملاحظته ورؤيته أن نتعرف على نوعية الانفعال، وربما على درجته من حيث القوة والضعف، والسرور وغيره، مثل أن نرى شخصا متجهم الوجه أو نراه ضاحكا أو مبتسما، أو أن نسمع صوت عويل ونواح أو زغاريد امرأة. . . فتدلنا تلك الظواهر على نوعية الانفعال ودرجته. .

وقسم ثان من الانفعال لا يستطيع المراقب الداعى أن يتعرف عليه بسهولة ويسر، وربما لا يُعْرَفُ أصلا، وهذا النوع لا يشعر به إلا صاحبه، وهو المسمى بالانفعال الذاتى أو الداخلى، وهو الذى يؤثر صاحبه الكتمان والتستر عليه، ولكنه إذا زاد أو تطاول عهده ربما انفجر أو آذى الشخص نفسه مسببا له بعض الأمراض النفسية.

أما القسم الثالث فهو الذى يظهر على الجسد فى شكل اضطراب جسدى، مثل خفقان القلب واضطراب نبضاته أو ارتفاع ضغط الدم أو هبوطه أو الانهيار العصبى، ولعل هذا النوع يكون ثمرة من ثمرات النوع الثانى الخفى نتيجة للضغط النفسى الانفعالى على الجسد، بل نستطيع القول بأن الأنواع الثلاثة مرتبط بعضها ببعض، بحيث يمكن أن يكون كل واحد سببا للآخر وناتجا عنه.

وأهم ما يميز نوع الانفعال، وشدته، معرفة سببه، فبدون معرفة الشىء الذى تسبب فى الانفعال لا يستطيع الداعى أن يحكم عليه حكما جازما يفيده فى معالجته، وبالتالى فلابد من البحث أولاً عن السبب لمعرفة أصل الداء قبل إعطاء الدواء، وتكون معرفة ذلك بتتبع المسببات ومعرفة الخلفيات التاريخية والمشكلات الاجتماعية للمدعو.

ولنذكر الآن بشىء من التفصيل ما أجملناه سابقا من علامات الانفعال، ولكن تحت مسمى آخر، وهو أنواع الانفعال، كما سيأتى فى المطلب التالى:

المطلب الثالث: أنواع الانفعالات:

الانفعالات أنواع عديدة، وأشكال كثيرة، وتأثيرات مختلفة، كما أن مثيراتها ومسبباتها مختلفة هى الأخرى، نذكر من تلك الأنواع ما هو ظاهر ومؤثر مثل:

أولا: الغضب:

الغضب حالة انفعالية اهتياجية لا يمتلك الإنسان فيها شعوره وأحاسيسه تجاه المثير الذى سبب له الغضب، فيعبر عن ذلك بوسائل كثيرة، يتفاوت ضررها حسب شدة الانفعال وخفته، مثل رفع الصوت أو توجيه الشتائم والتلفظ بألفاظ لا تليق بالإنسان فى حالاته السوية؛ وأقصى وأقسى درجات الهيجان الغضبى ذلك الذى تسهم فيه الحركات والأعضاء، حتى يصل للضرب والأذى، وربما وصل إلى القتل والتنكيل،

والغضب أقبح أنواع الانفعال وأكثرها تدميرا للشخصية وتأثيرا على حياة الفرد، ولا يقف ضرره عند شخصية الغاضب، بل يتعداها إلى غيرها من أفراد المجتمع، مما يسبب حالة اضطراب عام وعدم استقرار له ولغيره إن تجاوز الحد المعقول.

ولكن مع ذلك فإن الغضب له فوائد ـ وله مضار وهى الأكثر، كما أنه له علاجات ومهدئات تحد من أثره، وسوف نجمل ذلك فيما يلى من النقاط:

١ ـ فوائد الغضب:

ذكرت ـ فيما سبق ـ أن للغضب بعض الفوائد، ولكنها محدودة بالنسبة لمخاطره، ولكن مع ذلك يلزمنا ذكرها للاستفادة منها أو لجعل الغضب ينصب عليها، بدلا من انصبابه على الجانب السلبى.

وأهم فوائد الغضب هى الغضب فى الله، وهو الذى يثور صاحبه عندما تنتهك حرمة من حرمات الله. فيثور المرء المسلم لردها، ولردع من يعتدى على تلك الحرمات. فهذا النوع من الانفعال الغضبى محمود ويرجى منه النفع والخير؛ لأن صاحبه لا يقصد الانتقام أو إلحاق الضرر والأذى، وإنما قصده الإصلاح، كما أن هذا النوع من الانفعال سرعان ما يزول بزوال مسببه، ولا يبقى بعد ذلك له من أثر، كما أن صاحبه لا يتعدى بالضرر، ولا يفقد اتزانه وعقله، ولا يطيش صوابه، بل يكون منفعلا، ولكن فى ثبات وتؤده، وهذا شأن كل ثائر لإحقاق الحق ونصرته على الباطل، وهو الذى كان يصدر عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من أنه لا يغضب ولا ينتقم إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله..

ولقد أقسمت السيدة عائشة على ذلك قائلة: (والله ما انتقم لنفسه فى شىء يؤتى إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله)[1].

ومن أنواع الغضب المحمود ذلك الذى نسميه غضب الشفقة، مثل غضب الوالد على ابنه أو ابنته إذا رأى منه ما يخل بشخصيته، وينتقص من قدره، فيغضب ويثور لذلك، وهو غضب رد الاعتبار وتوازن الشخصية، وقد يغضب المسلم من نفسه إذا رأى منها تقصيرا لا يليق بها، ويأخذها بالحزم والحسم، حتى ترعوى وترجع إلى الجادة.

ومن فوائد الانفعال الغضبى، الثورة لحماية العرض إذا انتهك، فيهب المرء ثائرا مدافعا عنه ذاباً عن حماه حتى يصان، ولولا أن الله جعل هذه الحمية فى الإنسان لانتهكت حرمات كثيرة ولاختل توازن العنصر الإنسانى وتدنى إلى الحيوانية الهمجية، وكذا يصان به المال من الغصب، وتحمى به الديار،

---

(١) متفق عليه، البخارى: كتاب الحدود (١٠) باب إقامة الحدود، الفتح ٨٦/١٢، ومسلم: كتاب الفضائل والمسند ٣٢/٦، ١١٤٥، ١١٦.

ويدافع به عن النفس، ويكف به الاذى عنها، ويصد به العدوان عليها؛ ولهذا فقد سمح الإسلام بمثل هذا النوع من الدفاعات والغضب لمثلها حتى تكون عند الإنسان القوة التى يدفع بها العدوان، ويصد بها الضرر الذى يمكن أن يلحق به؛ لأن الإنسان فى حالة هيجان الغضب تكون عنده قوة خارقة لا يحصل على مثلها في الحالات العادية، وهذه نعمة من الله على الإنسان؛ تشجيعا له على الدفاع عن نفسه وعرضه وماله من أن تنالها اليد الباغية؛ ولهذا فقد جعل من يموت وهو يدافع عن تلك الحرمات شهيداً؛ فقد روى فى هذا المعنى سعيد بن زيد قول الرسول، صلى الله عليه وسلم:

(من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)[1].

هذا إضافة إلى فائدة أخرى تفيد الشخص المنفعل نفسه، وهو تفريغ الشحنة الانفعالية الغضبية، التى ربما آذاه كبتها واحتقانها داخل نفسه، وسبب له أمراضاً عضوية ونفسية. . .

٢ ـ مضار الغضب:

أما مضار الغضب فهى ـ للأسف ـ كثيرة حتى ليتعذر على الباحث حصرها وإحصاؤها؛ لعدم تناهيها، فمنها ما هو نفسى، ومنها ما هو عضوى جسدى، ومنها ما هو اجتماعى. .

إن الغاضب تتفاعل نفسه؛ وتتزيد نبضات قلبه، ويغلى الدم فى دماغه، وتحمر عيناه وتنتفخ أوداجه، ويتصبب عرقه، ويفقد اتزانه، وتذوب شخصيته، فيخرج عن طور الاعتدال الإنسانى، ويصبح يعانى من مشاكل نفسية معقدة، لا سيما إن تكرر منه ذلك الهيجان مرارا، فربما سبب له أزمة نفسية قد تؤدى إلى الجنون واختلال العقل العصابى، ويعطى أو يسبب ما

(١) سنن الترمذى كتاب الديات باب (٢٢) ما جاء فيمن قتل دون ماله، ٤/٢٢.

يسمى بالشخصية الكاذبة، ذلك أن الهيجان يسبب قوة كبيرة تدفع المرء أن يتصور أن بإمكانه أن ينجز أعمالا كبيرة، قد لا تتحقق له بالفعل عند مباشرتها، حيث تخونه إرادته فى الغالب، كما أن الانفعاليين يفقدون كثيرا من شخصيتهم وذاتيتهم ووضوحهم، ورؤاهم لأنفسهم ولغيرهم[1]؛ ولهذا فإنهم عندما يرجعون إلى أنفسهم بعد ذهاب الثوران الانفعالى، فإنهم يسخرون مما قاموا به من أفعال، ويصيبهم الخزى، ويعتريهم الخجل المذل.

ويؤثر الانفعال الهائج فى عموم سلوك الإنسان، ويشوه الإدراك الصحيح، حيث لا يرى الغضبان فى خصمه إلا عيوبه وعوراته، ولا يسمع منه إلا الكلام القبيح والألفاظ الجارحة المخلة بالمروءة، فهو دائما يتوجه لنقائصه، ولا يلتقط إلا هفواته وزلاته.

وفى جانب التفكير، نجد الانفعال العاتى هو العدو اللدود للتفكير السليم الهادئ والناضج، ولا يتيح لصاحبه فرصة للتأمل وفحص العواقب التى تترتب على فعله وما ينجم عنه من خسائر، حيث نجد نظرته مؤقتة وآنية، ويضعف القدرة على حل المشكلات ويحد من بعد النظر، كما يطغى على العقل المدبر الناضج، ويرجع بالإنسان إلى العقلية الصبيانية، ويعقد لسان الشخص عن النطق بالكلام الطيب والتعبير الجميل، ولا يستطيع الهائج انتقاء كلماته، ولا وضعها فى مكانها المناسب، فهو يرمى بكلماته كالحجارة الثقيلة المبعثرة بدلا من أن يجعلها كالدرر المنظومة، والجواهر المنضودة، وتجده يتلعثم بالكلمات، ويهمهم ويدمدم بها كأنه طفل فى نهاية عامه الأول.

كما يجعل الانفعال الغضبى صاحبه يميل إلى السذاجة، فنجده يصد كل ما يمسعه يقال حول نفسه أو حول خصمه، فهو شديد التصديق لما يقال،

(١) انظر: الإرادة وفن الحياة، ص ٣١، بيير داكو، ترجمة رعد إسكندر وأركان بيثون، مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة.

وذلك لعدم قدرته على وزن الأمور وتمحيصها؛ لأن الاهتياج يمنعه من ذلك، وهنا يلعب الشيطان دوره فى إذكاء تلك الحالة، فيبدأ يفتل فى الغضبان بين السنام والقارب حتى يوصله لدرجة التبلد الذهنى، والتجمد العقلى، والتحجر الفكرى، ويتعدى هذا الخلل إلى بقية الأعضاء، حيث تقل عنده المهارات اليدوية[1] وكل الأعمال التى تحتاج إلى تركيز شديد، حيث تضطرب يداه وتغرورق عيناه، ويزيغ بصره، وتضعف ذاكرته، ويطيش فهمه، ويفقد صوابه، وتلتبس عليه الأمور، وتختلط الأوراق؛ ولهذا عندما وجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذلك الرجل الغضبان الهائج إلى ما يسكن غضبه، ويريح أعصابه، لم يستطع أن يفعل ما أوصاه به الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأنكر ذلك.

(عن سليمان بن صرد قال: قال كنت جالسا مع النبى، صلى الله عليه وسلم، ورجلان يستبان: فأحدهما احْمَرَّ وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبى، صلى الله عليه وسلم: إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد، فقالوا له: إن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال: تعوذ بالله من الشيطان، فقال: وهل بى جنون!!)[2].

وهذا كلام لو تفكر فيه هذا الرجل لأدرك أنه لا يقوله إنسان سَوِىٌّ لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولكنه جنون الغضب أعماه عن الحق.

وهناك مضار كثيرة تنجم عن الغضب نضرب عنها؛ خوف التطويل.

---

(١) انظر: أصول علم النفس، د/ أحمد عزت راجح، ص ١٤٣.

(٢) متفق عليه، البخارى: كتاب بدء الخلق، باب (١١) صفة إبليس وجنوده، الفتح ٦/٢٢٦. ومسلم بشرح النووى، كتاب البر والصلة، فضل من يملك نفسه عند الغضب ١٦/١٦٢.

٣ ـ مهدئات انفعال الغضب:

لم يجد علماء علم النفس العام علاجا نافعا لدرء الغضب وكبح جماحه، وصد عدوانه، وإيقاف عنفوانه، وما ذكروه من المعالجات لا يستحق أن يقال عليه علاج، وإنما هى وصفات لا تسمن ولا تغنى من جوع؛ لأنهم لم يعالجوا الداء من جذوره، وهو النفس الأمارة بالسوء ووخز إبر الشيطان الذى قطع الوعد على نفسه لَيَحْتَنِكَنَّ ذرية بنى آدم ولا يدعهم بكل السبل حتى يخرجهم عن الجادة، إن استطاع إلى ذلك سبيلا، إلا عباد الله منهم المخلصين:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١].

ولقد وصف علم النفس العام وصفات عامة يمكن أن تحد من الغضب، مثل التعليم والثقافة والتحضر[٢]، مما سنمر عليه لاحقا، إن شاء الله تعالى.

أما فى الإسلام فإننا نجد له معالجات عديدة كلها مفيدة ومثمرة؛ ذلك لأنها نابعة من علام الغيوب ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٣]، وهو أدرى بمعالجة النفوس وما يصلح حالها، نذكر فيما يلى بعضا من تلك المعالجات[٤]:

أ ـ ذكر الله، تعالى، والتعوذ من الشيطان:

إن المرء إذا كان على صلة بالله يذكره فى سره وعلانيته، أطراف النهار

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية (٦٢).

(٢) انظر السلوك الإنسانى، ص ١٥٣، د/ انتصار يونس.

(٣) سورة طه ـ من الآية (٥٠).

(٤) لمزيد من التفصيل، انظر: كتابنا المنهج العلمى للدعوة الإسلامية، ص ٢٣٩، ط ١ (١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م) مركز الكتاب للنشر بالقاهرة.

وزلفا من الليل ـ فإنه سيجد لذلك حلاوة، ويلمس فى نفسه طمأنينة وسكينة وهدوءا واستقرارا فى الحال، وراحة فى الضمير، فتصبح النفس مستقرة، والأعصاب هادئة غير مشدودة ولا متوترة، حتى إذا جاءها مثير للغضب لم تنجرف أمامه انجراف الغثاء أمام السيل العرم، بل تثبت كالجلمود الصلد فى مكانه لا تقلعه هوج الرياح، ولا ينزعه من موضعه عالى الموج؛ ذلك لأن النفس القلقة المضطربة مهيأة ومتحفزة للإثارة، فتهب لأول مثير، أما النفس المؤمنة الذاكرة فهى كموج البحر عند سكون الرياح، تنساب فى هدوء وتؤدة.

إن الغضب نزغة من نزغات الشيطان وهمزة من همزاته: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يوصى من يرى استعداده للغضب وقابليته له، بألاَّ يغضب، بمعنى أن يحاول تهذيب سلوكه ما أمكنه لدفع الغضب وكبته ما أمكن، حتى يصير ذلك عنده عادة وديدنا. فقد جاءه رجل من تلك النوعية، فقال له: أوصنى يا رسول الله، قال: (لا تغضب)[2].

ب ـ كظم الغيظ:

ولقد أوصى الإسلام الإنسان أن يدافع غواية الشيطان وأن يدرأ عن نفسه إغواءه. وأن يحاول تعود التحكم فى شعوره وضبط انفعالاته، ومدح الذين يحاولون ذلك؛ لكى يدفعهم ويشجعهم على ترويض أنفسهم على التحكم فيها والهيمنة عليها، ونحن نعلم أن المدح أحد الحوافز النفسية للعمل الممدوح؛ لارتياح النفس له، وانجذابها إليه؛ ولهذا فقد ساوى الله بين

(١) سورة الأعراف ـ الآية (٢٠٠).

(٢) البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٧٦)، ١٠/٥١٨.

الكاظمين الغيظ والمنفقين من أموالهم فى أحوالهم كلها، وجعل العفو سبيلا من سبل دفع هيجان الغضب وثورانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وكظم الغيظ له جوانب عضوية حركية، وجوانب نفسية داخلية، وكلاهما يكمل الآخر ويتممه، ويعينه على تهدئة ثوران الغضب، فهو من الناحية الحركية يعنى السكون والسكوت، والكف عن الكلام الذى يثير النفس، ويؤجج نار الغضب ويذكى أوراها، والساكت تسكن نفسه وتهدأ ثوته، وبالتالى يعطى عقله وفكره فرصة وبرهة للمراجعة ووزن الأمور وترجيح المصلحة.

وهذا جانب نفسى (سايكولوچى) يعمل بدوره على ارتخاء الأعصاب وتخفيف الضغط عليها، مما يهيئ النفس للتسامح ثم العفو، وهو المبتغى فى مثل هذه الحالات، ولقد جاء عن النبى، صلى الله عليه وسلم، قوله: (إذا غضب أحدكم فليسكت)[2].

وكظم الغيظ لا يعنى كبت الانفعال الذى يولد الأمراض، ويخنق الشحنة الانفعالية داخل النفس حتى تنفجر بمرض عصابى أو عقلى ـ كما يعنيه علماء علم النفس العام ـ ولكنه عملية استرخاء للنفس والأعصاب، واسترجاع لحكم العقل، وإتاحة الفرصة له للتفكر والنظر فى أمر الله ومراده فى الحادثة المسببة للانفعال، ثم الحكم عليها بعد ذلك، واستعراض الآيات القرآنية والهدى النبوى الذى يؤثر على النفس، فيعمل على إفراغ شحنتها الغضبية

(١) سورة آل عمران ـ الآية (١٣٤).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٥/١٥٢ و ١/٢٣٩، وسنن أبى داود: كتاب الأدب، باب (٣) ٤/٢٤٩.

واستبدال معانى الرحمة والرأفة والعفو والتسامح بها، حتى يزول ما بالإنسان من هيجان. وهذا ليس بكبت بالمعنى الذى يعنيه علماء النفس، وهذا من الفروق الأساسية بين علم نفس الدعوة وعلم النفس العام، الذى طالبنا مرارا بأسلمته هو ورفاقه مما تسمى (بالعلوم بالإنسانية) فيما كتبنا من مقالات وكتب!!

والسكوت - الذى هو كظم الغيظ - يعنى فيما يعنى الصبر وتحمل الأذى الذى دعا إليه الإسلام من أوسع أبوابه، وحث عليه وأمر به فى كثير من نصوصه، وجعله فى صلب الدين، ومنح عليه الحوافز، وكافأ عليه بالجوائز، ويقال للصابر إنك تثاب على صبرك، وتوفى أجرك بغير حساب: ﴿ ...إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1]. ﴿ ... وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

والصبر يعنى تهدئة النفس وترويضها على قوة التحمل وهى راضية وراغبة فى ثواب ذلك الصبر والتحمل، وبهذا ينتفى الكبت الذى يزيد النفس ألماً، حيث لا وعد بالخير عليه، ولن يستطيع أحد أن يَعِدَ بذلك إلا الذى يملك العطاء والوفاء به، وهو الله، تعالى، ولقد اتضح الجانب الذى يسبب الهدوء النفسى، ويخفف أو يزيل الحزن والاكتئاب النفسى الذى يعقب الغضب، اتضح ذلك فى قول الرسول، صلى الله عليه وسلم، للمرأة التى وجدها تبكى وتنتحب على ميت لها وهى واقفة ومكبة على قبره، فحاول إسكاتها وتصبيرها، ولكن الانفعال الذى تملكها لم يدع لها فرصة الإصغاء، ولكن الأهم هو أنها لم تكن تعلم أنه رسول الله، وعندما علمت به جاءت

(١) سورة الزمر - من الآية (١٠).

(٢) سورة النحل - من الآية (٩٦).

إليه تائبة راضية ونادمة، وهذا يعنى أنها بمجرد علمها بأنه نبى الله، زال كل ما بها من غم وانفعال، مما يدل على مدى أثر الإسلام على النفس البشرية عامة، والمسلمة خاصة ـ كما ذكرنا ذلك الأثر سابقا ـ حيث الوعد بالجنة والرزق الحسن يعمل عمله المؤثر فى النفس، ولنرجع إلى قصة المرأة فى مصادرها؛ لنرى ذلك الأثر عليها وقول الرسول، صلى الله عليه وسلم، لها معلما ومؤدبا. قال أنس بن مالك، رضى الله عنه: (مر النبى، صلى الله عليه وسلم، بامرأة تبكى عند قبر، فقال: اتقى الله واصبرى، قالت: إليك عنى؛ فإنك لم تُصَبْ بمصيبتى، ولم تعرفه! فقيل لها: إنه النبى، صلى الله عليه وسلم، فأتت النبى، صلى الله عليه وسلم، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك! فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[1].

وفى رواية قالت عند مجيئها: أنا أصبر، أنا أصبر!!

ما الذى غير هذه المرأة فجأة وعند علمها بأن الذى صبرها هو النبى، صلى الله عليه وسلم؟ إنه الإسلام والرغبة فيما عند الله من ثواب لا يملكه الناس، وهذا التغيير النفسى واضح فى موقفيها الأول والثانى، حيث كان الأول هو الاستمرار فى الانفعال، حيث ظنت أن الذى يخاطبها شخص عادى لا يملك لها من الأمر من شيئاً يمكن أن يعوضها عن فقدها لميتها، والموقف الثانى عندما طمعت فيما عند ربها من الثواب والجزاء الأوفى، فسرعان ما زال ما بها من كدر، وجاءت تعتذر رجاء ذلك الثواب، بل تثبت بعض الروايات أنها انفعلت لعدم ردها الحسن للرسول، صلى الله عليه وسلم، أكثر وأشد من انفعالها الأول على فقيدها، فقال الراوى: فأخذها مثل الموت، عندما أُخْبِرَتْ بأن الذى صبَّرها هو النبى، صلى الله عليه وسلم.

(١) متفق عليه، البخارى: كتاب الجنائز باب (٣١) زيارة القبور الفتح ١٤٨/٣. ومسلم: كتاب الجنائز (١٥) وفى غيرهما من كتب السنن.

وهكذا يملك الإسلام وعلم نفس الدعوة ما لا يملكه غيره من معالجات النفس البشرية فى التسرية عليها وتسليتها وتعديلها. . .

وبهذه التوجيهات المشحونة بالمعانى الدافعة لعمل الخير الصادة عن عمل الشر يعوِّد الإسلام الإنسان التحكم والضبط فى سلوكه، وترويض عواطفه وانفعالاته وفق مقومات السلوك الإسلامى العام؛ ذلك لأن الإسلام يفرض على أهله سلوكيات معينة هى قمة ما يبتغيه الإنسان السوى، وغاية ما يحاول الاقتراب منه علماء النفس، وهو إمكان ترويض الإنسان على ضبط انفعالاته والتحكم بها أو توجيهها نحو الوجهة التى تخدم الفرد نفسه ومجتمعه أو تبذل فى شكل طاقات فعالة مثمرة، ولكنهم تعوزهم الوسائل التى يصلون بها إلى تلك الأمنية التى منوا بها أنفسهم، وكان لهم دونها خرت القتاد، ولكنها بالنسبة للمنهج الإسلامى فى النفس الإنسانية تكون قطوفها دانية وثمارها حانية:

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[1].

ويفصل ذلك الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى توجيهه السديد قائلا:

(ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب. . .)[2].

وفى رواية الإمام أحمد، يتساءل ويكررها ثلاثا، الصرعة كل الصرعة الذى يغضب فيشتد غضبه، ويحمر وجهه فيصرع غضبه، ويقول: (ما تعدون الصرعة فيكم؟ قالوا: الذى لا يصرعه الرجال! قال: لا، ولكن الصرعة الذى يملك نفسه عند الغضب)[3].

---

(١) سورة الشورى ـ الآية (٣٧).

(٢) البخارى: كتاب الأدب باب (٧٦) الحذر من الغضب، ١٠/٥١٨ من الفتح.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١/ ٣٨٢.

ونشير هنا إلى التربية والبيئة وأثرهما على تعود المرء على ضبط انفعالاته أو تعويده ضيق النفس وغليانها، وهذا الأخير يحدث فى المدن الكبيرة، حيث تتعقد الحياة وتشعب مناحيها، وتقل اتصالات الفرد بغيره، ويكاد التكافل والتعاون والتراحم ينعدم أو يضيق نطاقه وينحصر، حيث يصبح الإنسان منغلقا على نفسه منزويا فى عقر داره أو فى حركة (ميكانيكية) تدور به من العمل إلى البيت، كما تشتد هنا حمى التنافس المادى والتسابق على جمع الثروة. . . وهكذا يشعر الإنسان بأنه معزول، رغم ما حوله من كثرة الناس والضوضاء التى تؤثر عليه نفسيا من جانب آخر، بدل أن تخفف عليه معاناته، هذا الذى نذكره تتضح معالمه، وتبرز خطوطه جلية فى المجتمعات غير الإسلامية عامة، والغربية منها خاصة؛ ولهذا فقد كثرت عندهم الأمراض النفسية والعقلية بصورة ملحوظة ومتواترة، مثل القلق الدائم، والتوتر النفسى، والذهان العصبى، والأمراض العقلية، والاضطرابات النفسية عامة، وتقل فى المجتمعات الإسلامية عامة، وتكاد تنعدم وسط المتمسكين بدينهم؛ لما ذكرنا من المهدئات التى يتعاطاها المسلم عن دينه، وهذا أمر - مع يقيننا القاطع به - مجرب تجريبيا يزيل غبش الشك.

ثانيا - الخوف:

توطئة:

الخوف العادى هو الارتجاف الطفيف فى أعضاء الإنسان الداخلية مثل القلب، أو الأعضاء الخارجية مثل الأطراف، والذى يحدث عند مثير غريب مفاجئ، يكون فيه خطر عليه، هو أمر طبيعى فطرى، زود الله به الإنسان والحيوان على السواء؛ ليتنبه لبعض المخاطر، ويستعد لمواجهتها، بخلاف الخوف المصحوب بالقلق والاضطراب النفسى، وهو نوع مرضى ضار بصحة الإنسان، خاصة إذا كثر أو تكرر، أما النوع الأول - العادى - فهو نشاط

عصبى (فسيولوچى) مصحوب بمنبهات حسية عصبية تنتج عن نشاط الدماغ فى نهاية العصب المركزى، فمنذ عشرات السنين فقط اكتشف العلماء أن لهذا الجهاز العصبى صلة رئيسة بعمليات التحكم فى الألم والخوف واللذة والغضب والحركة وغيرها من الانفعالات التى تحدث أو تصدر عن الإنسان والحيوان، وسموا تلك النشاطات العصبية الحية (الدينامكية) بالدماغ الجديد أو الدماغ المفكر. . .[1].

ومن هنا نستطيع أن نقرر، أن الخوف والهلع العادى خلق به الإنسان، وزوده الله به؛ لفوائد ذكرنا بعضها آنفا، وهذا ما يفسر هلع الإنسان من كل ما يعتقد أن فيه ما يسبب له الضرر ويلحق به الأذى، أو يفسر بعامل الشفقة واللهاث وراء المصلحة والابتعاد عن عكسها، إلا من اعتصم بحبل الله ولاذ بحماه.

ولقد أشار القرآن إلى شىء من ذلك فى قوله، تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ...﴾[3].

والخوف، عموما، منه ما هو مفيد وما هو ضار يلحق بالإنسان أذى جسيما:

أ - الخوف النافع:

أما الخوف المفيد فهو الخوف من عقاب الله، تعالى، وهو الذى يدفع

---

(١) انظر: ص ٦٥، من علم النفس القرآنى، د/ عدنان الشريف.

(٢) سورة المعارج - الآيات (١٩ - ٢٣).

(٣) سورة الأنبياء - من الآية (٣٧).

المرء لاجتناب المحارم وغشيان المأمورات، وهو الذى يورث العبد تقوى وصلاحا فى ذات نفسه، ويكسبه الهدوء والاستقرار النفسى، ويورثه راحة الضمير والسعادة الدنيوية والأخروية، ويجعله عضوا صالحا فى المجتمع يعم خيره ونفعه الجميع، ويؤمن الإنسان من المخاوف الأخرى؛ لأن الذى يخشى الله ويخافه لا يخاف شيئا آخر، سواء أكان بشرا أو حيوانا أو جمادا أو معنى من المعانى؛ لأن تلك الأشياء التى تخيف الناس هى مخلوقات لله، تعالى، تسير وفق سننه فى الكون بأسره، وحسب مقتضاه وحكمه فيها، فلا يخشى أن يلحقه ضرر منها، حيث لا يضادها ولا يصطدم بها؛ لأنه يسير فى نفس مسار السنن تلك الذى رسمه لها خالقها.

أما الذى لا يخاف الله فإنه يخاف تلك المخلوقات المبثوثة فى هذا الكون؛ ذلك لأنه يسير عكس اتجاهها الذى استنه لها خالقها، فيتصادم معها، فتؤذيه وتسبب له الخوف.

يقول الله، تعالى، فيمن يخافه ويسير وفق سننه فى الكون:

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[1]، وقال: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾[2].

إن الذى يسير وفق سنن الله الكونية هو مع الله دائما؛ ولذلك لا يخاف، فالله معه، ولن يَتِرَهُ عمله، فقد طمأن موسى وهارون قائلا:

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[3] وكذلك نفس المعية تأتى لموسى أيضا، ألا يخاف حتى من الماديات كالبحر مثلا:

---

(١) سورة الأنبياء ـ الآية (١٠٣).

(٢) سورة النمل ـ الآية (٨٩).

(٣) سوة طه ـ الآية (٤٦).

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾[1].

أما الذين تنكبوا سنن الله فى كونه ومنهجه فى خلقه فهم لا يعون، وإذا نُصحُوا لا ينتصحون حتى يصدموا بالحقيقة والواقع، ويدهمهم الخوف، فعندها يتساءلون:

﴿ ... حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾[2].

وهذا الناموس الإلهى يستوى فيه الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، فكل من حاد عنه وجانبه يصدم بحقيقته بمجرد محاولة الروغان والاضطراب للخروج عنه يأتى الخوف والوجل، وحتى لا نقع فى تلك المخالفات، يضرب الله لنا الأمثال المختلفة؛ لنعى الدرس وننتظم الطريق:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[3].

والخوف من غير الله يسبب الخمول والتراخى ويورث اللامبالاة، والاستخفاف بالقيم ومعالي الأمور، أما من يخشى الله ويتقيه، فإنه ينشط فى عمل الخير كله، ويجدُّ فى طاعة الله؛ طلبا لمرضاته، ويسعى لكسب ما يرضى ربه، فهو مجد مجتهد نشيط؛ ولهذا وصفه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله:

---

(١) سورة طه ـ الآية (٧٧).

(٢) سورة سبأ ـ من الآية (٢٣).

(٣) سورة النحل ـ الآية (١١٢).

(من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألاَ إنَّ سلعة الله غالية، ألاَ إنَّ سلعة الله الجنة)[1].

ومن فوائد الخوف الغريزى، أنه يجعل الإنسان حذرا متيقظا لما يحيط به من مخاطر، وهذه من المنبهات الفطرية فى الإنسان خاصة والمخلوقات الأخرى عامة.

ب ـ الخوف الضار:

درجات الخوف:

توطئة:

الخوف كلمة عامة ومطاطة تتسع لكثير من المفاهيم، وتحتمل كثيرا من المعانى، وتتشعب لعدد من الفروع التى تحملها معانى اللغة العربية، ذات الدلالات المتنوعة، حسب التأثيرات التى تقع على الخائف؛ ذلك لأن الخوف منه ما هو قوى وشديد، وما هو متوسط، وما هو دون ذلك، وكلها درجات متفاوتة مثلما أنها متقاربة أيضا، نلخصها فيما يلى باختصار، ذاكرين ما يتعلق بها من معان؛ ليستفيد منها الدعاة فى تعاملهم مع المدعوين وفى أنفسهم أيضا؛ ذلك لأن منها ما يصل للدرجة المرضية التى تحتاج إلى العلاج النفسى الروحى قبل العلاج الدوائى، كما أنها فى الأصل لا تخضع كثيرا ولا تستجيب للعلاج الدوائى الطبى مثل استجابتها للطب النفسى الروحى القائم على تعاليم الإسلام وهديه.

الدرجة الأولى: الذعر:

الذعر ضرب من الخوف، ليس بالشديد جدا ولا بالهين جدا، ولم أجد

---

(١) رواه الترمذى فى سننه: كتاب صفة القيامة، باب (١٨) حديث (٢٤٥٠) ٤/٥٤٦.

له مثالاً فى القرآن الكريم بنصه، ولكن كتب اللغة جعلته نوعا من الخوف المخلوط بالدهشة والحيرة[1].

ووجدت معنى فى حديثين: أحدهما فى قصة أبى بصير عندما قتل أحد الرجلين اللذين أخذاه إلى قريش، ثم فر الآخر، ولحق أبو بصير برسول الله، صلى الله عليه وسلم فى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين رآه: (لقد رأى هذا ذعرا...)[2].

والنص الثانى الذى وردت فيه كلمة الذعر بمعنى الخوف، جاء فى الحديث التالى:

(عن حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس كان من الخوارج ثم فارقهم، قال: دخلوا قرية، فخرج عبد الله بن خباب ذعرا يجر رداءه، فقالوا لم ترع! قال: والله لقد روعتمونى!)[3].

الدرجة الثانية: الروع:

وهو كذلك نوع من الخوف، وهو قرين للذعر وإن كان أخف منه وطأة، ولم أجده فى القرآن إلا فى سورة واحدة، وفى آية واحدة، وهى سوة هود فى قصة الملائكة عند مرورهم بإبراهيم فى طريقهم إلى تدمير قرية قوم لوط، فراعه أنهم لا يأكلون، ولكن ذهب عنه الخوف بعد تقديم أنفسهم له بأنهم ملائكة، وليس من طبعهم الأكل، فخمد خوفه... قال، تعالى فى ذلك:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾[4].

(١) انظر: لسان العرب، حرف الذال، ٣/ ١٥٠٢.
(٢) البخارى: كتاب الشروط، باب (١٥) الشروط فى الجهاد، الفتح ٥/ ٣٣٢، والمسند ٤/ ٣٣١.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٥/ ١١٠.
(٤) سورة هود ـ الآية (٧٤).

أما فى السنة فقد وردت كلمة الروع بكثرة، وكلها تعنى نوعا ونسبة من الخوف، جاءت معانيها متباينة فى الشدة، مما يظهر أن الكلمة تُعرف شدتها بحسب الاستعمال والموضع. (جاء عن أصحاب النبى، صلى الله عليه وسلم، أنهم كانوا يسيرون مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى مسير فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى نبل معه فأخذوها، فلما استيقظ الرجل فزع، فضحك القوم فقال: ما يضحككم؟ فقالوا: لا إلا أنَّا أخذنا نبل هذا ففزع، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا يحل لمسلم أن يُرَوِّعَ مسلما)[1].

وكان من دعائه، صلى الله عليه وسلم: (.. اللهم استر عوراتى وآمِنْ رَوْعَاتى)[2].

ويظهر من حديث بدء الوحى أن الروع ليس بالخوف الشديد، كما ذكرت؛ لأن النبى، صلى الله عليه وسلم، لا يعتريه الخوف الشديد؛ ولهذا كان يحصل له عند بدء الوحى نوع من خفقان القلب كما جاء فى الحديث:

(... فدخل على خديجة بنت خويلد، رضى الله عنها، فقال: زَمِّلُونى، زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع...)[3].

ولهذا نقول: إن الداعى ينبغى أن يعالج هذا النوع من الخوف بالطرق العادية، ولا يدرجه فى قائمة الأمراض الخطرة ذات التأثير الكبير على المدعو؛ وليتعامل معه بصورة عادية وأن يعمل على منع ازدياده؛ حتى لا يتعدى هذه المرحلة فيكون من الخوف الخطر الذى يؤثر على الشخصية، ويعوق العمل ويعطل الإنتاج، ويكفى فيه التعهد والرعاية بصورة مستمرة

---

(١) المسند للإمام أحمد، ٥/٣٦٢.

(٢) المرجع السابق، ٢/٢٥.

(٣) البخارى كتاب بدء الوحى، باب (٣) الفتح ١/٢٢، ومسلم كتاب الإيمان (٢٥٢).

ومنتظمة، وطمأنة صاحبه بأنه ليس من ورائه من خطر، كما فعلت السيدة خديجة رضى الله عنها، مع النبى، صلى الله عليه وسلم.

الدرجة الثالثة: الرعب:

وهو نوع من الخوف الذى ترتجف منه الأوصال ويكون من شىء يشعر المرء أن فيه خطرا عليه، ويظل يتوهم ذلك الخطر وتلوح أمامه خيالات من قوته وسطوته، ولو لم يعرفها أو يتأكد منها، فيصيب الإنسان الخوف والرعب من جراء ذلك حتى تخور قواه، وتوهن عزيمته، ويصاب بالتبلد الذهنى، والشلل العضوى، كأن يتوهم الإنسان أن به مرضا عضالاً لا يشفى منه، أو أنه ستصيبه عدوى من جراء مخالطته لبعض المرضى، أو أن الجيش الفلانى سوف يهزم جيشه، لقوته، كما يتوهم بعض الناس قوة جيش إسرائيل، وأنه الجيش الذى لا يغلب!!

وقد ذُكرت معانى الرعب المختلفة فى عدد من سور القرآن الكريم مثل: آل عمران، والأنفال، والأحزاب، والكهف، والحشر: ففى آل عمران جاء قوله تعالى، عونا للمسلمين المجاهدين من أن الله، سينصرهم على عدوهم بإلقاء الرعب فى قلبه:

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1].

إن الرعب لا يعرف طريقه إلى القلوب المؤمنة بالله، العامرة بالإيمان، التى تعترف بأن القوة لله جميعا يهبها لمن يشاء، إن القلوب المؤمنة تنزل عليها السكينة، وتغشاها شآبيب الرحمة، فهو لا يعرف الاضطراب والْفَرَق من غير الله، ولكن تلك الخاوية من الإيمان، وتلك التى أشركت مع الله

(١) سورة آل عمران ـ الآية (١٥١).

غيره من مخلوقاته، فهى ملجأ الرعب ومأواه، فهى دائما واجفة خائفة؛ لأن معبوداتها لا تغنى عنها من الله شيئا.

وهذا الرعب هو من جنود الله التى ينصر بها عباده المؤمنين الصادقين... وهكذا يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر)[1].

الدرجة الرابعة: الرهبة:

وهى توءم للرعب، حيث إنهما جميعا من دواعى نصر المؤمنين وإعزازهم، وهى خوف وفزع ترتعد له الفرائض، وتوجف له القلوب، ويهجم على الشخص، ويمنع حواسه الإدراك والحراك... هذا فى قمته، ومنه ما هو خفيف يكون فى شكل اضطراب وارتباك عام عند ملاقاة الأكابر والعظماء فى أعين الناس وأعرافهم، وكذلك بالنسبة لذوى البطش والتنكيل، أو من يكِنُّ لهم الناس الاحترام والتبجيل.

وقد يرهب الإنسان موقفا عاما يقفه لأول مرة لم يعتده من قبل أو تتحول حاله إلى حالة لم يألفها... كل تلك المواقف ذات رهبة تؤثر على شخصية المرء، إلا إذا كان من أصحاب العزائم القوية والإيمان الراسخ.

ولهذا نحذر الدعاة من أن يرهبوا غير الله ومحارمه، كما نحثهم أن تكون شخصياتهم متكاملة يهابهم ويرهبهم غيرهم، ولا يهابون أحداً؛ ذلك لأنهم على الحق والعدل.

ولقد وردت معانى الرهبة المختلفة فى القرآن الكريم فى سبع سور هى: البقرة، والأنفال، والأعراف، والنحل، والأنبياء، والقصص، والحشر، قال

(١) متفق عليه، البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب التيمم باب رقم (١) ١/٤٣٦. ومسلم بشرح النووى كتاب المساجد حديث رقم (٣) ٥/٣.

تعالى، فى سورة الأعراف عن سحرة فرعون وترويعهم للناس وإرهابهم بالسحر:

﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وغالبا ما تقرن الرهبة بالرغبة، خاصة فى جانب الله، تعالى، عندما يرهبه عباده الصالحون؛ خوفا من عذابه، ورغبة فى عفوه وضاه. ﴿.. إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[2].

وجاءت الكلمة فى السنة بعدة معان منها: تحذير الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين من أن يُرْهِبَهُمْ شىء ويحول بينهم وبين الحق، حتى تكون الشخصية الإسلامية قوية فى الحق صادعة به؛ لأن أعداء الإسلام قديما وحديثا ما برحوا يحولون بين الإسلام وبين الناس بشتى السبل وكل الوسائل، لاسيما وسيلة الترهيب، خاصة بعد أن وهن المسلمون وتخلوا عن القوة التى أصبحت سلاحا فتاكا فى يد عدوهم يدمرهم به ويخوفهم من إظهار الحق الذى جاءهم به الإسلام؛ ولهذا يحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم قائلا.

(لا يمنعن رجلا رهبة الناس إن علم حقا أن يقوم به)[3].

الدرجة الخامسة: الوجل:

الوجل ضرب من الخوف الخفى الذى يسرى فى الأوصال الداخلية، وهو

(١) سورة الأعراف ـ الآية (١١٦).

(٢) سورة الأنبياء ـ من الآية (٩٠).

(٣) مسند الإمام أحمد، ٣/ ٨٧.

اضطراب قد لا يلاحظه غير المدقق أو من عرف أن الشخص خائف، وقد جاء فى أربع من سور القرآن هى: الأنفال، والحج، والمؤمنون، والحجر.

وجاءت كلمة الوجل فى كل تلك ـ ماخلا سورة الحجر ـ بمعنى الخوف من الله، تعالى، من عذابه وغضبه وسخطه، والرغبة فى جنته ومغفرته، إنهم المؤمنون الذين يهابون ويرهبون حمى ربهم، فبمجرد ذكر الله ترتعد قلوبهم وجَلاً وخوفا وتكبيرا للذات العلية عندهم، وتعظيما لها وإجلالا ومهابة، قال، تعالى، ذاكرا حال المسلمين المؤمنين عند ذكره:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(1).

أما المعنى الآخر الذى ورد فى سورة الحجر فهو الوجل العام، وهو الذى حصل لنبى الله إبراهيم، عليه السلام، عندما جاءته الملائكة تخبره بهلاك قوم لوط، فأخذه الخوف عندما قدم لهم العجل المطبوخ وامتنعوا عن أكله، قال، تعالى:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴾(2).

وفى السنة حديث العرباض بن سارية الذى يقول فيه:

(وعظنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب...)(3).

---

(1) سورة الأنفال ـ الآية (٢).

(2) سورة الحجر ـ الآيات (٥١ ـ ٥٣).

(3) سنن الترمذى كتاب العلم، باب (١٦) ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ٦/ ١٢٣.

الدرجة السادسة: الفزع:

الفزع هو الخوف الشديد، وهو الذى يصيب المرء من الأهوال والمصائب العظام، وورد فى أربع سور من القرآن هى: النمل، والأنبياء، وسبأ، وص، وأكثر ما ورد فى القرآن عن كلمة الفزع جاء لأهوال يوم القيامة وما يجد الناس فيه من خوف شديد، مثل قوله، تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾[1].

ولقد سمى الله يوم القيامة باسم الفزع لشدة الخوف والهول فيه، ولكن المؤمنين الصالحين لا يخافون ذلك اليوم لثقتهم بربهم ووعده لمن آمن واتقى وعمل صالحا؛ ولهذا فقد آمنهم الله من روع ذلك اليوم بقوله، تعالى:

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[2].

وفى السنة جاء حديث أنس بن مالك، رضى الله عنه:

(فزع الناس، فركب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فرسا لأبى طلحة بطيئا، ثم خرج يركض وحده، فركب الناس يركضون خلفه، فقال: لم تراعوا، إنه لبحر، فما سبق بعد ذلك اليوم)[3].

ولهذا قلنا إن الفزع هو خوف الخطوب المدلهمات، وهذا النوع الكبير الشديد من الخوف ينتج عنه نوع آخر من الخوف مترتب على آثاره العميقة فى النفس الإنسانية، هو ما سنذكره فى الفقرة السابعة فيما يلى:

---

(١) سورة النمل ـ الآية (٨٧).

(٢) سورة الأنبياء ـ الآية (١٠٣).

(٣) البخارى: كتاب الجهاد، باب (١١٧) الخروج فى الفزع وحده، الفتح ٦/ ١٢٣.

الدرجة السابعة: الذهول:

يحدث الذهول عندما يُسْكِن الفزع الأعضاء ويجمدها، فيخل بأعضاء الحركة والحس، فيتجمد الإنسان ويتسمر فى مكانه، ويعتريه خمول ذهنى وخمود فكرى، حتى ينسى أعز ما عنده ويزهد فيه، وربما تحول هذا النوع من الخوف إلى مرضى عصبى مستمر إن لم يعالج بالطب الإسلامى كقراءة القرآن وأحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، والدعاء، وبالترويح والتخفيف على المريض بمخففات ومسكنات تهدئ من روعه، وتعيده إلى رشده وطمأنينته..

ولم أجده فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة، وفى سورة واحدة هى سورة الحج، وقد ورد فى هول يوم القيامة، وعبر به القرآن بأبلغ تعبير كناية عن شدة الخوف وهول الصعقة، حتى إن الأم الحنون الرءوم الحانية على رضيعها تغفل عنه وتتركه من شدة ما أحست به فى نفسها من خوف طغى على حبها غير المتناهى لرضيعها، وتصل دقة التعبير القرآنى فى تصويره للوصف عندما يعبر بأن المرأة التى أصابها هذا الخوف الذهولى هى (مرضعة) ولم يقل القرآن (مرضع) حيث إن الأخيرة هى التى من شأنها الإرضاع، وإن لم تكن تمارسه فى تلك اللحظة، ولكن المرضعة هى التى ترضع فى تلك اللحظة والحال، إن طفلها يلقم ثديها ويمص درها، ومع هذه الوضعية الخاصة التى يزيد فيها حنان الأم حيث هى متهيئة بكل حواسها، حتى إن المرأة حين الإرضاع تفرز (هورمون) الحليب الذى يزيد من عاطفتها نحو وليدها، مما يجعلها تدر عليه حليبا زائدا، ومع هذه العاطفة المشبوبة فإنها تذهل عنه وتتركه من شدة الخوف بسبب هول ذلك اليوم الذى يترنح الناس فيه ويتمايلون، ليس طربا وإنما سُكْراً ليس من خمر ولكن من الخوف الذى يشل جهاز التوازن فى مخيخ الإنسان، ويبطل عمله فيصبح الإنسان يترنح فى

مشيه. . . يقول الله، تعالى، واصفا حال الناس فى ذلك اليوم ووضعهم النفسى:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

إنه (مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت، تنظر ولا ترى، وتتحرك ولا تعى، وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها. . . وبالناس سكارى وما هم بسكارى، يبدو السكر فى نظراتهم الذاهلة، وفى خطواتهم المترنحة. . . مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة، فيما الخيال يتملاه، والهول الشاخص يذهله، فلا يكاد يبلغ أقصاه، وهو هول لا يكاد يقاس بالحجم والضخامة، ولكن يقاس بوقعه فى النفوس الآدمية، أى فى المرضعات الذاهلات عما أرضعن - وما تذهل المرضعة عن طفلها وفى فمه ثديها إلا للهول الذى لا يدع بقية من وعى - والحوامل الملقيات حملهن، وبالناس سكارى وما هم بسكارى: (ولكن عذاب الله شديد). .

إنه مطلع عنيف مرهوب تتزلزل له القلوب. .)[2]، وتنخلع له الأفئدة، وتطيش لأجله العقول الراشدة. . . إنه فوق طاقة البشر وأكبر من قدرهم وتحملهم، إنه هول الذهول. . . اللهم سترك وعافيتك، اللهم سلم.

هذا هو تصوير القرآن للذهول، فماذا عن الحديث النبوى؟ جاء فى رجز عبدالله بن رواحة بين يدى النبى، صلى الله عليه وسلم، عند دخوله مكة فى حديث أنس، أن النبى صلى الله عليه وسلم، دخل مكة فى عمرة القضاء

---

(١) سورة الحج - الآية (٢).

(٢) فى ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/٢٤٠٨.

وعبدالله بن رواحة بين يديه وهو يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله

اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر: يابن رواحة، بين يدى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفى حرم الله تقول الشعر؟! فقال له النبى، صلى الله عليه وسلم: خل عنه يا عمر، فلهى أسرع فيهم من نضح النبل!!)[1].

ومن معانى الذهول الغفلة والنسيان والتغاضى عن الشىء وترك ذكره عامة، من ذلك قول النبى، صلى الله عليه وسلم، عن الدجال ووقت مجيئه، ما جاء فى حديث صفوان بن عمرو عن راشد بن سعد، قال: لما فتحت اصطخر، نادى مناد: ألاَ إن الدجال قد خرج!! قال: فلقيهم الصعب ابن جثامة، قال، فقال: لولا ما تقولون، لأخبرتكم أنى سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: لا يخرج الدجال حتى يذهل الناس عن ذكره، وحتى يترك الأئمة ذكره على المنابر)[2].

وهذا النوع له خطر داهم على الشخص، وله قدرة فائقة فى تدمير الشخصية وتحطيم معنوياتها وإنهاك قوتها وسلب إرادتها؛ ولهذا لزم الدعاة أن يتعاملوا معه بسرعة وحصافة؛ حتى لا يستفحل ويفلت الأمر من يدهم؛ لأنه ربما تسبب فى مرض نفسى أو صدمة نفسية ربما أودت بحياة الشخص أو

(١) سنن الترمذى، كتاب الأدب، باب (٧٠) ما جاء فى إنشاد الشعر، ٥/ ١٢٧.
(٢) مسند الإمام أحمد، ٤/ ٧٢.

دمرت عقله. ويحدث الذهول من هول الصدمات غير المتوقعة ذات المفاجأة التى تحدث للإنسان دون مقدمات، وهو يتبع الخوف الشديد، وربما الفرح الشديد لحدث لم يكن فى الحسبان، ويحدث عند انقلاب السيارات أو اصطدامها بعضها مع بعض أو حالات الغرق... ولهذا يحتاج للمسكنات العاجلة والإسعافات السريعة؛ لكى تعاد للإنسان الذاكرة التى شلها وعطلها هول المصيبة..

أما إذا تُرك فسوف يظل صاحبه ـ إن قدر له البقاء ـ هامدا ساكنا ذاهلا غافلا، لا يدرك نفسه فضلا عمن حوله. نسأل الله العفو والعافية.

الدرجة الثامنة: الهلع:

الهلع: ضرب من الخوف، وله عدد من المعانى، منها الحرص، والجزع، وقلة الصبر، ومنها الضجر، وعدم تحمل الأذى، وعدم الصبر على الشدائد والمصائب...

والهلوع هو الذى لا يصبر لأدنى مصيبة أو كربة تلم به، فتجده يسخط ويتبرم ويضيق بها ذرعا.

وهو نوع من الخوف، خاصة من النواحى الاقتصادية، حيث ينعت الهلوع بأنه صاحب العين التى لا تشبع، والنهم الذى لا يقنع، فمهما كثر عنده من مال يراه قليلا ضئيلا... وهو الشحيح الذى يكنز المال ويدخره ويضن به حتى على نفسه وعياله، وهو صاحب الشح المطاع والهوى المتبع، فنفسه مريضة بجمع المال واكتنازه والحرص عليه.

والهلع ـ فى عمومه ـ مرض يحتاج من الدعاة إلى معالجات خاصة، وفهم لنفسية الهلع والتمييز بينهم، حيث إنهم ليسوا كلهم سواء، كما أن أسباب الهلع متنوعة ومتعددة...

والهلع ـ فى عمومه ـ خصلة متأصلة فى بنى آدم، إلا أن الله يحفظ منها عباده المخلصين، ويبعد شرها عنهم؛ ذلك لأن الإنسان يفزع ويجزع من كل ما يتصور أنه يسبب له الأذى، وإذا مسه شرّ لا يصبر إلا من عصم الله وحفظه، وإذا جاءه الخير أبى عليه وتمنع، ومن هنا جاء نعت القرآن للإنسان عامة بصفة الهلع، فقال، تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1].

إذن الهلع صفة تلازم عموم البشر ملازمة ظلهم، باستثناء أصحاب الصفات التسع الذين ذكرهم الله فى الآية، وهم عدد كبير من الناس، والحمد لله، ولكن هل إذا توافرت صفة أو ثلاث صفات أو أقل من المذكورات فى الآية، يخرج صاحبها من صفة الهلع؟ الذى يظهر من سياق القرآن هنا فى هذه الآيات أنها صفات تكاملية، وشروط غير قابلة للتجزئة، فمن توافرت فيه جميعها فهو قد نجا، ومن أبطأت به إحداها فقد أناخ دون المورد، والله أعلم بعين الحقيقة.

ويرى بعض المفسرين أن المقصود بالإنسان الذى خلق هلوعا هو الكافر، ولا يشمل ذلك المسلم، وعلل ذلك بأن المسلم يصلى، والمصلى مستثنى من

(١) سورة المعارج ـ الآيات (١٩ ـ ٣٤).

الهلع. . .[1] غير أننا نرى كثيرا ممن وُلِدُوا فى الإسلام لا يعرفون منه شيئا غير الاسم والبيئة، كما أن الآيات ذكرت صفات كثيرة، والصلاة على رأسها، ثم إنها لم تقف عند المصلين فقط، بل لابد من الملازمة والمداومة عليها، والمحافظة المستمرة، والتعهد الدائم للصلاة وكل ما تصح به.

كما ذكرت الآيات المحافظة عليها، وهى تعنى الاعتناء بها والقيام على أمرها والإيفاء بكل شرائطها وأركانها، زيادة على الشروط المذكورة فى الآيات الأخريات التى تشمل الصفات الخُلُقية والاجتماعية التى هى قوام المجتمع الصالح والمميزة للشخصية الإسلامية، وهى التى يقوم الدعاة ببثها بين الناس وحثهم عليها وبذر بذورها بينهم وإنمائها وتعهدها؛ لكيلا تذبل وتخبو بسبب تراكمات الباطل، كالكربون يحجز تماس الكهرباء فتنطفئ الشمعة أو كالحديد يأكله الصدأ بطول المكث، وكذلك الناس إذا طال عليهم الأمد ينسون.

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتألف القلوب ويطب النفوس؛ ليقيها من مرض الهلع والجشع لا يفتك بها، فيدمر شخصيتها ويطمس هويتها، قال الحسن: حدثنا عمرو بن تغلب (أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أُتِيَ بمال أو سبى، فقسمه فأعطى رجالا، وترك رجالا، فبلغه أن الذين ترك، عتبوا، فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فوالله إنى لأعطى الرجل، والذى أدع أَحَبُّ إِلَيَّ من الذى أعطى، ولكن أعطى أقواما لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِل أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عمرو بن تغلب. فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حمر النعم)[2].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، ١٨/ ٢٨٩.

(٢) البخارى كتاب الجمعة باب (٢٩) من قال فى الخطبة بعد الثناء: أما بعد الفتح ٢/ ٤٠٣.

وحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الهلع والجبن أشد تحذير، وجعله من أكبر الشرور التى تصيب المرء، فقال:

(شر ما فى رجل شح هالع وجبن خالع)[1].

(١) المسند للإمام أحمد بن حنبل، ٢/٣٠٢.

المبحث الثاني
الإسلام يعالج الخوف بأنواعه

الإسلام هو الطب الدوائى الناجع لكل أمراض الخوف وأنواعه الذى يصيب النفس البشرية، حيث قصرت عنه مدارس الطب النفسى المختلفة؛ لاعتمادها على الماديات، وخلوها من الروحانيات، كما أن الإسلام يكمن نجاح علاجه فى كونه من عند الله خالق النفوس وبارئها، وهو أعلم بأدوائها وأقدر على طبها.

سنستعرض فى المطالب التالية بعض الأشياء التى تسبب للإنسان الخوف وتصيبه بالقلق مع إبراز علاج الإسلام لها.

المطلب الأول: الخوف من الفقر:

وهذا النوع هو ما ذكرنا أنه يسمى بالهلع، حيث يشعر المريض به أنه فى لهاث دائم وخوف مستمر، مما يمكن أن يلحق به من جراء الفقر الذى يتوهم أن شبحه يداهمه ولو لم يكن فقيرا بالفعل.

والإسلام فى علاجه لهذا النوع يعمد إلى إشعار الإنسان بأن الرزق من عند الله، تعالى، وما على الإنسان إلا أن يسعى متحركا باذلا جهده فى طلبه وكسبه من الطرق المشروعة له.

ولقد طمأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المسلمين وآمنهم من الخوف من الفقر، طمأنهم طمأنينة تنزع الخوف من الفقر من قلوبهم إلى يوم القيامة، إلا من نقص إيمانه:

عن أبى الدرداء قال: خرج علينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ونحن نذكر الفقر، فقال: (آلفقر تخافون؟! والذى نفسى بيده لَتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صبّاً، حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلا هيه، وايم الله لقد تركتم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء)[1].

فهذه الدواب لا تهتم للرزق، ولا يسبب لها قلقا ولا ضجرا ولا كدرا... ولا تحمل له هما ولا غما... فالله يرزقها... هذه المقارنة بين أرزاق الحيوان والإنسان، تجعل المرء يطمئن ويهدأ ويزول عنه الهلع والجشع: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2].

ولقد امتن الله على كفار قريش بأن يسر لهم رحلتين تحفظان لهم سبل العيش، وأنه هو الذى هداهم لهاتين الرحلتين؛ إحداهما فى الشتاء إلى بلاد اليمن، والأخرى فى الصيف إلى بلاد الشام، فكانتا بمثابة التمويلين الموسميين:

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾[3].

ولهذا فقد طلب منهم أن يتجهوا بالعبادة لرب البيت الذى أطعمهم مما

---

(١) رواه ابن ماجه فى المقدمة، باب (١) اتباع السنة حديث رقم (٥).

(٢) سورة العنكبوت - الآية (٦٠).

(٣) سورة قريش كلها.

كانوا فيه من جوع، وآمنهم من الخوف الذى كان يصيبهم بسبب الخوف من الفقر وغيره من أسباب الخوف.

﴿ ... فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[1].

والآيات الواردة فى الرزق والكسب كثيرة والتى ترد كل ذلك فى أصله وأساسه إلى الله، تعالى، مع حث الإنسان على الحركة وبحث طرق التكسب لمجرد السبب، هذا مع منهج الإسلام العام الذى يربط الأشياء بمسبباتها.

يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم، حَاثّاً على الكسب، مقسما على ذلك بالقسم المغلظ: (والذى نفسى بيده، لأَنْ يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه ـ خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)[2].

لقد فصلنا القول فى هذا الموضوع فى الفصول السابقة، وذكرنا وقتها ما يثرى البحث العلمى ويغنى عن المزيد والتكرار[3].

وهذا العلاج الذى يورث النفس الطمأنينة والسكينة، والذى يجعل الإنسان يعيش فى مأمن من اللهاث وراء جمع المال وتكديسه، أو الحصول على لقمة العيش بكل وسيلة من الوسائل، ولو لم تكن مشروعة، ولو روَّع بها غيره أو أهدر حياته..

كل ذلك يمكن أن يحدث من جراء البحث وراء الثراء المادى أو إخماد

---

(١) سورة الملك ـ من الآية (١٥).

(٢) البخارى، كتاب الزكاة، باب (٥٠) الاستعفاف عن المسألة، الفتح ٣/ ٣٣٥، والترمذى كتاب الزكاة باب (٣٨) النهى عن المسألة ٣/ ٦٤، والمسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٢٤.

(٣) انظر: ص ٧٨ من هذا الكتاب.

جذوة الجوع... إن لم يتداركه ما يهدى النفس ويكبح جماحها ويطفئ نيرانها...

إن دافع الجوع ودافع الجشع والطمع يتساويان، وإن اختلفت الحاجات بين دافع الجوع العضوى ودافع الجوع النفسى لاكتناز الثروة؛ حيث الأول مشروع فى حد ذاته، فى حين أن الثانى غير مرغوب فيه لدى الأسوياء من الناس؛ لأن المطلوب هو سد الحاجة العضوية فقط.

المطلب الثانى: الخوف من المرض:

قد يصاب الإنسان بمرض خفيف، ولكنه لا يلبث أن يتفاقم ويزداد بسبب الخوف الذى يتحول إلى وهم، وهو مرض مركب يصعب علاجه، فكم من أناس مرضوا ابتداء، أو ازداد مرضهم بسبب الخوف التوهمى من المرض، كما أن البعض قد يشعر بأنه مريض بسبب مرض منتشر فى بيئته وإن لم يصبه.

وقد يتطور الخوف من المرض إلى وسواس وعقد نفسية تنهك قوى الإنسان، وتنهك جسده وترهق نفسه، وتبدد ماله، حيث يصبح أسيرا للدجالين والمشعوذين، باذلاً لهم كل ما يملك حتى قوت أولاده وما ملكت يداه، وما به من مرض حقيقى، ولكنه يحتاج فقط إلى ما يطمئن نفسه ويهدئ روعه، ولا يجد ذلك فى التردد على عيادات الأطباء، ناهيك عن أصحاب الدجل والشعوذة.

إن شفاء هذا النوع فى الإسلام حيث آيات القرآن وأحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيهما البلسم الشافى والطب الواقى، ولقد صدّق ذلك التجريب العملى، وهاك بعض الآيات والأحاديث حول هذا المعنى:

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[1]. والله ينزل من القرآن ما هو شفاء، شفاء كله ولكل مرض بصيغ العموم:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[2]. والإيمان بالقرآن وبشفائه شرط أساسى من شروط التداوى، وهذه قاعدة حتى مع الطب البشرى، حيث راج مؤخراً ما يسمى بالعلاج بالإيحاء حيث يُطَمْأَنُ المريض بأنه سليم وليس به بأس، فيؤثر ذلك فيه إيجابيا، وإذا شاع عند الناس أن طبيبا بعينه ماهر فى تخصصه فى المرض الفلانى فإن مجرد ذهاب المريض إليه وكشفه عليه وإعطائه دواء يجعله يشعر بالراحة النفسية التى تؤثر إيجاباً؛ ولهذا شرط القرآن للتداوى به الإيمان، أما من لا يؤمن فإن ذلك يكون عليه وَبَالاً، لا علاجا: ﴿ ... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ... ﴾[3].

والخائف الواجف من المرض ـ سواء أكان حقيقيا أو وهميا، هو فى كلا الحالين محتاج إلى ما يجعله مطمئنا، ساكن البال، هادئ الروع، محتاجاً إلى من يصبره بالشفاء، ويعده بالبرء؛ ولهذا فقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، إذا زار مريضا دعا له بهذا الدعاء:

عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله، كان إذا أتى مريضا أو أُتِىَ به إليه قال، عليه الصلاة والسلام: (أَذْهِبْ الباس ربَّ الناس، اشف وأنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما)[4].

---

(١) سورة الشعراء ـ الآية (٨٠).
(٢) سورة الإسراء ـ الآية (٨٢).
(٣) سورة فصلت ـ من الآية (٤٤).
(٤) البخارى: كتابر المرضى، باب (٢٠) دعاء العائد للمريض، الفتح ١٠/١٣١. والترمذى: كتاب الجنائز، باب (٤) ماجاء فى التعوذ للمريض، ٣/٣٠٣.

وكان يَعِد المريض بالشفاء من المرض، ويحثه على طلب العلاج والتماس التداوى كسبب فى العلاج والبرء، مع إسناد ذلك كله إلى الله، أعنى إسناد المرض والدواء، حتى إذا عرف المريض أن كل ذلك من عند الله، اطمأن وهدأ، وكان يقول، صلى الله عليه وسلم: (ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء)[1].

والقرآن كله شفاء ورحمة، بل وفاتحته التى جعلها الله فى كل صلاة هى شفاء، كما قال، صلى الله عليه وسلم: (فى فاتحة الكتاب شفاء من كل داء)[2].

ونجد هذا الشفاء فى عبادات الإسلام، كما هو فى القرآن، وليس هذا غريبا، فكم من أناس لم يكونوا يعرفون الطمأنينة فى حياتهم، ولم يذوقوا لذيذا لعيشهم ولا طعما لحياتهم، ولم يعرفوا الهدف والفائدة منها برمتها، ولكنهم وجدوا كل راحة نفسية وشفاء من تلك العلل - التى نغصت عليهم حياتهم - فى الإسلام، عندما خالطت بشاشته قلوبهم، ولامست سويداء أفئدتهم، فعادوا إلى الحياة من جديد، وأطلوا عليها بروح أخرى، بعد أن خلعوا عنهم قميص الثعبان وتسربلوا سربال الإسلام، فهذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول لأبى هريرة، رضى الله عنه: (قم فَصَلِّ فإن فى الصلاة شفاء)[3].

وهكذا يلزم الدعاة إلى الله أن يعالجوا المدعوين بهدى الإسلام - حيث تضيق بهم مصحات البشر - ويسكنوا خوفهم من الأمراض التى جلها بسبب الخوف من المرض نفسه، وأن يذكروهم بأن من اتبع هدى الله فلا يقربه الخوف: ﴿ ... فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4].

---

(١) رواه ابن ماجه فى كتاب الطب، باب (١) ٢/ ١١٣٨.

(٢) رواه الدارمى فى سننه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب، ٢/ ٤٤٥.

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده، ٢/ ٣٩٠.

(٤) سورة البقرة - من الآية (٣٨).

المطلب الثالث: الخوف من الموت:

الخوف من الموت توءم للخوف من المرض؛ لأن الثانى ينذر عن الأول، وهو بعض أسبابه وأكثر الخوف من المرض يأتى نتيجة للخوف من الموت، والإنسان يخاف الموت بالرغم من يقينه بأنه لا محالة مدركه ولاحقه، والغريب أن هذا الخوف يتملك الشيخ الفانى مثلما يتملك الصبى اليافع والشاب الناهض. . .

وحاول الإنسان جاهدا تفادى الموت، وإطالة عمره!! حاول الأطباء قديما وحديثا، ولا يزالون ينتجون الأدوية والعقاقير الطبية ويطلقون عليها دعاياتهم بأنها تطيل العمر، وتنسئ فى الأجل!! وتوسع فى الرزق!! ولكن كل ذلك لم يجد شيئا، لا أطال عمر إنسان، ولا وسع فى رزقه، ولم ينقص من عمره ولم يزد فيه، وخير لهم لو اتجهوا إلى الذى بيده الموت والحياة والرزق.

إن الإيمان بالله والعمل الصالح وفعل الخيرات وترك المنكرات - هى وحدها التى تطيل العمر. .

عن أبى هريرة: (قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: من سره أن يُبْسَطَ له فى رزقه وأن يُنْسَأَ له فى أثره فَلْيَصِلْ رحمه)[1].

والقلب العامر بالإيمان لا يخاف الموت؛ لأنه يعلم أن ذلك بيد الله وحده، وأن لكل أجل كتاباً، وأن الموت - لا محالة - مدركه يوما ما، وأن

(١) متفق عليه، البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب الأدب، باب (١٢) من بسط له فى الرزق بصلة الرحم، ١٠/٤١٥، ومسلم بشرح النووى كتاب البر، الحديث (٢٠) باب صلة الرحم، ١٦/١١٤، وسنن ابى داود كتاب الزكاة باب (٤٥) صلة الرحم، ٢/١٣٦.

أجل الله إذا جاء لا يؤخر، كما أن إيمانه بربه يجعله لا يفر من لقائه؛ لأنه موعود بالجنة والرضوان، وهذا يظهر جليا فى الجهاد وطلب الشهادة، وكلما ساءت علاقة الإنسان بربه، وكلما ضعف الإيمان وخبت جذوته ـ ازداد الشعور بالخوف من الموت. . .

والخوف من الموت يسير فى أربعة مسارات، كلها تصب فى النهاية فى الموت نفسه، نجملها فيما يلى:

المسار الأول: الانتقال من الدنيا:

الإنسان لا يود أن ينتقل من الدنيا برغبته، ويود أن يمكث فيها أطول فترة، بل كيفما امتدت به الحياة وطال عمره، يرى ذلك يسيرا، ويود أن يتمتع بلذيذ الحياة التى هى فى الحقيقة فيها شقاء كثير، ولعل الخوف من الدار الآخرة التى لم يألفها الإنسان يؤثر كثيرا فى الرغبة فى البقاء وعدم الانتقال، خاصة أصحاب الإيمان الضعيف أو الذين ينعدم عندهم ذلك أصلا، فهؤلاء أكثر خلق الله هلعا وجزعا وأشدهم فرقا من الموت، أما المؤمن فيعرف أن أجله محدود، وانتقاله محتوم، وهو أمر مبرم القضاء جرى به القلم وجفت منه الصحف:

﴿ ... إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١].

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ... ﴾[٢].

ويعلم أنه لن يموت حتى يستكمل رزقه، ويوفى عيشه من الدنيا: ﴿ ... وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[٣].

---

(١) سورة نوح ـ من الآية (٤).

(٢) سورة الجمعة ـ من الآية (٨).

(٣) سورة فاطر ـ من الآية (١١).

فالمؤمن يعرف ويوقن أن أجله فى الدنيا محدود، ويسير وفق قانون لايتغير ولا يتبدل، فإذا حان الموعد انتقل إلى الدار الأخرى وأخلى منزله هنا ليشغله غيره إلى أجل آخر.

ولهذا كان النبى، صلى الله عليه وسلم، يُهَوِّن من أمر الدنيا، ويقلل من شأن التشبث بها الذى يوصل المتشبث إلى درجة الخوف المرضى الذى يعطل قدرات الإنسان، ويحول بينه وبين الاستفادة من حياته المؤقتة، كان يهوِّن ذلك بقوله الآتى:

(عن عبدالله قال: اضطجع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على حصير، فأثر فى جنبه، فقلت: بأبى أنت وأمى يارسول الله! لو كنت أذنتنا ففرشنا لك عليه شيئا يقيك منه! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما أنا والدنيا! إنما أنا والدنيا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها)[1].

وفى نفس الوقت حث الإنسان أن يكون فَعَّالاً إلى آخر لحظة يعيشها، وأن يقتنص كل فرصة فى بقائه فى الدنيا؛ ليستفيد منها فى تعمير الأرض بالخير ويفيد غيره، وهى المهمة التى خلق الله الإنسان من أجلها فى الأرض، وأنزله لأجلها من الجنة..

عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن قامت على أحدكم القيامة وفى يده فسيلة فليغرسها)[2].

هكذا التوازن فى الإسلام لا ترجح فيه كفة فتطيش بالأخرى، ولا يطغى عنصر على الآخر، ولا يجرى الماء فى غير مجراه المخصص له، هذا شأن

(١) مسند الإمام أحمد، ١/٣٠١، وابن ماجه فى سننه: كتاب الزهد باب (٣) ما مثل الدنيا ٢/١٣٧٦، والترمذى فى سننه: كتاب الزهد باب (٤٤)، ٤/٥٠٨.
(٢) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، ٣/ ١٨٤.

الإسلام فى أصله ومنهجه، أما شأن المسلمين وواقعهم فلا يحاكم به الإسلام، ولكنهم هم يحاكمون بمنهج الإسلام ويعارون بمعياره.

أما غير المؤمن فإن الخوف من الموت وحب الدنيا يجعله دائما فى قلق واضطراب نفسى، وتشبث بعراها المهترئة، واحتماء بسترها المهتوك، فهو حريص على البقاء بأية صورة من الصور، ولو دمر غيره: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾[1].

المسار الثانى: الخوف من سكرات الموت:

إن سكرات الموت أول المجهولات التى تخيف الإنسان، فالأحياء يلاحظون صراع المحتضر مع الموت والنزاع المحتدم بين الروح والجسد، ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون مدى تقدير المعاناة التى يلقاها المحتضر، فهم ينظرون بأعينهم عراك واقتتال المحتضر والموت، ويسبب لهم ذلك ما فيه الكفاية من الذعر والهلع من المصير الذى ينتظرهم: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[2].

(وسكرات الموت هى كرباته وغمراته)[3]، ويلاقيها كل إنسان مع تفاوت فى الشدة..

ولقد جاءت بشائر كثيرة فى النصوص الإسلامية والآثار، تدل على

---

(١) سورة البقرة ـ من الآية (٩٦).

(٢) سورة ق ـ الآية (١٩).

(٣) انظر اليوم الآخر (١) القيامة الصغرى، د/ عمر سليمان الأشقر ص ٢٤، ط ١، (١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م). مكتبة الفلاح بالكويت.

تخفيف سكرات الموت بالنسبة للمؤمن، الشيء الذى يشرح صدره، ويهون عليه المعاناة التى تسبق الموت، نأخذ طَرَفاً من حديث البراء بن عازب الطويل الذى يرويه عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى هذا المعنى، حيث جاء فيه:

(.. إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت ـ عليه السلام ـ حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون ـ يعنى بها ـ على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى...)[1].

حرصتُ على نقل هذا النص النبوى، لما يجده فيه المؤمن من طمأنينة وراحة تذهب عنه كل خوف من سكرات الموت، بل وتُهَوِّن عليه مصيبة انتقاله من دار الدنيا. وربما جعلته يتشوق للقاء ربه... وهكذا نود للدعاة أن يبشروا أولئك القانطين الخائفين الذين سبب لهم الموت عقدة أماتتهم وهم

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده، ٤/٢٧٦.

أحياء وجعلتهم أمواتا فى الدنيا، إن الذى يقرأ أمثال هذا النص لا يصاب بالاكتئاب من جراء الخوف من الموت، ويجعله يزداد طاعة وصلاحا وتقربا من ربه، ساعيا لرضاه، مبتعدا عن معاصيه.

ومن تخفف عنهم سكرات الموت الشهداء، فقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (الشهيد لا يجد ألم القتل إلاّ كما يجد أحدكم ألم القرصة)[1].

وقد يعانى بعض الصالحين من سكرات الموت، وذلك إما لزيادة ثوابهم أو لتكفير بعض ذنوبهم، مع اختلاف تلك المعاناة فى الشدة، بل حتى من يقبض فجأة بمثل السكتة القلبية أو نحوها من الأمراض سريعة الموت، يعانى السكرات، ولو داخليا أثناء خروج الروح.

ولقد روت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ نحوا من ذلك عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى مرضه فقالت: (إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان بين يديه ركوة، أو علبة فيها ماء ـ يشك عمر ـ فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ويقول: فى الرفيق الأعلى، حتى قبض فمالت يده)[2].

ولا يكون وقع الشىء أقرب إلى الحقيقة والتصديق، ولا يؤتى ثماره المرجوة، إذا لم يقابل بضده، حيث يوازن المرء بين الأمرين، ويجرى بينهما مقارنة تبين له الطريق الصحيح والنهج القويم. . .

ولكى تحصل هذه المقارنة والموازنة، نذكر الجزء الآخر من النص أعلاه،

---

(١) المرجع السابق ٢/٢٩٧. ورواه الدارمى فى كتاب الجهاد باب (١٦) فى فضل الشهيد ٢/٢٠٥. ورواه الترمذى مع اختلاف فى اللفظ فى كتاب الجهاد باب (٢٥) فى ثواب فضل الشهيد ٤/١٦٠.

(٢) رواه البخارى فى كتاب الرقاق باب (٤٢) سكرات الموت، الفتح ١١/٣٦١.

الذى ورد فى انتزاع أرواح غير المؤمنين المتقين؛ لنرى كيف تخرج أرواحهم، وكيف تنتزع من أجسادهم، وكيف يعالجون غمرات الموت، ولننظر هل تجد أرواحهم ـ عند خروجها ـ ذلك الاحتفاء والاحتفال من الملأ الأعلى الذى تجده أرواح المؤمنين؟

لنعد إلى النص السابق لنستكمل منه هذا الجانب الخاص بكيفية قبض أرواح غير المؤمنين الوارد فى حديث البراء بن عازب.

(... قال: وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق فى جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من فى الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟! فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾[1]، فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ: ﴿ ... وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ[2] ﴾[3].

(١) سورة الأعراف ـ من الآية (٤٠).
(٢) سورة الحج ـ من الآية (٣١).
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٨٨.

المسار الثالث: الخوف من عذاب القبر:

لعل هذا أكبر أو من أكبر ما يخيف الإنسان من الموت، تلك الحفرة المظلمة الخالية من الأكسجين، المقفرة الموحشة التى لا أنيس فيها من البشر، ولا حول للإنسان فيها ولا قوة، تلك الحفرة التى تكمم الأفواه وتقطع الأنفاس وتحبسها بين الضلوع... القبر وما أدراك ما القبر!! إنه من وجهة نظر الإنسان المجردة، بيت الوحدة والوحشة وفراق الأهل والأحبة... إضافة إلى المجهول الذى ينتظر الإنسان.

وهو بيت الظلمات التى تطبق على الإنسان، فتحيطه من كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، مع فارق عدم الزينة، إلا من زينة الله له؛ ولهذا فقد قال، صلى الله عليه وسلم:

(إن هذه القبور مليئة ظلمة على أهلها، وإن الله، عز وجل، منورها لهم بصلاتى عليهم)[1].

قال ذلك الرسول، صلى الله عليه وسلم، عندما أخبروه بموت المرأة التى كانت تقم المسجد وقد دفنوها بليل وكرهوا أن يوقظوه، فلما أخبروه قال لهم: دلونى على قبرها، فصلى عليها، وذكر الحديث أعلاه.

لهذا فهو مخيف ومرعب ومفزع يسبب الجزع والهلع لمن لم يكن فى قلبه إيمان أو من كانت أعماله قبيحة، وعلاقته بربه مبتوتة، يبين تلك المعانى قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (... فأكثروا من ذكر هادم اللذات الموت، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول: أنا بيت الغربة، أنا بيت الوحدة، أنا بيت التراب، أنا بيت الدود... إنما القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار)[2].

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الجنائز، باب (٧) وفى المسند لأحمد ٣/ ١٥٠.

(٢) رواه الترمذى فى كتاب صفة القيامة والرقاق والورع، باب (٢٦)، ٤/ ٥٥١.

والخوف من عذاب القبر يلازم معظم الناس، ولكن درجات ذلك تتباين حسب موقع كل إنسان من الإسلام، ومدى تمسكه بالدين، ولكنه - على كل حال - يسبب عقدة الموت لعدد كبير من البشر، مما يستلزم الدعاة أن يخففوا على من كان ذلك شأنه، وأن يذكروا له أن المؤمن الصادق مع ربه لا يخاف من الموت شيئا، لا من القبر ولا غيره، حيث علاقته بربه قوية، ورباطه وثيق ومتين، ونذكر لهم النصوص الواردة فى أحوال البرزخ وما يلقاه أهل التقوى والصلاح وما يلقاه العصاة، وأن على الصالح ألا يخاف ولا يقلق، وأن يذكر وعد الله لعباده المخلصين... ولهذا يمكن تحسين علاقة الإنسان بربه وتطمينه من خوف الموت وما بعده...

وثم فرق بين خوف المؤمن من عذاب القبر، وبين خوف غير المؤمن منه، حيث خوف الأول يدفعه للعمل الصالح واجتناب ما حرم الله وما نهى عنه، وغشيان الطاعات، وعمل الصالحات، وتعمير الأرض بالخير، وهذا ما ورد عن الخليفة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فيما يرويه عنه مولاه هانئ، فيقول:

(كان عثمان بن عفان - رضى الله عنه - إذا وقف على قبر بكى، حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكى، وتذكر القبر فتبكى؟! فقال: إنى سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: القبر أول منازل الآخرة، فإن ينج منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه، قال: وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: والله ما رأيت منظرا قط إلاَّ والقبر أفظع منه)[1].

فتنة القبر:

وأول فتنة القبر، التى لا ينجو منها إنسان وإن تفاوتت درجاتها وأنواعها

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، ١/٦٣.

وشدتها وقلتها ويسرها وصعوبتها. . . وأبرز تلك الفتن، ضمة القبر، فمن الناس من يضمه القبر حتى تختلف أضلاعه ويهتك لحمه، ومنهم من هو دون ذلك، والصالح السعيد يضمه القبر ضمة الأم الرءوم، لوليدها، تحنو عليه بالقبلات، وإن كانت الضمة ـ عموما ـ حاصلة حسب النصوص الشرعية، فمن ذلك، ما رواه ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى موت سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه:

(هذا الذى تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضمه ضمة ثم فرج عنه)[1].

ومن فتن القبر السؤال من قِبَلِ الملائكة الموكلة بذلك، فما من إنسان إلا ويتعرض لذلك السؤال والامتحان العسير، واليسير على من وفقه الله، ولمن ذاكر واجتهد وحفظ الدرس ووعاه فى دار الدنيا، التى هى دار التحصيل، متزودا به إلى الآخرة التى هى دار الامتحان فى أولها، قبل دخول الجنة أو النار لجنى ثمار غرس الدنيا، إنْ خيراً وإنْ شراً. . .

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه ـ وإنه ليسمع قرع نعالهم ـ أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ لمحمد، صلى الله عليه وسلم، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة، فيراهما، قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره، ثم رجع إلى حديث أنس، قال: (وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى! كنت أقول ما يقول الناس! فيقال له: لادريت ولا تليت،

(١) رواه النسائى فى كتاب الجنائز باب ضمة القبر ٤/ ١٠٠ وأحمد فى المسند ٣/ ٣٣٢٧.

ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين)[1].

ومما جاء فى عموم عذاب القبر دون ذكر استثناء، حديث أسماء بنت أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنهما ـ قالت: (قام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خطيبا فذكر فتنة القبر التى يفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة)[2].

وقد كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يتعوذ من عذاب القبر، وقال قندر: (عذاب القبر حق...)[3].

وكما ذكرت سابقا، فإن المؤمن الذى كان يعمل الصالحات ويسعى فى خير الناس، يبشر ببشائر كثيرة عند دخوله القبر، فيرقد هادئ البال، ينظر إلى مقعده فى الجنة، كما جاء فى حديث البراء بن عازب السابق، الذى ذكر فيه:

(... قال: فتعاد روحه فى جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، صلى عليه وسلم، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت، فينادى مناد فى السماء: أن صدق عبدى، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد البصر، قال ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب طيب الريح، فيقول أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول

(١) و (٢) البخارى: كتاب الجنائز باب (٨٦) الفتح ٣/ ٢٣٢.

(٣) المرجع السابق، نفس الكتاب والباب، الفتح ٢٣٢٣.

له من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير فيه، فيقول أنا عملك الصالح، فيقول: رب، أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى..)[1].

إن تلك البشائر لجديرة بأن ترفع الروح المعنوية، وتزيح الخوف والهلع الذى يلازم كثيرا من النفوس فيجعلها بائسة كالحة، إنه الأمل الذى تنشده النفوس المريضة بالخوف فلا تجده إلا فى الإسلام، فهذه الوعود التى تسكن الروع وتؤمن الفؤاد، لا تقدر عليها مدارس علم النفس الغربية، إنما الإسلام وحده هو المنفرد بهذا..

هذا ما كان بالنسبة للمؤمن، أما الطرف الآخر الذى سود وجه صحيفته، وأضل طريقه وأفسد عمله، فإن ما يلقاه من عذاب القبر، لهو قمين به أن يجعله يراجع حساباته من هنا قبل أن يدخل بيت الظلمات، يتمثل ذلك الإنذار المبكر فى بقية حديث البراء بن عازب الآتى:

(... فتعاد روحه فى جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى!! فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى!! فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى!! فينادى مناد من السماء: أن كذب فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها. ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب نتن الريح، فيقول: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعد! فيقول: من أنت؟ وجهك الوجه يجىء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث! فيقول: رب، لا تقم الساعة!!)[2].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٨٧.

(٢) نفس المرجع السابق، نفس الجزء ص ٢٨٨.

المسار الرابع: الخوف من يوم الحساب:

المقصود بيوم لحساب، هو يوم القيامة الكبرى؛ ذلك لأن الموت والبرزخ وما حوله... ذلك كله يعد بمثابة القيامة الصغرى، أما القيامة الكبرى فهى يوم الهول العظيم، يوم يحشر الناس ضحى حفاة عراة غرلا، يوم يذهل كل امرئ عن خليله، وتذهل كل مرضعة عن وليدها، يوم التناد، يوم الطامة الكبرى، والصاعقة والماحقة... إنه يوم مجموع له الناس ويوم مشهود..

إن أهوال يوم القيامة لا يمكن أن يسطرها قلم ولا يصفها واصف، فقد كفى فيها وصف الله لها، وحق لمن عرف ذلك اليوم أو سمع عنه، أن يعمل له كل حساب، وأن يأخذ له كل أهبة واستعداد... إنه يوم مخيف مرعب متعب، إلا لمن يسره الله له، يوم تدنو فيه الشمس من الرءوس... حيث لا ظل إلا لمن أظله الله بظله.. إن الخوف من يوم القيامة يوم البعث والنشور ما ينبغى أن يؤدى إلى الجنوح والمرض، ولكن يجب أن يؤدى إلى إصلاح النفس وحملها على الطاعة لرب ذلك اليوم، يوم ينادى المنادى:
﴿ ... لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(1)

إن الإسلام ينادينا، معشر البشر، من الآن ونحن فى أكثر حالاتنا قوة ومنعة، أن نأخذ العدة لذلك اليوم، وهى تقوى الله، تعالى؛ لكيلا نندم ولات ساعة مندم! والله لا ينادينا من غير أن يبين لنا، بل نادانا ووصف لنا ذلك المشهد العظيم، رسمه فى لوحة عظيمة الوصف بارزة الملامح واضحة القسمات، رسم لنا لوحة فى شاشة كبرى ناصعة ونظيفة، عرض فيها ذلك اليوم عرضاً جليا بينا... هكذا يقول النداء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ

(1) سورة غافر - من الآية (16).

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

مراحل يوم القيامة:

إن هذا اليوم الرهيب المهيب، يمر على مراحل كلها تصفيات وتمحيصات، وكلها عجائب وغرائب يشيب لها الولدان المرد، ويلين من هولها الجلمود الصلد، نذكرها باختصار؛ لتتهيأ لها النفوس، ويستقيم المعوج، ويستعد الغافل، وينشط الكسول الخامل، ويصح من به مرض نفسى أو عقلى، ويتوب العاصى المُتمرد على ربه... إنها ذكرى لأولى الألباب.. إن لذكر هذا اليوم وأهواله أثراً عظيماً على النفس البشرية، فالإنسان عندما يعرف أن هناك حسابا وعقابا على أعماله فى الدنيا، فإنه يعمل على أن يكون حسابه حسنا وثوابه عظيما... فتسكن نفسه، ويهدأ باله، ولو عرف علماء النفس هذا الأثر لجعلوه من أولويات ما يدرِّسونه لطلابهم.

المرحلة الأولى: النفخ الأول فى الصور:

هذا النفخ يكون قبل البعث ويكون للأحياء ـ على أكثر الأقوال ـ فيأمر الله الملك بالنفخ فى الصور نفخة واحدة مدوية صاعقة ماحقة، فيخر كل من يسمعها، وتموت كل الأحياء إلا من شاء الله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ...﴾[2].

وهذه النفخة الصاعقة الهائلة المدوية المدمرة، تحدث فجأة وتباغت الناس مباغتة، وهى التى عناها الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله عن قيام الساعة:

---

(١) سورة الحج ـ الآيتان (١ و ٢).

(٢) سورة الزمر ـ من الآية (٦٨).

(ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبيهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه، فلا يسقى فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)[1].

وهذه النفخة لها أسماء عديدة كلها من نوع شدتها وقوة جذبها للأنفاس، فجاء قوله، تعالى، فيما ينتظره العصاة تحذيرا لهم بالمبادرة بالتوبة والإنابة قبل مجيء تلك الصاعقة: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]. وهذا مطابق لحديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، السابق فى سرعة الصعق فى حديث الذين يتبايعون، ومن يحلب لقحته..

وسميت النفخة بالراجفة التى ترجف من شدتها القلوب، وتنخلع الأفئدة، وتصك الآذان، ويخر الناس مغشيا عليهم: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾[3].

المرحلة الثانية: النفخ الأخير:

وهذه النفخة هى التى يحيى الله فيها الناس للحساب وليقودهم إلى المحشر؛ ليأخذ كل فرد حقه، فيقوم الخلق يترنحون من شدة الذعر والهلع، يخرجون حفاة عراة غرلا كما ولدتهم أمهاتهم، ولقد أشار القرآن إلى هذه النفخة الأخرى فى قوله، تعالى: ﴿ ... ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[4].

(١) صحيح البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب الفتن، باب (٢٥) ١٣/ ٨٢.
(٢) سورة يس ـ الآيتان (٤٩ و ٥٠).
(٣) سورة النازعات ـ الآية (٦).
(٤) سورة الزمر ـ من الآية ٦٨).

وقوله، تعالى:

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾(1).

إنه يوم تقلب فيه الموازين، وتختلف فيه المعايير، فهو يوم آخر له مقاييسه ومعاييره وموازينه التي تختلف عن تلك التى فى دار الدنيا، بل حتى الأرض والسموات كلها تتبدل وتتغير..

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(2).

إنه هول ترتعد منه الفرائص وتنخلع الأفئدة وتخشع الأبصار.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾(3).

وفى هذه النفخة يقوم كل أهل الأرض الذين ماتوا فى النفخة الأولى والذين كانوا ميتين من قبل: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾(4).

المرحلة الثالثة: يوم الحشر العظيم:

وهو أعظم يوم وأخطر موقف يقفه البشر على الإطلاق، له شأن عظيم لا يصفه قلم، ولا يتصوره عقل، ولا يحيط به خيال، مهما بلغ من الخصوبة والشفافية... وهو يوم الأهوال، يوم مقداره خمسون ألف سنة من أيام

(1) سورة النبأ - الآيات (18 - 20).
(2) سورة إبراهيم - الآية (48).
(3) سورة النازعات - الآيات (6 - 9).
(4) سورة يس - الآية (51).

الله. . . الشمس تتحرك من مدارها، وتقترب من كوكبنا الذى تغير هو الآخر وتبدل، فتسلط أشعتها المحرقة عليه، والناس حفاة عراة عطشى يلهثون من شدة الظمأ. . . وأدمغتهم تغلى من شدة الحر. .

ولقد وصف القرآن أحوال الناس فى هذا اليوم الكبير، بأوصاف عديدة كلها تعبر عن شدته وعظيم شأنه، منها قوله، تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[1]

وعندما ذكر الرسول، صلى الله عليه وسلم، أهوال ذلك اليوم، وذكر أن الناس يحشرون حفاة عراة غرلا كما ولدتهم أمهاتهم. . . عندما ذكر ذلك، استغربت السيدة عائشة ذلك قائلة: وكيف ينظر الرجال للنساء والنساء للرجال وهم عراة؟!! ولكن الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذكَّرها بأن ذلك اليوم أعظم من أن ينتبه إنسان لعورة الآخر، حيث تبلغ القلوب الحناجر، وتزيغ الأبصار وتحار الأفكار، وترتعد الفرائص

عن محمد بن أبى بكر (أن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: تحشرون حفاة عراة غرلا، قالت عائشة فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: الأمر أشد من أن يهمهم ذاك)[2].

إن يوم القيامة لجدير بأن يقف عنده الإنسان السوى العاقل، ويتأمل، ويستعرض القران الذى وصفه وصفا ما وصف قبله ولن يوصف بعده، فقد وصف حالة السموات والأرض والجبال والناس والدواب وشكل الأرض

---

(١) سورة عبس ـ الآيات (٣٤ ـ ٣٧)

(٢) متفق عليه، البخارى: كتاب الرقاق، باب (٤٥) الحشر، الفتح ١١/ ٣٧٧، ومسلم كتاب الجنة حديث رقم (٥٧)، والدارمى كتاب الرقاق، باب صفة الحشر (٨٠)، ٢/ ٣٢٦ والمسند لأحمد بن حنبل، ٦/ ٩٠.

وهيئة السماء. . . كل ذلك ببلاغة القرآن وروعة تعبيره. . . فيكفى أن نسمع هذا المثال من الوصف: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾[1].

ولقد فطن بعض الشعراء إلى هذا اليوم فنظم أهواله شعرا:[2].

مَثِّلْ لنفسك أيها المغرورُ	يومَ القيامة والسماء تمورُ
إذْ كُوِّرَتْ شمسُ النهار وأُدْنِيَتْ	حتى على رأسِ العباد تسيرُ
وإذا النجومُ تساقطتْ وتناثرتْ	وتبدلتْ بعد الضياء كدورُ
وإذا البحارُ تَفَجَّرَتْ من خوفها	ورأيتَها مثل الجحيم يفورُ
وإذا الجبالُ تقَلَّعَتْ بأصولها	فرأيْتَها مثلَ السحاب تسيرُ
وإذا العشارُ تَعَطَّلَتْ وتَخَرَّبَتْ	خَلَتِ الديارُ فما بها معمورُ
وإذا الوحوشُ لَدَى القيامة أُحْشِرَتْ	وتقول للأملاك أين تسيرُ؟
وإذا تُقَاةُ المسلمين تَزَوَّجَتْ	من حُورِ عينٍ زانَهُنَّ شُعُورُ
وإذا المؤودَةُ سُئِلَتْ عن شأنها	وبِأَيِّ ذنبٍ قَتْلُها ميسورُ
وإذا الجليلُ طوى السما بيمينه	طَيَّ السِّجِلِّ كتابه المنشورُ[3]
وإذا الصحائفُ نُشِّرَتْ فتطايرتْ	وتَهَتَّكَتْ للمؤمنين سُتُورُ
وإذا السماءُ تكَشَّطَتْ عن أهلها	ورأيتَ أفلاكَ السماء تدورُ
وإذا الجحيمُ تَسَعَّرَتْ نيرانها	فلها على أهل الذنوب زفيرُ

(١) سورة الطور ـ الآيتان (٩ و ١٠).

(٢) انظر: التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبى، ص ٢١٤، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

(٣) المنشور: بالرفع، نعت (لكتابه) علي القطع، خبر لمبتدأ محذوف.

وإذا الجـنانُ تـزخـرفـت وتطـيبت لفـتى عـلى طول البلاء صـبورُ[1]

وإذا الجـنينُ بـأمـه متـعلـق يخـشى القـصاصَ وقـلبُه مـذعور

هـذا بـلا ذنـب يخـاف جـنينه كيف المُصِرُّ على الذنوب دهورُ[2]

إن أهوال يوم القيامة، بمراحله المختلفة لجديرة بأن تهز النفس البشرية وتعيد لها توازنها الذى اختل بسبب تشعبات الحياة ومداخلاتها التى إذا ما تعمق فيها الإنسان أنسته الآخرة، وأورثته كثيرا من الأمراض النفسية التى لا تزول إلا بتذكر الآخرة والتفكر فى أهوالها وأحوال الناس فيها...

(١) صبور: بالرفع، نعت (لفتى) على القطع، خبر لمبتدأ محذوف.

(٢) الصواب: دهوراً: لأنها ظرف زمان، ولكنه ضم الراء مجاراة لأواخر الأبيات.

سايكولوجية المدعو

المبحث الأول
الفهم المتبادل والتفاعل

الداعى شخص يهمه أن يعرف المدعو، ويزداد معرفة به، وأن يألفه ويسكن إليه حتى يتم التفاعل المطلوب بين الطرفين؛ لتتم العملية الدعوية بالصورة المطلوبة، وهذا أمر لا يحدث إذا لم يفهم الداعى مَدْعُوِّيه، ويتعرف عليهم عن قرب، ويتعامل مع مشاكلهم وهمومهم، ويفهم نفسياتهم وما يؤثر عليها سلبا وإيجابا . .

ولكن كيف يتم هذا التفاعل النفسى؟ وما هى أدواته ووسائله؟ وما المنهج الذى يتم من خلاله؟ لنبين ذلك من خلال النقاط التالية:

نقاط لدراسة التفاعل عن بُعد:

لكى يتم الفهم الصحيح للمدعو، لابد من القيام بخطوات معينة تمكن الداعى من التعرف على المدعو ودراسته وتقويمه . . . ومن ثَمَّ الحكم له أو عليه، ومعرفة ما يصلح حاله . . . ونوجز تلك الخطوات فى النقاط التالية، دون الدخول فى تشعباتها.

١ ـ محاولة معرفة البيئة والمحيط الصغير الضيق الذى تفتحت عليه عينا المدعو، وأولها الأسرة التى يلزم معرفة أحوالها الاجتماعية، مثل علاقاتها

بالأقرباء والأهل ـ عموما ـ والجيران، وهل هى علاقات حميمة وودية أو متوترة؟ وإن كانت الأولى أو الثانية، فما الأسباب التى أدت إلى هذا النوع من العلاقات؟ وهل لها أسباب منطقية ومقنعة؟ وهل يمكن علاجها أو تحسينها؟ وما السبب فيها؟ وما الطرق التى يمكن أن تعالج بها؟

كما يلزم معرفة هذه البيئة الصغيرة من الناحية الاقتصادية والأحوال المعيشية، من حيث الرفاهية أو شظف العيش؛ لأن لكل جانب آثاره التى يتركها على نفس المدعو وما يكوّن خصائصه الاجتماعية وتوجهاته السلوكية فيما بعد، فالترف والإسراف فى المأكل والملبس والمركب ووفرة متطلبات الحياة فى متناول اليد ـ لها آثارها النفسية التى منها تعوّد عدم المبالاة بما يلاقيه الآخرون وما يكابدونه ويعانونه، كما تميت الإحساس ـ غالبا ـ بالشفقة والرأفة حيال بنى البشر الآخرين، إضافة إلى الحياة الرخوة الناعمة التى تجعل صاحبها يهتز لأقل مؤثر، ولا يستطيع الصمود أمام المشاكل التى لا تخلو منها الحياة الإنسانية... فهم لا يزالون أبداً فى عناء وكبد ما داموا على ظهر البسيطة

كما أن شدة الفقر المدقع وقلة ذات اليد، تسبب هى بدورها، المعاناة النفسية والقلق والضيق والتبرم بالحياة، والحقد على أصحاب الثراء وتمنى زوال نعمتهم...

وقبل هذا وذاك، يلزم دراسة ومعرفة المعتقد الذى تدين به الأسرة، فهو مربط الفرس فى تكوين وتشكيل الشخصية، فالتدين وعدمه له مردوداته وانعكاساته على السلوك البشرى بصورة أوضح من كل مؤثر آخر، حيث يتأثر الإنسان بمعتقده أكثر من تأثره بأى شىء آخر. وهذا ما نسميه: بمؤثر التنشئة الأولى، التى تؤثر حتى على الطبع الغريزى، وتهذبه وتشذبه، وهذه المرحلة الأولى لتشكيل الشخصية البشرية، فإن صلحت كان الشخص أقرب

إلى الصلاح، وإن فسدت كان أقرب إلى الفساد. . . ثم تليها مرحلة أخرى هى:

٢ ـ مؤثرات البيئة الخارجية أو المحيط خارج الأسرة، مثل الأصدقاء الذين ينشأ وسطهم الناشئ، فهم إما جلساء صالحون، وإما جلساء طالحون، مما فصلناه فيما سبق[١].

٣ ـ التكوين الثقافى المعرفى، وهذا يتناول التكوين الأول، خاصة فى مراحل التعليم الأولى واللاحقة، ونوع المنهج التعليمى، وتوجيه الدولة لهذا المنهج حسب الوجهة التى تراها. . . ثم يلى ذلك أو يساعده ما يطلع عليه الشخص بطريقته الخاصة حسب ما يروج فى البلد من اهتمامات الناس الثقافية.

٤ ـ معرفة هوايات المدعو، قبل الإقدام على تقديم الدعوة له، حتى يمكن التعرف على تلك الهوايات؛ لتحديد الصالح منها وتنميته، وتعيين غير الصالح لهدمه بالطرق التى لا تخدش شعوره، ولا تنفره من الداعى، ولا تحول بينه وبين الاستجابة للدعوة.

٥ ـ معرفة طموحاته وتطلعاته المستقبلية وما يستشرف الوصول إليه؛ فإن معرفة ذلك تعطينا مؤشرات على نفسية المدعو التى نجتهد للوصول إلى معرفة ما يؤثر عليها.

٦ ـ دراسة التيارات الفكرية السائدة فى البيئة وألوانها وأشكالها، وما ترمى إليه، وما يعتنقه الشخص المدعو منها، وما يحبه وما لا يحبه، مع معرفة أسباب ذلك كله، ولماذا اندفع لهذا الاتجاه وأيده، ولماذا عارض الاتجاه

---

(١) انظر ص ١٠٥ من هذا الكتاب.

الآخر، وما أمثل السبل لدعوته إلى الحق، وما السبيل الناهجة لتعرية تلك التيارات وكشف ما يحويه فكرها من باطل وزيف...؟

تلك النقاط كانت لإمكانية معرفة المدعو عن بعد؛ لكى يتمكن الداعى من إيجاد أرضية مشتركة بينهما للتعاون على نشر الدعوة وإيصال الحق للبشرية... وتليها:

نقاط لدراسة التفاعل عن قرب:

بعد تلك المراحل المتقدمة من محاولة التعرف على المدعو واستكشاف أحواله وما يؤثر عليه، نلخص فيما يلى المرحلة التالية، التى نقترب فيها من المدعو لإمكانية حصول التفاعل والتجاذب المطلوب بينه وبين المدعو، وهى ما نسميها، بمرحلة الاستجابة أو قبلها بقليل، وتتلخص فى النقاط التالية:

النقطة الأولى: اللقاء العابر:

إن أكثر ما يبرز براعة الداعى وقوة جذبه، هو اللقاء الذى يتم لأول مرة بينه وبين المدعو، سواء أكان فى مكان عام أم خاص، وسواء أكان الداعى متحدثاً فى ذلك اللقاء أم معلقاً أم مستمعاً... فالمهم فى كل ذلك أن يكون للداعى ظهور يمكِّن المدعو من التعرف عليه والالتقاء به، وهنا يلزم الداعى الحرص الشديد على استمالة المدعو إليه ولفت انتباهه بأية صورة من الصور، وأن يبتعد عن كل ما يمكن أن يعطى المدعو عنه انطباعا سيئا، وأن يحاول أن يترك فى ذهنه آثارا طيبة، وذكريات حسنة، تجعل المدعو يتذكر ويتمنى لو يلتقى به مرة أخرى، ومن أدوات ذلك:

١ - الابتسامة، والبشاشة، وطلاقة الوجه، ولين الكلام، وحسن الاستقبال.

٢ ـ ومنها الظهور بالمظهر الحسن، فى الهندام والسمت العام، والطلاقة فى الحديث، والبعد عن التقعر والتفيهق والتنطع فى الكلام، كما قال، صلى الله عليه وسلم، مشيرا إلى وجوب البعد عن تلك السلوكيات: (هلك المتنطعون. قالها ثلاثا. . .)[1].

النقطة الثانية: ما بعد اللقاء العابر:

بعد ذلك اللقاء الأول، أو ما أسميناه باللقاء العابر، بعد ذلك اللقاء الذى نفترض أنه حدث فيه ما يجعل الخيط مشدودا والجسر ممدودا بين الطرفين ـ الداعى والمدعو ـ تأتى بعد ذلك، مرحلة أخرى، وهى التى نسميتها: بمرحلة المحادثة الطويلة والجلسة أو الجلسات التى تتيح للجانبين تعرف بعضهما على بعض على مهل وتأن وترو، وفى هذه المرحلة يتم التعارف، ويتبادل الجانبان بعض الشئون التى تهمهما، ويتعرف كل طرف على ما عند صاحبه من أفكار وتصورات لشتى الموضوعات المطروحة فى الساحة بالحاح.

وفى هذه المرحلة يلزم الداعى أن يبذل كل جهد ممكن؛ ليبرز للمدعو أفضل ما عنده؛ حتى يجذبه إليه، ويحفزه إلى اللقاء به مرات عديدة. . . وهو ما نبحثه فى النقط التالية:

النقطة الثالثة: اللقاءات المتكررة:

وهذه تكون فى شكل زيارات فردية، أو لقاءات جماعية، تتم فى شكل محاضرات أو ندوات يشترك فيها عدد من الدعاة، ويحضرها عدد من المدعوين، ويفضل ألا تكون (على الناشف) كما يقولون، بل تقدم فيها بعض المشروبات أو الوجبات، حسب الوقت الذى يتم فيه اللقاء، وإن أمكن

(١) رواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى، كتاب العلم، باب (٧)، النهى عن الاختلاف، ١٦/ ٢٢٠.

أن تكون فيها بعض الهدايا الرمزية، فهو أمر حسن ومحبب إلى النفوس وأقرب إلى الألفة ودوام المودة، كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «تهادوا، فإن الهدية تذهب وغر الصدر، وفي رواية الترمذي: وحر الصدر، بالحاء، بدل، وغر. . .»[1].

وليس من الحكمة في شيء أن يلتقي الداعي بأناس ويتعرف عليهم ـ وهم في حاجة إليه ـ ثم يتركهم، لا يزورهم ولا يلتقي بهم، فإن الزرع لا ينبت ولا يؤتي ثماره بدون تعهد ورعاية، كما أنه لا تحصل الألفة والمعرفة التامة بدون تكرار الزيارات واللقاءات الفَيْنَةَ بعد الأخرى ولقد ذكرنا في مكان آخر[2] أنه على الداعي أن يتعهد المدعو من كل الجوانب حتى لا يترك له فراغا في جانب من الجوانب، إن لم يملأها هو ملأها غيره، خاصة ما يتعلق بالجانبين الروحي والثقافي، وفي كلا الجانبين عليه أن يحرص على تزويده بالصحيح النافع، فهو وحده الذي يدلف من الحق، ويثبت أمام التيارات المضادة الفاسدة، ويقي من ردات الفعل والانتكاسات التي تأتي عن مداخل الشيطان

النقطة الرابعة: مرحلة النصرة والمؤازرة:

وهي المرحلة التي يتكون فيها لدى المدعو الفكرة الكاملة عن الدعوة التي اقتنع بها وبدوره أخذ يعمل على نشرها وذيوعها، ونصرتها في كل مكان، وبهذا يتم التكامل بين الداعي والمدعو، ويصبح المدعو من الدعاة إلى الحق العاملين على نشره وتمكينه. .

وهذا هو منهج الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الدعوة، حيث كان يعرضها على الناس فرادى، كما فعل مع أبي بكر وعلي وغيرهما، وكما كان

(١) المسند للامام أحمد بن حنبل، ٢/ ٤٠٥، والترمذي أبواب الولاء والهبة باب (٦) ٣/ ٢٩٨.
(٢) انظر كتابنا: منهج تقديم الدعوة.

يعرضها على الجماعات والمجتمعات، فكان يتجول بالأسواق وأماكن التجمعات وموارد المياه، وكان يزور البلدان، فذهب إلى الطائف ليدعو ثقيفا، وكان يكرر اللقاء، كما فعل مع وَفْدَى الأنصار فى العقبة الأولى والثانية، وكان يرسل لهم من يعلمهم ويتعهدهم الْفَيْنَةَ بعد الْفَيْنَةِ، فأرسل مصعب بن عمير إلى المدينة ومعاذاً إلى اليمن... وهكذا مما هو مبثوث فى كتب الحديث وكتب السيرة...

النقطة الخامسة: تشكيل شخصية المدعو:

فى هذه النقطة الأخيرة ينصب العمل، ويتضافر الجهد، وتتكامل الحلقات التى يعاد من خلالها تشكيل شخصية المدعو وصياغتها صياغة جديدة، وتغذيتها بمختلف أنواع الغذاء الذى يجعل منها شخصية ثابتة، ويكسبها الاستقلالية فى الفكر والرأى والعمل، كما يشحذها للاستعداد للتضحية فى سبيل الدعوة، وبذل المال والوقت والنفس فى سبيل إنجاحها، وهو المنهج الذى تشكل عليه صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حيث جعل منهم أمة مختلفة تماما عما كانوا عليه، ففتحوا الآفاق، ونشروا الحق حتى أوصلوا نوره إلى العالمين كافة...

المبحث الثاني
استمالة المدعو وعوامل جذبه لتغيير أفكاره

لابد للداعى وهو يسعى للإصلاح عن طريق معرفة دواخل نفسية المدعو ـ لابد له من أن يعمل على استمالته إليه، وتقريبه منه فكريا وثقافيا. . .

وآخر درجات التغيير هى توافر عوامل الجذب والاستمالة، بحيث يجعل المدعو يتكيف مع أفكاره ومنهجه، ولا يكون ذلك إلا باتباع عدة خطوات، وتوافر عدة عوامل، نذكر منها:

١ ـ العمل على إحداث التوازن النفسى لدى المدعو، ويكون ذلك بمحاولة جعل نفسيته هادئة ومطمئنة، وألا يعمد الداعى لما يمكن أن يثير غضبه، مثل أن يغلظ عليه فى القول أو يشتد فى الحوار بلهجة حادة أو يذم ما له قيمة وتقدير عنده مباشرة. بل يلزمه أن يستعمل التورية والكناية، ويضرب الأمثلة البعيدة، ويتركه ليعرف ما يقصد من خلال الأمثلة العامة؛ حتى يترك عنده تساؤلات حول مدى صلاحية ما هو عليه من فكر ومنهج وأسلوب معتقد. . . . ويعطيه البديل الذى يقارن به ما عنده، أو ما نسميه: بالقضية التشكيكية، أو ذات الأطراف المتعادلة، التى كان يستعملها الرسول، صلى الله عليه وسلم، كما علمها إياه القرآن الكريم، مثل قوله، تعالى:

﴿ ... وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[1].

وهذه المعادلة المحايدة تجعل المدعو يفكر بعمق فيما هو عليه من معتقد أو فكر، كما تجعله ينظر إلى الداعى نظرة متوازنة؛ ذلك لأن الداعى لم يقل له: إن وجهة نظرى هى الصحيحة التى أصابت عين الحقيقة، وأنت المخطئ، لم يقل له ذلك من أول وهلة، كما يفعل أصحاب النظرة الْعَجْلَى، بل وازن بين الفكرتين، وجعلهما تحت منظار الفحص العلمى الدقيق... وفتح للطرف الآخر (المدعو) مجالاً للبحث فيما عند الفريقين.

وبهذه الطريقة يتبين الحق الذى مع الداعى، كما يتضح الباطل أو الخطأ الذى عليه المدعو...

٢ ـ من عوامل استمالة المدعو بغية تغيير أفكاره الخاطئة، وجذبه نحو هدف الداعى ـ ما نسميه: بعملية العزل الاجتماعى، والعزل البيئى... وذلك بالابتعاد به عن المحيط الذى يؤثر عليه سلبا، سواء أكان ذلك من حيث البيئة أو الجماعة التى ينتمى إليها؛ لأن عدم العزل وتركه مع تلك الجماعة أو فى تلك البيئة يجعل عملية التأثير عليه سلبية، إن لم تكن معدومة الفائدة، وهنا يصدق المثل المشهور فى هذا البيت الشعرى:

ألقاه فى الْيَمِّ مكتوفاً وقال له   إياك، إياك أن تبتل بالماء !!

ومنهج تنظيف البيئة بإبعاد أهل الشر عنها، أو إبعاد المدعو عنهم ـ هو منهج دعوى قرآنى، حيث أمر الله ـ تعالى ـ نبيه، صلى الله عليه وسلم، أن يبعد تلك الفئات الخبيثة ذات الأفكار التى تسمم البيئة، خاصة أن المدعوين عهدهم بالدعوة قريب، فربما أثرت فيهم الأفكار المنحرفة...

---

(١) سورة سبأ ـ من الآية (٢٤).

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

فمثل هؤلاء لابد من الابتعاد بالمدعو عنهم؛ حتى تصح له البيئة، ويعرف الحق، ثم لا يضره بعد ذلك شيء.

ومثلما يبتعد عن المحيط المُلَوَّث، كذلك يُقَرَّبُ من البيئة الصالحة النظيفة التى تؤثر فيه إيجابا؛ حتى يعرف الحق عن قرب، ويذوق حلاوة الإيمان بقربه من الصالحين: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ... ﴾[2].

وواضح من الآية القصد من الجوار الصالح هنا، وهو أن يسمع كلام الله؛ ليعرف الحق من الباطل، ولا يكره على قبوله بعد السماع، بل المقصود هو السماع، ثم تترك له حرية الاختيار بعد ذلك...

وهذه إحدى وسائل الدعوة، ومقصد من مقاصد القتال، وهو أن يسمح للناس بأن يسمعوا الحق، ثم تترك لهم حرية الاختيار بعد ذلك، أما أن يُحْجَبَ الحقُّ عن الناس وأن يُصَدُّوا عنه، فهو أمر غير عادل، ومنهج أعرج، وهو ما تفعله قوى الضلال والاستكبار فى كل وقت وزمان، وقد يكون حجب الحق بقوة القانون السلطى، أو بقوة الآلة الإعلامية الضخمة بهيمنتها على وسائل نقل الخبر وإيصاله للناس، فتبرز الباطل وتحجب الحق...

وليس بمنهج سليم ذلك الذى ينادى به بعض التربويين عندما يقولون: نستمر فى التربية، ولا تهمنا سلامة البيئة ونظافتها!! وهم بهذا كمن يحرث فى البحر، أو كما قال الشاعر:

---

(١) سورة الأحزاب ـ الآية (٦٠)

(٢) سورة التوبة ـ من الآية (٦).

مَتــى يــبلــغ البــنيان تمــامــه   إذا كنــت تبــنيه وغيــرك يــهــدم؟

ومثل ذلك كمثل إنسان يغتسل بماء طاهر وهو يخوض فى ماء نجس، فكلما اغتسل صار نجسا!! ولكن المنهج السليم هو كما تقول الحكمة: التخلية قبل التحلية.

ولكى تنجح الدعوة النجاح المطلوب، فلابد من تزامن نظافة البيئة مع العمل الدعوى، كما لابد من تزامن التربية السليمة مع إصلاح المنهج التعليمى، فلايمكن الطهارة مادام الإنسان يخوض فى وحل من النجاسات!!

وهذا المنهج هو الذى جعل عمل المصلحين يسير فى الخطوات العكسية، ويحد من الأثر الحميد، وربما ينعدم المردود الطيب له، لا سيما مع كثرة الباطل وقوته واستعماله لأعلى وسائل التقنية الحديثة.

ثم بعد إبعاد المدعو عن الجماعة والبيئة غير الصالحة، لابد من إعطائه البديل، وذلك بضمه إلى مجموعة صالحة خيرة ترعاه وتؤانسه، وتسد عليه الفراغ الذى خَلَّفَهُ تَرْكُهُ لجماعته الأولى، إضافة إلى التحصينات المتينة ضد العدوى التى ربما تطرأ عليه مستقبلا، وحتى لا يكون قابلا للتأثيرات الخارجية وذلك:

٣ ـ إحداث التغيير الثقافى والاقتصادى له، حتى يستطيع الدفاع عن نفسه، ويكون له رأى وفكر يعتز بهما، وتكون له القدرة ـ مستقبلا ـ على التأثير فى غيره، وحمل رسالته الدعوية الجديدة باعتزاز وثقة وثبات..

كما لابد من تأمين الجانب الاقتصادى له؛ حتى لا يلجئه الفقر والعوز إلى من يؤثر عليه؛ لأن أكثر ما يحدث الخلل فى توازن الإنسان الجانب المادى وضغط الجوع وإهانة المسغبة له، فيدفعه ذلك إلى اللين فى دينه، وهو ما يفعله الْمُنَصِّرُون فى البلدان التى ابتليت بالمجاعات والقحط، حيث يمدون

لقمة العيش والكساء والدواء مصحوبة بالصليب، مع التركيز على أنها منحة مهداة من (يسوع المسيح) الرب المخلص!!

والمنهج السليم فى الدعوة مع مثل هؤلاء الجياع هو سد حاجتهم أولاً، ثم يصحب ذلك بالدعوة لهم بانتهاج المنهج السليم؛ جتى لا يغريهم الآخرون باستغلال الحاجة التى لا يستطيعون دفعها، أما مع من هم ليسوا فى حاجة إلى المادة، فالأمر يختلف من حيث المنهج والأسلوب والوسيلة، حيث يقدم الفكر الناضج والحجة المتينة والمنهج الصحيح والأسلوب الجذاب، والبدائل التى تسد الفراغ الفكرى والخواء الروحى، وتهدئ النفس الثائرة، وتؤمن القلب الواجف، وتزيل الران، وتذهب الريب، وتوقف التردد..

والمتتبع للمنهج القرآنى الذى سلكه الرسول، صلى الله عليه وسلم، يجد أنه يقدم لكل فئة ما يناسبها من الأسلوب والوسيلة حسب حالها: فمنهم من يحاججهم ويجادلهم، ومنهم من يكتفى بإعطائهم ما يقيم أودهم ويدفع عنهم ذل المسغبة، ومنهم من يكتفى معه بذكر الثناء عليه وإسماعه الكلمة التى تثلج صدره، وتعيد إليه كرامته، وتذكره بمجده، وتطمئنه بأنه لن يكون فى مؤخرة الركب إن هو قَبِلَ الدعوة واقتنع بها، وإن كان الذى يمنعه هو سلب مكانته، كما فعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، مع أبى سفيان عند دخوله مكة بقوله: (مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمِنٌ...)[1].

وفى الجانب الآخر كان عطاؤه، صلى الله عليه وسلم، يعمل عمله التأثيرى فيهم، مما جعل أحدهم ينادى قائلا:

(... أى قوم، أَسْلِمُوا، فوالله إن محمداً ليعطى عطاء ما يخاف الفقر،

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الخراج والإمارة والفئ باب ما جاء فى خبر مكة ٣/ ١٦٠، والمسند للإمام أحمد ٢/ ٢٩٢.

فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها)[1].

وكان يقول، صلى الله عليه وسلم، فى دعوة أصحاب المكانة الاجتماعية: (أَقِيلُوا ذوى الهيئات عثراتهم..)[2].

هذا مع تعريف المدعو، التعريف الكامل بالاتجاه الجديد الذى تحول إليه، وأن يفقهه فيه جيدا؛ حتى تكون عنده الملكة التى يدافع بها عن نفسه ومعتقده، ويحمل بها الدعوة للآخرين.

٤ ـ تغيير المسار النفسى، ويكون ذلك بتحويل المزاج الحالى للمدعو، إذا كان هذا المزاج يسير فى اتجاه لايخدم الدعوة، وينحرف بها عن الخط الذى رسمه لها الداعى، فإذا كان المزاج النفسى يتسم بالغضب أو إثارة مشاكل معينة بين عدد من المدعوين خاف الداعى أن يحدث ذلك أثراً سيئاً فى نفسية المدعوين، مما يحدث بينهم شرخا يضر بالمنهج الدَّعَوِىّ، فما عليه إلا أن يعمل على تغيير هذا المسار الذى عليه المدعو إلى مسار آخر، سواء أكان ذلك التغيير باستحداث موضوع فكرى جديد يحتاج إلى تفكير وتأمل؛ ليحدث التفاتة عما أغضبهم أو يشغلهم بعمل يصرف التفكير عن الموضوع الذى يود صرفهم عنه..

والخلاصة هنا، أن من أفضل ما يعمل على إحداث تغيير فى المسار غير المرغوب فيه العملَ على صرف الناس عما هم فيه، وتحويل عملهم إلى عمل آخر، والموضوع الذى يتحدثون عنه إلى موضوع آخر، وربما احتاج الأمر إلى إنهاكهم بشىء يتعبهم جسميا ويرهقهم عضويا؛ لأن الإرهاق

(١) رواه مسلم فى كتاب الفضائل برقم (٥٨) انظر: شرح النووى ١٥/ ٧٢.
(٢) مسند الإمام أحمد ٦/ ١٨١. وأبو داود كتاب الحدود باب (٤) فى الحد يشفع فيه.

العضوى الجسدى المحدود، تتغير معه الحالة النفسية للإنسان، الأمر الذى يؤدى به إلى نسيان ما هو فيه ويصرفه عنه، ولو إلى حين. . .

كما يمكنه أن يصرفهم عن الموضوع الذى سبب لهم الفُرْقَةَ بموضوع آخر أكبر منه، تكون له أهمية تطغى على الأول فينصرفون إليه، وبالتالى ينسونه؛ حتى تزول الحالة النفسية غير المرغوب فيها. .

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يفعل ذلك مع الصحابة، فمن ذلك ما فعله بهم عندما وقع شجار وشحناء ثارت فيها نفوس الناس من مهاجرين وأنصار، عندما تقاتل أجير للأنصار مع أجير للمهاجرين، بسبب تزاحم على مورد ماء، وأزكى نار الفتنة بينهم رأس النفاق، ابن سلول، ولكى يحول الرسول، صلى الله عليه، مسار النقاش، ويلهيهم عنه بشىء آخر يشغلهم، فقد أمر بالارتحال، ونادى به على عجل كأن أمراً غير عادى قد حدث، فَعَلَ ذلك فى وقت لم يكن يرتحل فيه، حتى يُلْهِيَهُمْ ويصرف انتباههم، ويحول مسار النزاع إلى الاشتغال بالاستعداد للرحيل، فسار بهم يوما وليلة وصدرا من نهار اليوم التالى؛ حتى ينهكهم جسديا؛ لينشغلوا عند نزولهم بالنوم، ولا يكون لهم مجال للحديث فيما كان بينهم، وليزول ما بأنفسهم بالتقادم، فتهدأ النفوس الهائجة. . . يقول الراوى:

(. . . ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وَصَدْرَ يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض، فوقعوا نِيَاماً، فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث. . .)[1].

---

(١) البخارى بشرحه فتح البارى: كتاب التفسير سورة (المنافقون) ٢٠٢/٣. والترمذى: كتاب التفسير (سورة المنافقون). ومسند أحمد ٤/ ٣٧٠. والرحيق المختوم للمباركفورى ص ٣٣٠. نشر دار الحديث بالقاهرة (بدون تاريخ).

وهناك أنواع كثيرة وطرق عديدة لإحداث التغيير تستعمل من قِبَلِ الجماعات التى تعتنق مبادئ معينة تدعو لها: منها ما يسمى بالتغيير الْقَسْرِىّ أو الإكراهى[1].

وهذا التغيير قليل الجدوى خاصة على المدى البعيد؛ لأن المدعو ـ هنا ـ لا يقبل الفكر الجديد إلا تحت الإكراه، سـواء أكان ماديا أو اجتماعيا أو سياسيا، مثل الذى ذكرناه عن عمل المنصرين، وهذا لا أفضله للدعاة، وهو ليس من منهج الإسلام فى شىء، حيث لا يكره الإسلام الناس على مبادئه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ... ﴾[2].

﴿ ... أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ... ﴾[3].

---

(١) انظر: علم النفس الاجتماعى، ص ٢٠٤، د/ توفيق مرعى وأحمد بلقيس.

(٢) سورة البقرة ـ من الآية (٢٥٦).

(٣) سورة يونس ـ من الآية (٩٩).

المبحث الثالث
الدراسة الإنفرادية لسايكولوجية المدعو

لكى يفهم الداعى مَدْعُوِّيهِ لابد أن يدرس نفسياتهم بصورة منفردة، كل واحد منهم على حدة؛ لأن الدراسة المنفردة تتيح له التعرف الكامل على سايكولوجية المدعو ودواخله واهتماماته وطموحاته، وبذلك يستطيع أن يجعله يفضى له بمكنون سره، كما يكون ذلك أدعى لقبول النصح الإرشاد وسرعة التقبل لما يرشد إليه، بعد تمكن الداعى من فهم نفسيته...

وهذا النوع من الدراسات السايكولوجية الدعوية يحتاج إلى زمن طويل وصبر أطول، كما يحتاج إلى المراقبة الدقيقة الواعية ووضع الفرضيات المتعددة لتفسير سلوك المدعو، تفسيرا صحيحا؛ حتى تأتى النتائج مقاربة للواقع، إن لم تكن مطابقة له تماما، ثم يتبع ذلك تحليل تلك الفرضيات التى قامت بدورها على ملاحظات علمية سبقتها..

ولابد ـ هنا ـ من التكرار المستمر للتحليلات لضمان سلامة النتائج، كما لابد من وضع العلاج لما يراه الداعى من سلوكيات غير منسجمة مع الشخصية الإسلامية..

ويستند العلاج إلى عدة طرق، وتستعمل فيه وسائل كثيرة، مثل الحوار

الذى يستنطق فيه الداعى المدعو بإيراد أسئلة منتقاة، وبِضَرْب الأمثلة من الواقع الذى يعايشه المدعو لإقناعه بما يريده منه، ولتعديل سلوكه..

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يفعل ذلك كله وزيادة، وبأساليب تناسب حال كل مدعو... كما استعمل الصحابة طرقا من هذا القبيل، نذكر نماذج منها فيما يلى:

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن أعرابيا أتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إن امرأتى ولدت غلاما أسود وإنى أُنْكِرُهُ!!

فقال له النبى، صلى الله عليه وسلم، هل لك إبل؟

قال: نعم.

قال: ما لونها؟

قال: حُمْرٌ.

قال: فهل فيها من أورق؟

قال: نعم.

فقال: رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فَأَنَّى هو؟!

قال: لعله ـ يا رسول الله ـ يكون نَزَعَهُ عِرْقٌ له!!

فقال: النبى: صلى الله عليه وسلم، وهذا لعله يكون نَزَعَهُ عِرْقٌ له!!)[1].

فى هذا الحوار الهادئ الذى يجذب النفس، ويهدئ الثورة، ويطفئ نار

---

(١) رواه مسلم فى كتاب اللعان، انظر: شرح النووى عليه، ١٠/١٣٣.

الغضب، جاء هذا الرجل بنفسية سيئة وتهمة أسوأ، حيث وسوس إليه الشيطان بأن هذا الغلام الذى يخالف لونه لون العائلة ليس ابنه!! واتهم زوجه من غير جريرة بتهمة ربما كانت هى براء منها. فهو لم يؤسس دعواه على حجة دامغة، ولم يُقِمْها على بَيِّنَةٍ ولا مُسَوِّغ شرعى تستند إليه، وإنما هو نوع من الوهم والشك الذى يصيب بعض الناس، وربما تحول إلى مرض نفسى إن ترك وشأنه حتى استفحل وعتا، ويمكن أن يدمر حياة الإنسان، وينغص عليه عيشه، ويعكر صفو الأسرة، ويزلزل الأرض من تحتها؛ ولهذا فهو يحتاج إلى دراسة خاصة وحكيمة؛ حتى ترد النفس إلى صوابها، وتلزم غرزها... وهذا ما فعله الرسول، صلى الله عليه وسلم، مع الرجل آنف الذكر، حيث دخل عليه من مدخل منطقى هادئ يلمسه فى واقع حياته، ويعايشه فى بيئته، ولم يدخل معه فى جدلية عقيمة تفسد عليه ذوقه، ولا تصل إلى دواخل نفسه: بل أتاه بما يلامس كوامن النفس الخيرة، ويبعث فيها النخوة، ويحيى الفطرة، ويلزمه الحجة بالبرهان المحسوس الواقعى، مستدلا بعلم الوراثة، فلفت انتباهه إلى شيء يعتنى به ويحرص عليه، وهو نجابة الإبل وتحرى أصولها وجودتها، ونبهه إلى الطفرات الوراثية، كما يسميها علماء الوراثة، والتى نسميها نحن، بنزع الْعِرْق، فبدأ بالسؤال العام ليهدئ من ثورته، ويلفته إلى شيء آخر يبتعد به عن محور القضية التى جاء من أجلها... وهذا من أفضل مسكنات النفس، وهو أن تصرف الشخص - ولو مؤقتا - عن القضية التى أثارته، وسببت له المعاناة النفسية حتى يهدأ، ثم يكون مستعدا بعد ذلك لقبول النقاش وتقبل الفكرة، ويرجع إليه وعيه، ويثوب إلى رشده، وهذا ما يفعله علماء النفس مع مرضاهم، حيث يبدءونهم بأسئلة طويلة يرجعونهم فيها إلى تاريخ حياتهم الأولى، ويذكرونهم بماضيهم، ليبعدوهم عن الحالة الشعورية الحالية، وليعرفوا خلفياتهم،

فيضربوا عصفورين بحجر واحد... وهو ما يسمى بلفت الانتباه أو الابتعاد بالذاكرة عن المحيط لتفرغ من شحناتها الدافعة لها...

ولهذا لم يدخل النبى، صلى الله عليه وسلم، معه فى حوار مباشر حول طهارة زوجه ونقاوتها وعفتها، أو طلب البينة منه على ذلك؛ لأنه لو فعل معه هذا لما أمكن إقناعه تماماً، حتى لو اقتنع فى الظاهر فسوف تظل تراوده هواجس الشيطان، وتتردد عليه صورة زوجته التى أنجبت له ابنا يغاير لونه لون العائلة، بل ربما القبيلة، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم، سأله سؤالا بعيدا - فى ظاهره - إن كانت له إبل، فى حين أنه جاء يسأل عن ابنه وامرأته، فهو هنا سوف تدخل عليه الحيرة والتساؤل، لماذا يسألنى عن الإبل وأنا جئته لأمر مهم كهذا؟! ويبدأ يسرح بخياله، ويتأمل لعله يجد تفسيراً لذلك، كما أنه يكون مشدوداً عن سبب هذا السؤال، وعندما أجاب بأن له إبلا، بادره الرسول صلى الله عليه وسلم، بسؤال آخر عن لونها، فلما أجابه بذلك، أردفه بسؤال آخر: هل فيها جمل يخالف لونه لون بقية الإبل؟ وعندما أجاب الرجل بنعم، عاجله الرسول، صلى الله عليه وسلم، من أين جاء هذا اللون؟ فذكر الرجل بأن العامل الوراثى ربما كان هو السبب فى اختلاف لون جمله عن بقية الإبل، فَعَبَّرَ عنه بنزع العرق، فأجابه الرسول، صلى الله عليه وسلم، إن هذا النزع الوراثى الذى جاء فى الحيوان هو نفسه الذى جاء فى ابنك، فاقتنع الرجل، وسكنت نفسه، وهدأت ثائرته؛ ذلك لأن العرب كانوا يعتنون بإبلهم وتحرى نسلها، حتى كان كل شخص يعرف إبل الآخر من لونها وهيئتها لمعرفته بسلالاتها، فإذا وجد جملا فى مكان ما استطاع أن يقول: إن هذا الجمل من إبل فلان أو من إبل بنى فلان، فإذا جاء لون جمل يخالف ألوان بقية الإبل لم يشك فى ذلك، بل يرده إلى العوامل الوراثية من السلالات القديمة التى ربما كانت فى الأجداد التى لم يحضرها..

وهكذا ينبغى أن تكون الدراسة الفردية لنفسية المدعو تغوص معه إلى الجذور، وتضرب فى العمق، وتسبر الغور..

وهناك نوع آخر من طرق الدراسات المؤثرة فى سايكولوجية النفس البشرية تأثيرا انفراديا، وهى التى ترتكز على استثارة الحمية والنخوة، مما يدفع الشخص لأن يقلع عن فعل معين أو يندفع لفعل شىء بعينه، وهذا يدخل فيه الجانب العاطفى أيضا كعامل جذب وحفز..

نسوق مثالا حيا وواقعيا على ذلك بقصة شاب جاء للنبى، صلى الله عليه وسلم، وهو ممتلئ حيوية ونشاطا، تدفعه الغريزة الشهوانية الجنسية، متلفعا بثورة الشباب الدفاقة، فقال، فى ثقة واعتزاز بالنفس واعتداد بالشخصية:

يا رسول الله، ائذن لى بالزنى!! فأقبل القوم عليه فزجروه.

وقالوا: مه، مه!!

فقال: ادنه، فدنا منه قريبا، قال: فجلس.

قال: أتحبه لابنتك؟

قال: لا، جعلنى الله فداءك.

قال: والناس لا يحبونه لبناتهم!!

قال: أفتحبه لأختك؟

قال: لا، والله، جعلنى الله فداءك!!

قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم!!

قال: أفتحبه لعمتك؟

قال: لا، والله، جعلنى الله فداءك!!

قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم.

قال: أفتحبه لخالتك؟

قال: لا، والله، جعلنى الله فداءك!!

قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم.

قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء[1].

ونلاحظ هنا أن النبى، صلى الله عليه وسلم الداعية، لم يفعل معه ما فعله الحاضرون، بأن أسكته أو انتهره، بل قربه منه، وفى هذا من التسكين لنفسه والتأليف لها، ما يجعله يحب الداعى ويألفه، ويثق به، حتى إذا قال له قولا صدقه، وإذا أرشده اطمأن لإرشاده، كما أنه يزيل الحاجز النفسى بينه وبين الداعى، وهذا من أقوى المؤثرات فى النفس البشرية..

ثم أخذه بهذا الأسلوب المنطقى العاطفى الذى يلامس شغاف قلبه، ويثير عنده كوامن الرجولة والطهارة، وينفره مما أثر على نفسه... وفى النهاية ختم له بما بدأه به، وهو المسح على صدره، والدعاء له فى مودة ومحبة، وهنا يأتى الفارق بين علم نفس الدعوة وعلم النفس العام، وهو الدعاء والالتجاء إلى الله وربط الإنسان بخالقه، وجعل قلبه متعلقا به، مما يجعله يلجأ إليه فى كل أمر يحزبه فى حياته، فتطمئن نفسه، ويهدأ خاطره..

وثَمَّ عامل آخر له أثر كبير على نفسية المدعو، وهو ما نسميه، بعامل بناء الثقة بين الداعى والمدعو، ويكون ذلك بإبعاده عن كل ما يجلب الشك والريب بينهما.

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده، ٥/٢٥٦.

فمن العوامل المساعدة على بناء الثقة، نَأْيُ الداعى بنفسه عن مواطن الشُّبَه وتجنب الأماكن التى يرتادها أصحاب النواقص الذين يمجهم المجتمع، وإذا اضطر - الداعى - إلى شىء من ذلك لغرض معين، فعليه أن يفسر ذلك للمدعو؛ حتى لا يقع فى الشك فيه، وهذا ما فعله الرسول، صلى الله عليه وسلم، عندما رآه بعض الصحابة يسير مع زوجه صفية - رضى الله عنها - فبادرهما قائلا:

(على رسلكما، إنها صفية بنت حُيَىٍّ، فقالا: سبحان الله يا رسول الله!! وكَبُرَ عليهما، فقال، النبى، صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا)[1].

وهذا الذى فعله الرسول، صلى الله عليه وسلم، مع الصحابيين - يعتبر عاملا مهما فى دفع الظن، والبعد عن الارتياب، وهو إن لم يَصْدق تمام الصدق مع من خاطبهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولا سيما أنهما تعجبا من أن يظنا برسول الله، صلى الله عليه وسلم ظنّاً، ولكنه أمر قد يحدث بصورة أوضح مع بقية المدعوين:

وقد يرى الداعى أن بعض الناس يحتاجون إلى أن يخصهم ويفردهم بشىء دون الآخرين لشىء يلمسه فى نفوسهم، أو للخوف عليهم من أن يتفلتوا من الدعوة أو أن يظنوا أن الداعى يحابى غيرهم ويؤثرهم عليهم، ففى هذه الحالة لا بأس أن يخصص لهم شيئا دون غيرهم، ولو كان غيرهم أفضل منهم؛ دَفْعاً لما فى أنفسهم، وقطعا للظنة والتهمة به، وهذا ما كان يفعله النبى، صلى الله عليه وسلم، حين قال:

---

(١) البخارى، كتاب الاعتكاف، باب (٨) هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد؟ الفتح ٤/ ٢٧٨، ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٣٧.

(إنى لأُعْطِى رجالاً، وأَدَعُ من هو أحب إِلَىَّ منهم، لا أُعْطِيه شيئا مخافةَ أن يُكَبُّوا فى النار على وجوههم)[1].

وسوء الظن بالداعى هو من أكبر ما يهدم الدعوة، ويبطل مفعول الأثر النفسى الحميد لدى المدعو، وهو أمر يسعى إليه الداعى، والظن أمر يبنى على التخمين والخرص الذى لا يستند على شىء سوى الشائعات التى يتوهمها الناس من غير مستند، مما يسبب تفسيرا خاطئا لما يقوم به الداعى من عمل أو قول، وقد يصبح الظن خطرا داهما ومرضا عضالاً إذا تمكن من النفس وأصبح وسواساً يخنس فى صدور الناس، مما يهدم جدار العلاقة بين الداعى والمدعو، ويصبح مرتعا مورق الثمار من مراتع الشيطان، ومدخلا سالك السبيل من مداخله؛ ولهذا فقد نهى الله، تعالى، عنه وأمر المسلمين باجتنابه ودفعه وعدم تصديقه، فقال، تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ... ﴾[2].

وقال، صلى الله عليه وسلم: (إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث)[3].

والظن فى درجاته الأولى قد لا يسلم منه بشر؛ لأنه تفسير لمواقف معينة تصدر عن الآخرين، وتخضع لحدث وتفسير المشاهد أو السامع أو الرائى أو المنقول إليه..

ولكن المنهى عنه هو الذى يتراكم ولا يندفع حتى بعد اتضاح الموقف واتضاح الحقيقة؛ ولهذا كان بعضه إثما ـ وهو النوع الأخير ـ والبعض الآخر

---

(١) رواه أبو داود فى سننه، كتاب السنة، باب رقم (١٥) حديث (٤٦٨٣)، ٤/ ٢٢٠.

(٢) سورة الحجرات ـ من الآية (١٢).

(٣) متفق عليه، البخارى بشرحه فتح البارى كتاب النكاح باب (٤٥)، ٩/١٩٨، ومسلم بشرح النووى كتاب البر (٢٨)، ١٥/١١٨ والمسند لأحمد ٢/ ٢٤٥.

ـ النوع الأول ـ ليس كذلك؛ ولهذا السبب ورد عدم الإكثار منه وجعله منهجا، كما جاء فى الآية السابقة، ولقد قيل: ثلاث لا يسلم منهن أحد: الطِّيَرَةُ، والظن، والحسد..[1].

والظن عملية نفسية، يستطيع الداعى أن يعالجها باتباع خطوات معينة يعلِّمها للمدعو، ويجعله يمارسها؛ حتى تغدو عنده سجية تنساب من غير تكلف. نذكر منها ما يلى:

١ ـ تحويل الظن السيئ إلى ظن حسن، وذلك بالتماس الأعذار للمظنون به، وتأويل كلامه على أفضل الوجوه، وحمله على حسن النية أو الخطأ غير المقصود..

٢ ـ ألا يتابع المرء الظن حتى يحققه، بل يحاول نسيانه بقدر الاستطاعة، بصرف نفسه عنه بأمور أهم تلهيه عنه، ومنها ما قاله، صلى الله عليه وسلم. (ألا أنبئكم بالمخرج منها؟ إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيرت فامض)[2].

٣ ـ تقديم الثقة فى كل مسلم وتبرئة ساحته؛ حتى يثبت باليقين عكس ذلك، والبعد عن الشائعات التى يرددها أعداء الإسلام لتشويه سمعة المسلم؛ بغية الطعن فى الإسلام، ومحاولة صرف كل تهمة ترد على المؤمن من قِبَل أعداء الإسلام بأنها محض اختلاق، كما أرشدنا إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله، تعالى، عن الإفك، وما السبل التى نسلكها عند سماع ذلك:

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

---

(١) و (٢) انظر الجامع الصغير للسيوطى ١٤١/١ وقال رواه الطبرانى فى الكبير عن حارثة بن النعمان وضعفه، وانظر كنز العمال فى سنن الأقوال لعلاء الدين الهندى ٢٧/١٦ ـ ٢٨ وقال رواه الستة.

(٣) سورة النور ـ الآية (١٢).

٤ ـ الامتناع عن التجسس، وتحسس مواطن الضعف وما ستر من عورات الناس، ودواخلهم؛ لكيلا يطلع الإنسان على ما يتعامل به الناس فى أسرارهم وفى خاصة أنفسهم، مما يمكن أن يراه المتجسس انتقاصا ـ ولو لم يكن كذلك فى الواقع؛ لاختلاف وجهات النظر فى مثل هذه الأمور الداخلية الخاصة...

ولهذا فقد نهانا الله عن ذلك بقوله: ﴿ ... وَلَا تَجَسَّسُوا ... ﴾[1].

٥ ـ التوقف والعزوف عن تعاطى الظن، ومحاولة صرف النفس عنه؛ حتى لا يتعهده المرء، وإن فعل فليكن ذلك لِمَاماً ومصادفة، مع الإقلاع عنه فى الحال؛ لأن التمادى فيه ينميه ويوغر الصدر، مما يجعل التخلص منه صعبا؛ ولهذا فقد نهانا الله عن الإكثار منه، واجتنابه أو اجتناب الكثير منه...

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... ﴾[2].

---

(١) و (٢) سورة الحجرات ـ من الآية (١٢).

المبحث الرابع
طرق أخرى للاستقراء الانفرادي لنفسية المدعو

إن من لوازم الداعى أن يكون كَيِّساً فَطِناً، ولا يكون غافلا ولا متبلد الذهن، ولا يكون غِراً يستغفله السذج لينالوا منه ما يريدون، أو يستغلونه ليحصلوا منه على ما يهدمون به الدعوة.

وهذا الاستقراء للحالة النفسية للمدعو يأتى عن طريق الملاحظة الدقيقة والحدس السريع والبديهة الحاضرة، والفراسة العميقة التى هى نور يقذفه الله فى روع عبده المؤمن، فيدرك به ما لا يدركه غيره، ويتسع نطاق الفراسة بمدى قرب الإنسان من ربه، وبكثرة الذكر والورع، وملازمة العبادة، وكثرة النوافل، وتحرى أكل الحلال الطيب، والمراقبة الشديدة المستمرة لجنب الله، تعالى . . .

ونذكر فيما يلى بعض العلامات الحسية التى يستنبط منها الداعى الحالة النفسية للمدعو.

قراءة تعابير وجه المدعو، بعد التمعن فيه جيدا؛ فإن ذلك يعطيك علامة ودلالة على دواخل النفس، فالوجه مرآة الداخل، وهى (الشاشة) التى تعكس الصورة الداخلية للنفس، وتفصح بحالتها ووضعها عن سريرة

صاحبها، فإذا كان الإنسان خبيثا ماكرا خِبّاً، يظهر ذلك على قسمات وجهه، فتراه ينظر شذرا، ويضحك ضحكة صفراء باهتة تنم عن المكر والخداع، فليكن الداعى معه كما جاء فى الأثر عن عمر، رضى الله عنه: (لست بالْخِبِّ ولا الخِبُّ يخدعنى...).

وإذا كان خائفا ترى وجهه تعلوه صفرة، ويكون لونه شاحبا، زائغ العينين، مضطربا فى كلامه لا يثبت على شىء... كما تدلك نبرات صوته وتلعثم حديثه على خيانته، مثلما تدلك الأقوال المضطربة التى يدلى بها، حيث تكون متناقضة ملفقة وغير مترابطة، مع ضعف فى رباطة الجأش وتماسك القوى..

كما يستطيع الداعى أن يستنتج حالة المدعو النفسية من دراسة خلفيته والدوافع التى دفعته للقيام بهذا الفعل بعينه. مثلما حدث مع ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عندما جاءه شاب وهو فى مجلسه، وقال له فى اندفاع:

هل للقاتل من توبة؟! فقال له ابن عباس: لا!! وعندما سأله الحاضرون: كيف تحول بينه وبين التوبة التى يعلم كل مسلم أن بابها لا يغلق ما لم تبلغ الروح الحلقوم؟! قال لهم: إنى قلت له ذلك، لأنى رأيت القتل فى عينيه!! إنه يريد أن يقتل ثم يتوب!! وهذا الموقف حذق وفراسة من ابن عباس...

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يدرس أحوال المدعوين النفسية، ثم يجيب كل واحد ويرشده بحسب مقتضى تلك الدراسة، بما يصلح شأنه؛ ولهذا فقد يكون السؤال واحدا والإجابة متعددة بحسب أحوال السائلين النفسية، كل شخص يجاب بما يصلح حاله...

فقد يأتيه شخص ويسأله أن يوصيه، فيوصيه بعدم الغضب، ويقول له:

(لا تغضب) فيكرر طلبه مرارا بالوصية، فيقول له الرسول، صلى الله عليه وسلم: (لا تغضب)[1].

ويأتيه آخر ويقول له: اشفع إلى ربك فليعتقنى من النار، فيقول له، صلى الله عليه وسلم: (فَأعِنِّى على نفسك بكثرة السجود)[2].

ويسأله رجل آخر عن أفضل الصلاة فلا يصف له ما وصفه للأول، من كثرة السجود، بل العكس من ذلك تماما؛ لما يعرف من حاله أنه يحب تطويل الصلاة أو ما عرف منه من جلد وصبر. . .، وعرف أن الذى يناسب حاله فى العبادة أن يطيل الصلاة، بعكس الأول الذى ربما لا يستطيع أن يطيل، ولكنه يقدر على كثرة وتعدد الركعات؛ ولهذا وصف للأول كثرة السجود، وقال لهذا: أفضل الصلاة (طول القنوت)[3].

ويسأله آخر أن يدعو الله له أن يكون مجاب الدعوة، فيقول له:

(أَطِبْ مَطْعَمَكَ تُسْتَجَبْ دَعْوَتُكَ. . وفى رواية: تكنْ مُسْتَجَابَ الدعوةَ. .)[4].

ويقول فى صنف آخر على وجه التعميم: (من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تكشف كربته، فليفرج عن معسر. .)[5].

---

(١) البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب الأدب، باب (٧٦) الحذر من الغضب، ١٠/٥١٨.

(٢) رواه مسلم فى كتاب الصلاة برقم (٢٢٥) والإمام أحمد فى مسنده ٤/٥٩، وأبو داود فى سننه، كتاب التطوع باب رقم (٢٢).

(٣) رواه مسلم فى كتاب الصلاة، باب أفضل الصلاة طول القنوت.

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ١٠/ ٢٩١، وإتحاف السادة المتقين للزبيدى ٥/٤١، والترغيب والترهيب للمنذرى ٢/٥٤٧، ورواه ابن كثير فى تفسيره ١/ ٢٧٢.

(٥) ذكره ابن حجر العسقلانى فى كتاب. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية حديث رقم (١٣٣٩٣).

وهكذا تكون دراسة أحوال المدعو، لا تسير على وتيرة واحدة، ولا تنسج على منوال واحد؛ ذلك لأن خالق النفوس البشرية لم يخلقها سواء، فليفطن إلى ذلك الدعاة، ولا يكونوا من الغافلين...

السايكولوجية البشرية والإسلام

لقد ذكرنا فى مرات عديدة مما سبق فى هذا الكتاب، أن مدارس علم النفس العام، على اختلاف مناهجها وتنوعها، وعلى الرغم من كل اجتهاداتها ـ لم تصل إلى تفسير مقنع وحاسم لتفاعلات النفس البشرية، ولم يصلوا إلى علاج ناجع لكثير من أدوائها، وإن استطاعوا أن يفعلوا بعضا من ذلك، ولكنه جهد المقل، ومعهم العذر فى ذلك؛ لأن النفس لا يستطيع البشر ـ مهما كانت درجات علمهم ـ أن يسبروا غورها، ولا أن يدركوا كنهها، وليس ذلك إلاّ لخالقها وحده. . . : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[1].

وسوف نطوف فى الأسطر القادمة ـ إن شاء الله ـ تطوافا متفرقا وسريعا حول بعض المفاهيم الإسلامية للنفس البشرية ـ عرضا وعلاجا ـ من غير تركيز على عنصر بعينه، وإنما هى جولات لأَخْذِ النماذج وإبراز العينات كشرائح قياسية لغيرها. . . فنذكر من ذلك:

نزول القرآن الكريم وأثره على النفس:

بما أن القرآن الكريم هو الكتاب الذى ارتضاه الله ليكون دستورا للدين الخاتم، ولتقوم به حياة البشرية كافة فى كل أعصارها وأمصارها ـ لما كان القرآن كذلك، فقد شاءت إرادة الله أن يجمع فيه الصفات اللازمة لتسيير دفة الشئون البشرية، من مرونة وثبات، بما يحويه من تشريع مرن وثابت، فى آن واحد، وسعة لا تحدها حدود الزمان أو المكان، فليس هو بالجامد الذى تتخطاه عجلة الزمن، ولا الفج المائع الذى تتقاذفه الأيدى بالتحريف، فتعصف به ريحها. . ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾[2].

---

(١) سورة الملك ـ الآية (١٤).

(٢) سورة الواقعة ـ الآيتان (٧٧ و ٧٨).

كما أنه: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[1].

وهو كما وصفه المنزل عليه، صلى الله وسلم: (لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق على كثيرة الرد...)[2].

وخلافا للكتب السابقة، فقد نزل القرآن بصورة تنم عن أنه الكتاب ذو النفس الطويل، الذى يعالج الوقائع والأحداث على تؤدة وتأن... فقد جاء نزوله على الرسول الخاتم، صلى الله عليه وسلم، مُنَجَّماً، لم يكتمل عقده الفريد إلاّ خلال ثلاثة وعشرين عاما، تدرج خلالها بالنفس البشرية رويدا رويدا، لم يأخذها دفعة واحدة، حيث يخالف ذلك طبعها وتنبو عنه سجيتها..

وهذا علاج للنفوس يفوق محاولات المدارس البشرية؛ لأن النفس لا تألف الجديد فى الفكر والمعتقد والعادات والتقاليد إلاّ قسرا وقهرا، ولكنها تقبله إذا ألفته بعد طول ممارسة وتمرين وترويض، وإلاَّ أحدث لها ذلك هزة عنيفة لم تقم بعدها...

لقد كان القرآن ينزل كل مرة بتشريع وعقيدة جديدة، ويأتى بأوامر ونواهٍ لم تعرفها ولم تألفها النفوس، فلو لم يُرَاعِ حال الناس، وسهولة قبولهم للجديد، لما أمكن معالجة تلك النفوس، كما أن القرآن أتى ليقتلع عادات اختلطت بالنفس، وما زجت العقل حتى غدت عقيدة راسخة لا يمكن أن تقتلع بالقوة أو تنتزع بسهولة، ولكن القرآن راعى كل تلك التراكمات النفسية، فكان يعطى الدواء فى جرعات متباعدة، حتى إذا هضم المريض

---

(١) سورة هود ـ من الآية (١).

(٢) رواه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن، باب (١٤) ما جاء فى فضل القرآن، ١٥٨/٥. ورواه الدارمى فى سننه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن، ٢/ ٤٣١.

جرعة واستساغها وذاق طعم العافية فيها تشوق للأخرى، فتأتيه بفيض جديد وترياق ناجع بمذاق مستساغ مستعذب. .

وهكذا كان شأن التشريع كله، وهو ما ينبغى أن يراعيه الدعاة والمشرعون دائما فيما استجد على الناس ولم يكن لهم به سابق عهد، وهذا ما شهدت به السيدة عائشة، رضى الله عنها، فى حوارها التالى مع العراقى قائلا: أى الكفن خير؟ قالت: ويحك ما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين أرينى مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلى أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيَّهُ قرأت قبل؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شىء، لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبدا!! ولو نزل لا تزنوا، لقالوا لا ندع الزنى أبدا!! لقد نزل بمكة على النبى، صلى الله عليه وسلم، وإنى لجارية ألعب ـ: بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر. وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجتْ له المصحف، فأملتْ عليه آى أى السور)[1].

ومراعاة لنفسيات الناس، فقد خففت الصلاة من خمسين صلاة فى اليوم والليلة إلى خمس صلوات فى اليوم والليلة، مع بقاء ثواب الخمسين. وهذا فيه دافع قوى للنفس البشرية وإعطائها حيوية ونشاطاً، عندما تعلم أنها تؤدى عملا يعادل عشر ثوابه. . . إنها شريعة الإسلام، التى لو عرفها العالم حق المعرفة لما تخلف عن ركب الإيمان ـ بعد توفيق الله ـ لأن الإنسان حريص على ما ينفعه، لو ضمن ذلك وأيقن به، ولكن فقط يحتاج إلى الوسائل التى توصله إلى درجة اليقين، وهذا أمر ليس بمعضلة فى عصرنا هذا، لو خلصت

---

(١) رواه البخارى فى كتاب فضائل القرآن، باب (٦) تاليف القرآن، الفتح ٣٨/٩. ورواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، ٢٣٨/٥.

النيات وتجردت إلى ربها، فإن وسائل إيصال المعلومة أصبحت في غاية اليسر والسهولة، وبقليل من الجهد مع شيء من المال يمكن أن يعرف الناس الإسلام، وبالتالى تتغير خريطة العالم العقدية. . . والأمة الإسلامية ـ خاصة العربية منها ـ والتى هى فى الأصل أمة الرسالة وحاملة لوائها ـ لديها المال الكافى لتوصيل الإسلام للناس. . .

وهناك ميزة أخرى، وخاصية من خصائص التشريع الإسلامى، لا توجد فى التشريعات الأرضية الوضعية، لها الأثر الأكبر والمفعول الحميد على النفس البشرية، تجعل الإنسان يتقبل التكاليف الشرعية الإسلامية بكل هدوء، ويقوم بها وهو راض وبمحض اختياره، ويحرص عليها، بل ويعض عليها بالنواجذ، تلك الخاصية هى أن هذا التشريع من عند الله، تعالى، الذى خلق هذا الإنسان، والذى يرجو منه أن يمنحه العفو والعافية، بخلاف التشريع البشرى الذى يحس معه المكلف أنه يأتمر بأمر بشر مثله لا يفضله بشيء، ولا يرجو منه ما يرجوه من ربه وخالقه. . .

كما أن فى التكليف الإسلامى يرجو المكلف الثواب على عمله من الله، مما يدفعه للإخلاص فيه، وبذل جهده فى الإنتاج، وقبوله بنفس راضية، ويعتبره عبادة خالصة لربه يرجو ثوابها، مما يكسب النفس الإنسانية الراحة والهدوء، وهما مما تفتقدهما فى التشريعات البشرية الأرضية. .

كما أن من أثر التكليف الشرعى على نفس الإنسان، أنه لا يُكَلَّفُ ما لا يطيق، بخلاف التكاليف البشرية التى لا تراعى هذا الجانب أو لا تستطيع تقديره حتى لو أرادت ذلك، لعدم معرفتها وتقديرها التام للقدرات البشرية والفوارق الناجمة عنها بين بنى البشر وتحملهم للتكاليف؛ ولهذا نجد المسلم يقوم بالعمل التكليفى وهو راض ومنشرح الصدر، لا يسخط ولا يسب، إلا إذا كان ضعيف الإيمان، أو لم يعرف أن هذا الأمر المكلف إياه من عند الله،

ولا يقاس على ما نقول ما هو واقع بين المسلمين اليوم؛ حيث إن ما يقومون به لم يأتهم من عند الله، وإنما مثله مثل كل التكاليف فى العالم المعاصر غير الإسلامى، إن لم يكن نسخة منه طبق الأصل. . .

ولكن الذى نتحدث عنه هو ما كان فى صلب التشريع الإسلامى الذى يطابق ما جاء به القرآن الكريم وسنة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو الذى يحدث الأثر النفسى الإيجابى لدى الفرد المسلم والجماعة المسلمة على حد سواء. .

وهذا الذى ذكرناه سابقا من أثر التكليف الشرعى على النفس، يذكِّرنا بأثر ما فى التشريع الإسلامى من الثواب والعقاب، الذى يختلف عن غيره من عقاب حيث لا يأتى العقاب فى التشريع الإسلامى إلا بعد وضع كثير من الحواجز التى تحول بين الإنسان وبين الوقوع فى المحظور، كما أن العقاب الدنيوى عندما يوقع على الإنسان يكون تطهيرا له ومنجاة له من العقاب الأخروى، وهذا الأخير دافع نفسى كبير على تقبل العقاب لمن وقع فى طائلة المحظور، يجعل له الأمل فى الحياة الأخرى. . .

ففى الحالة الأولى، وهى الحواجز التى توضع لتحول بين الإنسان والوقوع تحت طائلة العقاب، نمثل لها بمثال توضيحى يقاس عليه غيره ويلحق به، فمثلا:

جريمة الزنى: نجد قبلها متاريس عديدة تحول بين الشخص وبين الوقوع فيها، منها[1]:

١ ـ منع استدامة النظر، وألا ينظر الرجل للمرأة ولا المرأة للرجل بصفة مستديمة، بل يقتصر على النظرة الأولى التى تمليها الضرورة، ثم يشيح كل

---

(١) انظر: الدافع الجنسى ص ١٨٣ من هذا الكتاب.

واحد بوجهه عن الآخر، حتى لو كان هناك حديث بينهما. . . فجاء النهى عن ذلك بنصوص قاطعة لا تحتمل التأويل، وهذا لا يوجد فى غير التشريع الإسلامى من التشريعات التى يتعامل بها البشر اليوم. يقول الله، تعالى:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

ونرى الآيات تفصل وتتوسع فى حق النساء أكثر من الرجال، وذلك لحرص الإسلام على صيانة العرض وحفظ المرأة وصونها لخطورة هتك عفتها، وأنها إن فقدت هذه العفة فسوف تفقد حياتها، حيث إن المرأة الساقطة لن يرغب فيها أحد من الرجال، ولأمر آخر يتعلق (بسايكولوجية) المرأة، وهى سرعة انجذابها وسهولة خدعتها، ولعاطفتها الجياشة، ولرغبتها فى عدم إحراج الآخرين، وسهولة انقيادها، وقلة خبرتها، ولتكون عزيزة مكرمة مصونة تُطْلَبُ ولا تَطْلُبُ، والرجل الذى يرغب فى بناء أسرته لا يرغب فى المرأة السافرة المكشوفة التى تذوقها أعين الرجال، بل يريدها بيضة مكنونة ودرة مصونة. وشىء آخر فى المرأة هو أن الكثير المستفيض منهن لا

---

(١) سورة النور ـ الآيتان (٣٠ و ٣١).

يعتنين بغض البصر وكأنه شيء خاص بالرجال، فنجد المرأة تحملق فى وجه الرجل وتتفرس فيه، إلا من عصمها الله، ثم الحياء الفطرى.

وورد النهى عن إتباع النظرة الأخرى فى السنة النبوية مرفوعا، قول النبى، صلى الله عليه وسلم، لعلى: (يا على لا تُتْبِعِ النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة)[1].

وورد فى حديث النهى عن الجلوس فى الطرقات، حتى لا يتعرض المسلم للنساء بالنظر الذى يوقع فى المحظور، قول النبى، صلى الله عليه وسلم: (إياكم والجلوس فى الطرقات، فقالوا: يارسول الله. ما لنا من مجالسنا من بد، نتحدث فيها، فقال: فإذا أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غضِ البصر، كف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)[2].

وغير ما ذكرنا كثير من الأحاديث التى تسد هذا الباب الخطير..

٢ ـ من الحواجز التى أقامها الإسلام للحيلولة دون الوقوع فى المحظور، وبالتالى الوقوع تحت طائلة العقاب، النهى عن الخلوة بين المرأة والرجل، حيث تعتبر الخلوة من المثيرات النفسية القوية، وهى من الدوافع القوية للوقوع فى الزنى؛ ولهذا وضع الإسلام لها حدا وشدد فى الاختلاط إلا فى حالات الضرورة التى يخاف فيها على هلاك النفس، وفى هذه الحالة تبتعد الحوافز؛ لأن النفس تنصرف إلى شيء آخر وهو نجاتها، فقد حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، قائلا:

---

(١) رواه الترمذى: كتاب الأدب، باب (٢٨) ما جاء فى نظرة الفجاءة، ٩٣/٥ وأحمد فى المسند ٣٥١/٥.

(٢) رواه البخارى: كتاب الاستئذان، باب (٢)، الفتح ٨/١١.

(لا يَخْلُوَنّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان)[1].

٣ ـ منع الإسلام الاختلاط بين الذكور والإناث على الوجه الذى يؤدى إلى الوقوع فى حبائل الرذيلة، وبالتالى يورد صاحبه موارد العقاب... والاختلاط ظهرت نتائجه السيئة لدى المجتمعات الغربية، حيث كثرت الذرية التى لا أب لها والتى امتلأت بها دور الأيتام، مما تسبب فى مشاكل اجتماعية عديدة وأدى إلى مشاكل اقتصادية مزرية.

٤ ـ أمر الإسلام المرأة بالتستر والحشمة، وألا تكون سافرة تستدعى الرجال بإظهار مفاتنها وإبراز محاسنها. والآية السابقة واضحة فى ذلك، حيث أُمِرَتْ المرأة بعدم إظهار زينتها إلا فى حالات تأمن فيها الفتنة، عددتها تلك الآيات، وكذلك قوله، تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2].

٥ ـ ومنها الحث على الزواج والترغيب فيه، وهو حصن للإنسان، وكابح لجماع النفس وشهواتها، حتى فى الحالات التى يخاف الإنسان فيها على نفسه وهو متزوج، مع ندرتها إلا عند ضعاف النفوس... حتى هؤلاء أمرهم الإسلام بأن أحدهم إذا رأى امرأة أعجبته أن يأتى أهله حتى تنقطع شهوته، ويشبع رغبته من النساء، فيزول ما به من هيجان جنسى: (عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: رأى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، امرأة فأعجبته، فأتى سودة وهى تصنع طيبا وعندها نساء، فأخلينه، فقضى حاجته، ثم قال: أيما رجل رأى امرأة تعجبه فليقم إلى أهله فإن معها مثل الذى معها)[3].

---

(١) البخارى: كتاب الاستئذان، باب (٢) الفتح ٨/١١.

(٢) سورة الأحزاب ـ الآية (٥٩).

(٣) رواه الدارمى فى كتاب النكاح، باب الرجل يرى المرأة فيخاف على نفسه، ١٤٦/٢.

وحث الشباب على الزواج، فقال الرسول، صلى الله عليه وسلم:

(يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء)[1].

كل تلك عقبات وحواجز يضعها التشريع الإسلامى؛ لتقف سدا منيعا، وحجرا محجورا أمام الإنسان والوقوع فى الجريمة، ذكرنا منها نموذجا واحداً لندلل به على الأثر النفسى الذى يحدثه التشريع الإسلامى فى الإنسان؛ ليجعله إنسانا سويا يستحق التكريم، ولينعم بالهدوء والطمأنينة النفسية.

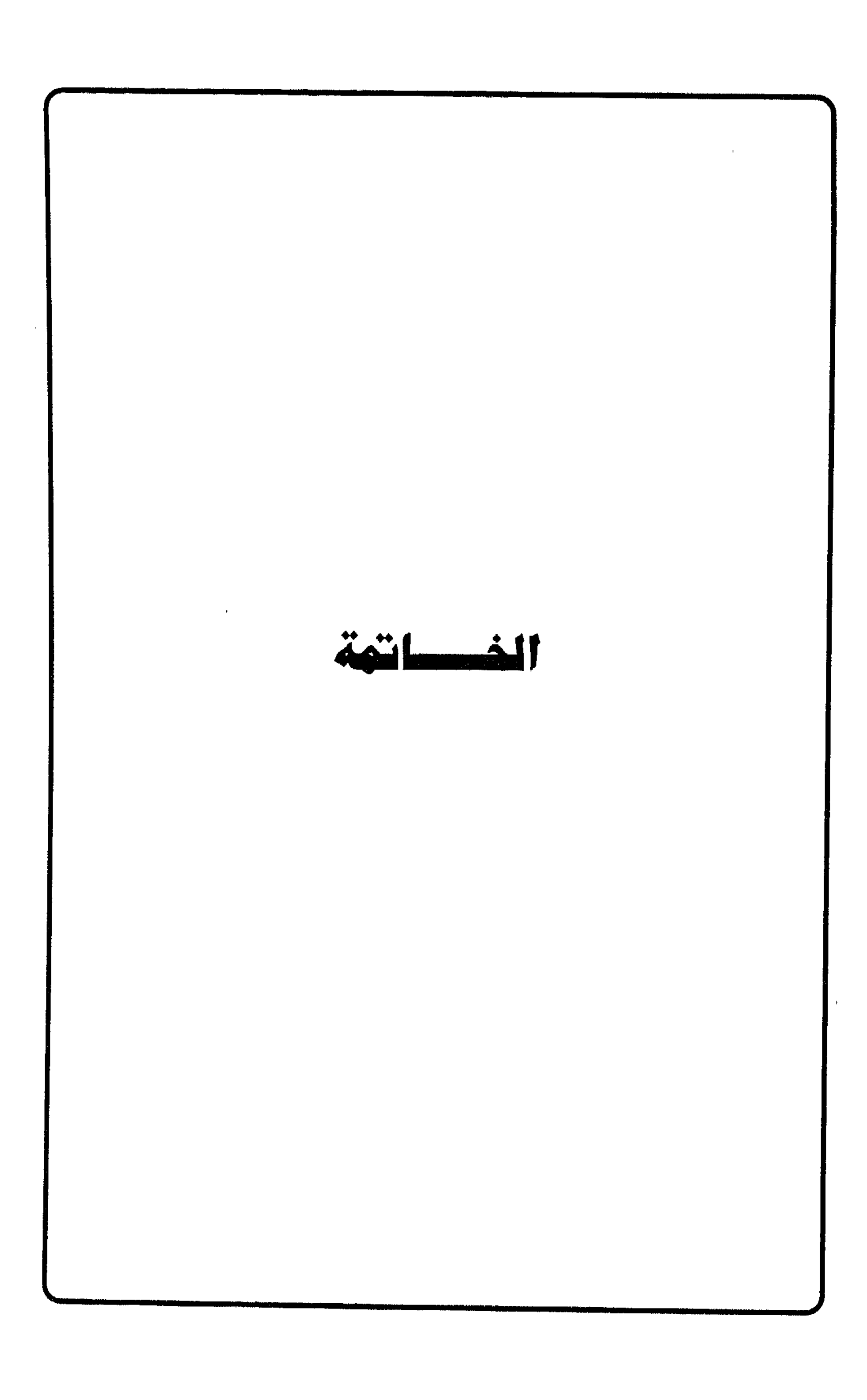
* إن التدرج بالنفس وعدم القفز بها، منهج إسلامى أصيل ينتظم كل جوانب الإسلام فى كل تعامله مع النفس البشرية، وهو ناموس كونى فطر الله عليه هذا الكون الذى لم ينج هو من ذلك التدرج؛ حيث لم يخلقه الله دفعة واحدة، بل فى ستة أيام، وهو القادر على أن يقول له كن فيكون فى لحظة لا تقدر بزمن... ولكنها سنته اقتضت التدرج؛ ليكون منغرساً فى أعماق النفس البشرية، ولا تصلح إلا به... وهكذا يتعامل الإسلام مع نفسية البشر، فهل يعرف الدعاة ذلك؟ هذا ما نرجوه لنجاحهم فى مهمتهم.

والإسلام بذلك يحقق للفرد الأمن النفسى الداخلى، ويوقظ فيه الحس الباطنى، ويبعث الضمير الحى... كل ذلك بسبب الدعوة الصالحة المخلصة من الداعى الفطن...

---

(١) سبق تخريجه، انظر: ص ٨٣ من هذا الكتاب.

* للوقوف على نماذج من مساوئ الاختلاط انظر كتابنا مجالات انتشار العلمانية ص ٥١.



الخـــاتمة

الحمد لله الذى بنعمه تتم الصالحات، وله الشكر على أن هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا . . .

وبعد . . . . .

فإن القارئ لهذا الكتاب سوف يلاحظ أننا خلصنا إلى النتائج التالية:

١ ـ أن موضوع هذا الكتاب هو أحد العلوم التى تهدف إلى خدمة الدعوة الإسلامية.

٢ ـ أن المادة المبثوثة فى هذا السفر جديدة فى مضمونها ومعالجتها.

٣ ـ أننى لم أعثر على تعريف جامع مانع لهذا العلم ـ حسب اطلاعى ـ ولهذا فقد قمت بتعريفه من اجتهادى.

٤ ـ أن الغرض من تأليف هذا الكتاب هو خدمة الداعى والمدعو وطلاب العلم.

٥ ـ يصلح هذا الكتاب للقارئ العادى المسلم، كما يصلح للمتخصص، على حد سواء.

٦ ـ المنهج الذى عالجت به موضوعات الكتاب يختلف عن مناهج علم النفس العام.

٧ ـ كما يلاحظ القارئ تخبط مدارس علم النفس حول مفهوم النفس الإنسانية وأفضل السبل لمعرفتها.

٨ ـ جاء هذا الكتاب موثقا توثيقا كاملا، مما يجعله مرجعا علميا يعتمد عليه.

٩ ـ علم النفس العام فى أصله ومضمونه نَبْتٌ غير إسلامى، يلزم تنقيته ليصلح للبلاد الإسلامية.

١ ـ كما خلصنا إلى أنه لابد للداعى أن يتعرف على تلك العلوم، ولكن بعين فاحصة، وفكر ناقد.

وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

ثبت المراجع

المسلسل	المرجع	المؤلف	جهة النشر
١	القرآن الكريم		
٢	إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالى	دار إحياء التراث ـ بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ)
٣	أصول علم النفس	د. أحمد عزت راجح	المكتب المصرى ط٧ (بدون تاريخ)
٤	الإرادة وفن الحياة	بيير داكو، ترجمة رعد إسكندر وأركان بيثون.	مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة (بدون تاريخ)
٥	إتحاف السادة المتقين	للزبيدى	
٦	البداية والنهاية	لابن كثير	مكتبة المعارف ـ بيروت (بدون تاريخ)
٧	البث المباشر	د. ناصر سليمان العمر	دار الوطن ـ الرياض ـ السعودية ط٢ (١٤١٢ هـ)

المسلسل	المرجع	المؤلف	جهة النشر
٨	تأويل مشكل القرآن	عبدالله بن مسلم بن قتيبة المروزى	دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ط ٣ (١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م)
٩	التفكر	د. مالك بدرى	دار الوفاء بالقاهرة ط١ (١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م)
١٠	الترغيب والترهيب	للمنذرى	
١١	الجامع لأحكام القرآن	لأبى عبد الله القرطبى	دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ (١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م)
١٢	جامع الشمل	الشيخ محمد بن يوسف أطفيش	مكتبة الاستقامة ـ مسقط (بدون تاريخ)
١٣	جسمك كله عجائب	فريق من المتخصصين	دار المعارف بتونس (بدون تاريخ)
١٤	جريدة (المسلمون)		العدد (٣٨٢، ٣٨٦، ٣٩١)
١٥	حلية الأولياء	أبو نعيم الأصبهانى	مطبعة الخانجى بالقاهرة (بدون تاريخ)
١٦	دراسات فى النفس الإنسانية	محمد قطب	دار الشروق ط٦ (١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م)

المسلسل	المرجع	المؤلف	جهة النشر
١٧	الرحيق المختوم	صفى الرحمن المباركفورى	دار الحديث بالقاهرة (١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م)
١٨	سنن ابن ماجه	محمد بن زيد القرشى بن ماجه	دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان (١٤٠٥ هـ - ١٩٧٥ م)
١٩	سنن الترمذى	محمد بن عيسى الترمذى	دار الفكر - بيروت (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)
٢٠	سنن أبى داود	أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى	دار الفكر بيروت (بدون تاريخ)
٢١	السلوك الإنسانى	د. انتصار يونس	دار المعارف بمصر (١٩٨٤ م)
٢٢	سنن الدارمى	للإمام عبدالله بن عبدالرحمن الدارمى	دار الكتاب العربى (بدون تاريخ)
٢٣	السيرة النبوية	لأبى محمد عبدالملك بن هشام المعافرى	المكتبة التوفيقية بالقاهرة (بدون تاريخ)
٢٤	السنة	ابن أبى عاصم	المكتب الإسلامى بدمشق (بدون تاريخ)

المسلسل	المرجع	المؤلف	جهة النشر
٢٥	سنن النسائى	حمد بن شعيب دينار النسائى	ط ٢ بيروت (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)
٢٦	صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى	مطبعة عيسى الحلبى ط١ (١٣٧٤ هـ - ١٩٧٢ م)
٢٧	صحيح البخارى	محمد بن إسماعيل البخارى	المطبعة السلفية بالقاهرة (١٣٨٠ هـ)
٢٨	صحيح ابن حبان	ابن حبان	المطبعة السلفية بالقاهرة (بدون تاريخ)
٢٩	علم النفس الفيسيولوجى	د. كاظم ولى آغا	دار الآفاق - بيروت - ط١ (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م)
٣٠	علم النفس الاجتماعى	د. فؤاد البهى السيد	دار الفكر العربى بمصر (بدون تاريخ).
٣١	علم النفس	د. عبد العزيز القوصى	
٣٢	فتح البارى	لابن حجر	دار المعرفة - بيروت (بدون تاريخ)
٣٣	فى ظلال القرآن	سيد قطب	دار الشروق -

المسلسل	المرجع	المؤلف	جهة النشر
			بيروت ط ١٢ (١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م)
٣٤	الفوائد	لابن قيم الجوزية	المكتبة القيمة بالقاهرة (بدون تاريخ)
٣٥	فن نشر الدعوة	د. محمد زين الهادى	دار العاصمة ـ الرياض ـ السعودية ط١ (١٤٠٩ هـ)
٣٥	لسان العرب	لابن منظور	دار المعارف بالقاهرة
٣٦	مجمع الزوائد	للهيثمى	
٣٧	مدخل إلى التصور الإسلامى للإنسان والحياة	د. عابد توفيق الهاشمى	دار الفرقان ـ عمان ـ الأردن ط١ (١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م)
٣٨	الموطأ	الإمام مالك بن أنس	دار الكتاب المصرى (بدون تاريخ)
٣٩	منهج تقديم الدعوة	د. محمد زين الهادى	مركز الكتاب للنشر بالقاهرة ط١ (١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م)

المسلسل	المرجع	المؤلف	جهة النشر
٤٠	مدارس علم النفس	د. فاخر عاقل	دار العلم للملايين - بيروت ط١ (١٩٨٣ م)
٤١	من علم النفس القرآنى	د. عدنان الشريف	دار العلم للملايين ط١ (١٩٨٧ م)
٤٢	مجلة الوعى الإسلامى		العدد (٣١٦)
٤٣	منهاج الحياة	د. محمد زين الهادى	دار العاصمة - الرياض - ط١ (١٤٠٨ هـ)
٤٤	المستدرك على الصحيحين	للإمام أبى عبدالله الحكم النيسابورى	دار المعارف - بيروت (بدون تاريخ)
٤٥	المنهج العلمى للدعوة	د. محمد زين الهادى	مركز الكتاب للنشر بالقاهرة ط١ (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م)
٤٦	المسند	الإمام .أحمد بن حنبل الشيبانى	المكتب الإسلامى - بيروت ط٢ (١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م)
			دار الثقافة - بيروت

المسلسل	المرجع	المؤلف	جهة النشر
٤٧	المدخل إلى الطب النفسى	د. الزين عباس عمارة	ط١ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)
٤٨	مشكاة المصابيح	للتبريزى	
٤٩	اليوم الآخر (القيامة الصغرى)	د. عمر سليمان الأشقر	مكتبة الفلاح بالكويت ط١ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة